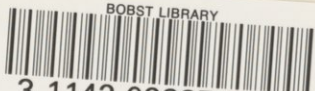


BOBST LIBRARY



3 1142 02885 5362



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

روايات

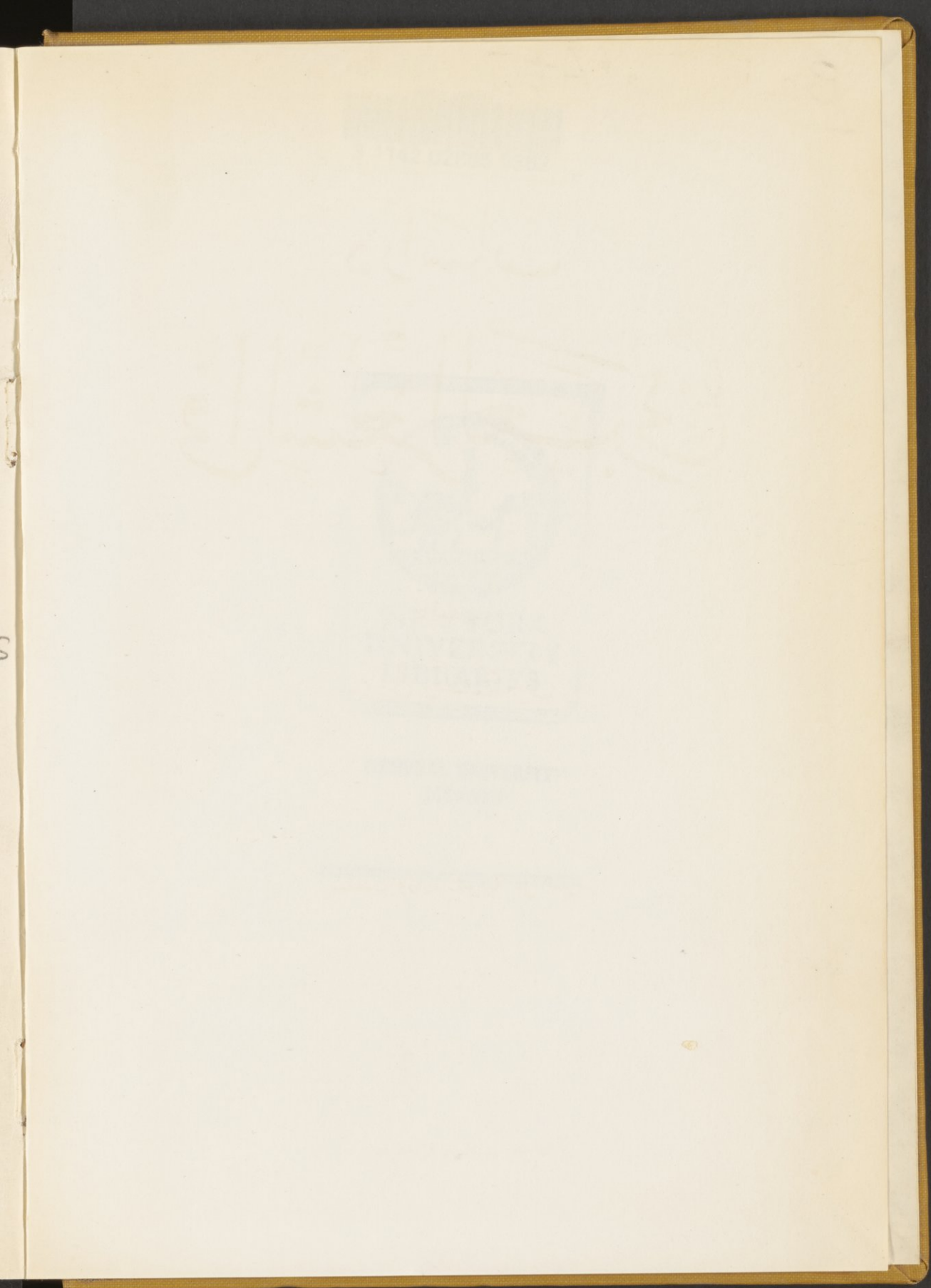
في الشعر العربي

مجلد اول

عبدالمجيد

دار الفکر للطباعة والنشر

بيروت - لبنان



Ba krū و 'Atā

دراسات

في الشعر العربي

Dirāsāt fī al-shi'ar al-'Arabī

تأليف

عطاء بكرى

front

سأدت وزارة التربية على نشره

119677

مطبعة الارشاد - بغداد

Near East

PJ

7551

.B3

C.1

تصدير

سلمتني يد كريمة ، هي غير يد المؤلف الفاضل ، مسودات هذا الكتاب لاقراءه ، فأرى فيه رأبي ، فاكتب له مقدمة تتضمن هذا الرأي • فقلت لنفسي : ستكون هذه اغرب مقدمة لكتاب • ذلك لأنني ساقدم للقراء كتابا لم اعرفه بشخصه ، بل اعرفه بكتابه ، وسيكون هذا ، في نظر بعض الناس ، تكليفا تكون حصيلته مقدمة متكلفة • وتذكرت في الحال عبارة علفت بذهني لكاتب انكليزي هو جورج كراب George Crabb ترجمتها :

« لا نجد في المقدمات - في غالب الاحيان - سوى فقرات من الجراءة التي مبعثها الغطرسة و •• » وبقية العبارة اشد قسوة على كتاب المقدمات •

وفتحت الكتاب ومضيت في قراءته ، بل في دراسته ، واذا انا اتقل بين مجموعة من المقالات ، كتبت - على ما يبدو - في اوقات مختلفة ، قدم فيها المؤلف الفاضل دراسات تحليلية موفقة - في جملتها - في اشهر الاغراض الشعرية المعروفة في الشعر العربي • واتخذ لكل غرض شاعرا يمثل شعره ذلك الغرض ، بل لنعكس المسألة فنقول : لقد رسم المؤلف بقلمه وصور بعباراته الانيقة اعلاما شامخة في الشعر العربي ، وخلع على كل منهم اللون الذي يغلب على شعره • ولم يفته تصوير الجو النفسي والطبيعي والتاريخي والثقافي الذي أثر في الشاعر وفي شعره ، كما لم يفته تصوير اثر الشاعر في محيطه او في المذهب الشعري الذي تناوله • ويمضي القارئ في هذه الدراسات وهو مقتنع بان كلا من هؤلاء الشعراء قد انتهت اليه الامامة في الغرض الشعري الذي خصه به المؤلف وساق الدليل على ذلك باضمامه منتقاة من شعر الشاعر حتم بها كل بحث من بحوثه ليكشف لنا الجوانب المختلفة للغرض الشعري الذي ميز

شعر الشاعر عن غيره •

ولقد اسعدتني مطالعة هذه المسودات (واعتذر عن اقحام لذتي الخاصة في هذا المجال) بأن اعادت الى ذهني (قضايا ادبية) مرت بي في اول العهد بالطلب ، فبهتت صورتها ونصل لونها ، ولكنها عادت اليوم نابضة بحياة جديدة •••

وابرز هذه القضايا قضية (الانتحال) في الشعر الجاهلي • وقد اثارها الدكتور طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) فحدث ضجة عنيفة في مصر ، وقام الازهر وقعد ، وتعرض موقف وزيرى المعارف والعدل آنذاك للاستقالة من الوزارة • ونصح طه حسين بأن يسافر الى الخارج ، فيمم فرنسا • وصودرت نسخ الكتاب واحرقت • وانبرى للرد على ما جاء فيه الكثير من الكتاب في مصر وفي البلاد العربية • وألفت الكتب والرسائل ونشرت المقالات الحادة العنيفة في ذلك ، متهمة طه حسين ، بالمروق من الدين ، وبالخروج على الاسلام ، وبالخطأ في الاجتهاد ••• واذكر من هؤلاء صاحب كتاب (الشهاب الراصد) المحامي محمد لطفي جمعة ، والغمراوي ، كما اذكر مقالين ساخرين للمازني تجدهما في آخر كتابه (قبض الريح) •

على أن احرار الفكر في البلاد العربية انتصروا لظه حسين ، كما انتصروا لعلي عبدالرازق ، الذي اثار كتابه (الخلافة واصول الحكم) ما اثاره كتاب زميله طه • ونذكر من صدى هذه الحركة الادبية الحامية في العراق أن شوقي ، حين يبيع بامارة الشعر باحتفالات فخمة في مصر ، نظم معروف الرصافي قصيدة مطلعها :

امارس دهرا من جديديّ داهرا
وقد بت ليلى في العراقين ساهرا

أشار فيها الى محنة الفكر التي امتحن فيها كل من طه حسين وعلي
عبدالرازق بقوله في شوقي وفي مبايعته بامارة الشعر :

ألا ان شوقي شاعر جد شاعر
يفوق الاوالي بل يبرز الاواخر

ولكنني قد انظر الحفلة التي
تقام له في مصر ذا اليوم ساخرا

فقد اسمعتنا ضجة أمطرت بها
(علياً) و (طه) حاصبا متطائرا

فما بال هذا عد في مصر مارقاً
وما بال هذا عد في مصر كافرا

اذا لم تك الافكار في مصر حرّة
فليس لمصر ان تكرم شاعرا

وحين اعاد طه حسين طبع الكتاب حذف منه فصلين واطاف اليه
فصولا تتعلق بالنثر الفني الجاهلي وسماه (في الادب الجاهلي) *

واريد ان اقول - بعد هذا الاستطراد - ان السيد عطا بكري كان
موقفا حين وقف من قضية (الانتحال في الشعر الجاهلي) موقفا وسطا
يشبه ما يسميه علماء الكلام المسلمون (المنزلة بين المنزلتين) ...

ولكم أعجبت بالمدخل البارع الذي ولجه المؤلف الى دنيا المعري
ضارباً في دروبها القائمة مجملا مذهب الرجل في الحياة ، وجاليا فلسفة
معتقده المستندة على العقل ، الذي لا يسلم من التخبط في دياجير الشك ،
وحاكما في (القضية) القائمة بين من يضعونه في صف الفلاسفة وبين من
يضعونه في صف الشعراء • فاثبت انه فيلسوف تعرض للفلسفة باصطناع

الشعر - وهو فنّ - وسيلة للتعبير عنها ؛ وهذه طريقة تختلف عن طريقة من يتعرض للفلسفة بالتفكير المنطقي المتسلسل المنسق كما انه دافع عن شاعرية الرجل بأنه استطاع ، بايجاز يقرب من الاعجاز ، ان يعبر عن ادق مكنونات نفسه وعن اكثر الآراء اعتياصا وجموحا •

ولقد استوقفني اختيار الكاتب لشخصياته التي نصب كلا منها هدفا لغرض شعري معين ، فضحكت - كما ضحك المعري - من تزامم الاضداد في هذه الشخصيات المتناقضة في صفاتها ، المتباينة في زمانها ، المتباعدة في مكانها ••••• ابن عترة الفلحاء ، شاعر الفرسان وفارس الشعراء في الجاهلية ، من الخساء النواحة الشكلى في جاهليتها واسلامها !! وكيف اجتمع ابو العتاهية ، داعية الزهاد ، مع ابي نؤاس ، داعية الفساد !! واين نضع ابن ابي ربيعة امير المحبات وحبيب الاميرات ، ذلك الذي سلب المرأة عقلها ، من مجنون ليل الذي سلبته المرأة عقله !! وكيف اجتمع المتنبى ، الذي قتله الطموح الجامح ، بالطغرائي الذي قتله الطموح المغلف بالحذر الشديد وبالاحتراس المتناهي !! وهذا ابن هانيء الاندلسي ، وقد صهر نفسه وشعره في بوتقة العقيدة المذهبية ، ما الذي يجمعه - في كتاب - بابن الفارض ، وقد طلق المذاهب وانصرف الى الله وحده !! بل أين يكون موقع المعري ، الذي يأتّم بالعقل وحده ، بين هؤلاء جميعا !! ان الحياة - ايها القارئ الكريم - شاءت - في كثير من الاحيان - ان يكون المسجد بجانب الكنيسة وان تكون هذه بجانب الحانة ••••• والمائدة السخية تجمع صنوف الاطعمة على تباين مذاقها ، وتنوع نكهتها ، وتخالف طعمها ••••• والروضة الغناء تحفل بألوان الزهر ، وأشكال الورد ، وضروب الاريح ••••• والمؤلف اقتطف من كل روض زهرة ، وارشف من كل ينبوع قطرة ••••• وكذلك هذا الكتاب ••

توطئة

ان تراثنا القومي في عالم الادب زاخر بالامجاد ، حافل بالمفاخر ، له صفحة بيضاء خالدة في جبين الدهر خلود هذه الامة التي شرفها ما جاء في القرآن الكريم : « كتم خير امة اخرجت للناس » •

وكان للشعر القدح المعلى في اظهار عبقرية هذه الامة المجيدة خلال مختلف الاجيال والعصور • ولقد خلد التاريخ أسماء للشعراء العرب سبقي مسطرة في سجل الخلود ما دام الفرقدان •

ولقد تناول الشعر العربي مختلف الاغراض الشعرية كالفخر والحماسة والمدح والثناء والهجاء والنسيب وكذلك تطرق الى المسائل العقلية كالحكمة والفلسفة والامثال والزهد والتصوف وغير ذلك •

وان معظم الشعراء تطرقوا باشعارهم الى جميع تلك الاغراض أو معظمها • ولكن هناك بعض الشعراء الذين اقتصروا على أحد تلك الاغراض ، أو استهدفوا صفة خاصة غرضاً معيناً تميز به شعرهم •

فاذا ذكر عنتره فأول ما يتبادر الى ذهن السامع أشعاره الحماسية التي غنى بها في الشجاعة والبسالة ووصف بها مقارعة الفرسان في سوح الضرب والطعان •

• واذا ذكر عمر بن ابي ربيعة ذكر معه الغزل والنسيب •

• واذا ذكر أبو نؤاس ذكر معه المجون والخمريات •

وكذلك الحال مع ابي العتاهية الذي كان الزهد أهم غرض من أغراضه الشعرية ، والمتنبى الذي كان الفخر والكبرياء الصفة الملازمة لشعره ، والمعري الذي وجه شعره وجهة عقلية فلسفية •

هذا وما يجدر التنويه به ان الدراسات الادبية حسب المقاييس الحديثة لم تعد تكتفى بالمعاني اللغوية والصور البيانية والاسلوب ، بل تجاوزتها الى منهج عريض تضمن عاملين متفاعلين : البيئة والاديب • فالبيئة تشمل جميع المؤثرات الطبيعية والسياسية والاجتماعية والعلمية والفنية التي تحيط بالاديب فتؤثر في اتجاهه الفكري وفي أسلوبه في تبين ذلك الاتجاه • ومن بعد ذا يجب على الدارس ان يلم بسيرة الاديب وحياته وخلقته والعوامل المؤثرة في طريقته في الادب ومنهجه في التفكير وأسلوبه في النظم والنثر • ولقد اخترت في هذه الدراسات اثني عشر علماً من شعراء العربية الذين يشار اليهم بالبنان والذين يمثلون مختلف الاغراض الشعرية اصدق تمثيل وهم :

عترة العبسي - في الحماسة

الخنساء - في الرثاء

عمر بن ابي ربيعة - في الغزل

قيس بن الملوح - في العشق

أبو نؤاس - في الخمريات والمجون

أبو العتاهية - في الزهد

المعري - في الفلسفة

المتنبىء - في الفخر والكبرياء

ابن هانئ الاندلسي - في المدح

الطغرائي - في الحكم والامثال

ابن خفاجة - في الوصف

ابن الفارض - في التصوف

واني اذ اقدم هذا الكتاب الى القراء الكرام استهدف ان اعرض بحوثا ودراسات تحليلية عن كل شاعر من الشعراء آنفي الذكر ، وان اقدم نخبة مختارة من أشعار كل منهم في الغرض الذي تميز به شعره ، لكي تكون مجموعة تسهّل على الدارسين تتبع دراساتهم •

والله من وراء القصد •

عطاء بكري

المقدمة

العرب

منشؤهم وموطنهم ولغتهم

العرب قوم منحدرين من سلالة سامية ، استوطنوا شبه الجزيرة العربية منذ اقدم الازمان . اذ ترجع التقاليد والقصص المتواترة نشأة الامة العربية الى عهد سام بن نوح . اذ ان يعرب بن قحطان ، كما تقول تلك الروايات ، الذي هو الحفيد من الظهر الرابع لسام قد أسس مملكته في بلاد اليمن ، كما ان أخاه جرهم بن قحطان كان قد اسس مملكته في الحجاز . ولما ان جلب ابراهيم الخليل زوجته هاجر وابنها اسماعيل ليعدهما عن زوجته المفضلة سارة ، تركهما في بطاح مكة حيث تقيم قبيلة جرهم . فعطف هؤلاء على اسماعيل وامه واستضافوهما فترى الطفل بين ظهرانيهم . وعندما كبر وبلغ مبلغ الرجال تزوج ابنة احد امراء قبيلة جرهم . فكانت ذريته من عدنان قد سيطرت على القسم الشمالي من بلاد العرب ، فانتحرت القبائل العربية في تلك المنطقة منها . لهذا فقد سمي سكان اليمن وما جاورها القحطانيين أو العرب العاربة ، واطلق على اولئك الذين يزعم انهم انحدروا من صلب اسماعيل اسم العدنانيين أو العرب المستعربة .

ولقد قسمت القبائل العربية الى قحطانية وعدنانية . واليكم أسماء بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

القبائل القحطانية مقسمة الى فخذين : كهلان وحمير . ثم تفرع من كهلان فروع كثيرة أهمها : طي وجماد وهمدان ومنحج والازد ومن هؤلاء الاوس والخزرج .

- واما حمير فاشهر قبائلها : قضاة و كلب و تنوخ و جهينة و عدرة •
- كما يقسم النسابون العدنانيين الى فريقين أيضا : ربيعة و مضر •
- و اشهر قبائل ربيعة : أسد و وائل و من هؤلاء قبيلتا بكر و تغلب •

و اما مضر فاشهر قبائلها : (١) قيس عيلان و تنتسب اليها هوازن و سليم و غطفان و الى هذه الاخيرة تنتسب عبس و ذبيان (٢) تميم (٣) هذيل (٤) كنانة و منها قریش •

الا ان هذه الانساب غير مبنية على أساس رصين من البحث العلمي الدقيق ، و انها مثار جدل و نقد شديدين •

و لم يكن العرب و حدهم ينسبون الجماعات البشرية الى الانحدار من صلب أب واحد ، بل شاركهم في ذلك العبرانيون و غيرهم من الاقوام السامية ، و في التوراة شواهد كثيرة على ذلك •

فعلى افتراض صحة قصة اسماعيل و تزوجه بأميرة جرهمية ، فان بلاد العرب لم تكن خالية من السكان آنئذ لكي يزعم بان السكان جميعا أصبحوا من نسله • و ان نسل شخص واحد مهما بلغ عدد أولاده و ذريته من الكثرة لا بد ان يذوبوا في الخضم الواسع من المجتمعات المحيطة بهم • فنسب العرب جميعا - عدا القحطانيين - الى اسماعيل امر يثير الشك و الانكار •

ولكن ما لا ريب فيه ان القبائل العربية كانت موجودة منذ أقدم العصور و كانت تقطن بلاد العرب • و لقد وجد مخطوط في نبطيه يشير الى انجازات ما دعى ب « ملك العرب » • و لقد وجد في التوراة ما يشير الى العرب باسم قidar •

و ان هؤلاء العرب كانوا مشتركين بلغة واحدة أو بلهجات متقاربة • ولكن اللغة العربية لم تكن في أصلها كما كانت عليه لغة قریش عند ظهور

الرسالة المحمدية ، بل انها تطورت تطورا كبيرا بمرور الزمان • فاللغة الحميرية القديمة كانت تختلف اختلافا جوهريا عن لغة قريش ولو انها تتفق معها بالاصول • وانها قد انحدرت من أصل سامي اشتركت به معها جميع اللغات السامية الاخرى كالاكديّة والكلدانية والآرامية والفينيقية والكنعانية والعبرية والحبشية •

ولم يقتصر حال التطور والتغير على اللغة العربية ، بل شاركتها به لغات عديدة • فاللغة الفرنسية ما هي الا اللغة اللاتينية بعد ان تحورت وتطورت ، وكذلك الايطالية والاسبانية وغيرهما • واللغة الانكليزية هي لغة جرمانية الاصل ولكنها تطورت مبتعدة عن اصلها ومستمدة من مصادر أخرى كاللاتينية والفرنسية والاغريقية وغيرها • واللغة العبرية الحديثة تختلف اختلافا بينا عن اللغة العبرية القديمة • واللغة اليونانية المعاصرة بعيدة كل البعد عن لغة الاغريق الكلاسيكية • والامثلة على ذلك متعددة •

وان أهم العوامل التي قربت بين اللهجات العربية ووحدها قبل الاسلام هي المجامع الادبية التي كانت تعقد بصورة دورية كسوق عكاظ ومجنة وذو المجاز وغيرها حيث كان الاعراب يهرعون من كل حذب وصوب لتأدية فرائض الحج والتزود بالسلع وكان الشعراء يتبارون بنتاج قرائنهم من قصائد عصماء •

وأهم تلك الاسواق سوق عكاظ الذي كان يعقد في موقع متوسط بين الطائف ومكة في المدة المحصورة بين أول ذي القعدة والعشرين منه في كل عام • فكان يفد اليه سراة القوم وسادات العرب وامراء البيان لاداء فريضة الحج والمتاجرة والمباراة بالاشعار • وكان أكثر الناس يحضرون الاسواق المعقودة في نواحيهم ما عدا سوق عكاظ فانه كان السوق الذي تتوافد اليه سادات العرب وزعماء الشعر من جميع القبائل ومن مختلف الاقطار والاقاليم • خاصة لانه كان يقام في الاشهر الحرم حيث كانت

تؤدي مناسك الحج •

كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب لانها كانت محطاً للقوافل ومحجاً للقبائل على اختلاف نحلها •

ولكن لماذا سادت لغة مضر غيرَها من سائر اللغات ؟ السبب واضح وهو تغلب لغة القوم الذين يحملون الزعامة الفكرية والدينية والمالية • فمضر ، وقريش على وجه التخصيص ، كانت تحمل لواء الزعامة الفكرية ولها مكاتنها السامية ومنزلتها الرفيعة بين القبائل العربية ، فمنها سدة الكعبة وحفظة الآلهة التي كان العرب يدينون لها بالولاء ويمحضونها للعبادة ، ومنها التجار الذين كان العرب يقصدونهم من كل حدب وصوب للتسوق منهم والتزود مما لديهم من سلع كانت تنهال عليهم من الشمال ومن الجنوب •

فمكة كانت قبلة العرب يؤمنونها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليقضوا فيها مناسكهم ويشترروا منها حاجياتهم • وكانت مركزاً فكرياً وثقافياً يلتقى فيها رجال الفكر والادب من كل حدب وصوب ، فيتبارون بالشعر والادب في سوق عكاظها • وكان هناك محكمون ذوو منزلة رفيعة في عالم الادب اتفق الجميع على الاعتماد عليهم والثقة بهم فكانوا يحكمون لمن وضع بيانه وفصح لسانه •

وبالإضافة الى ذلك فان مناخ مكة الطيب نسيباً بمقارنته بقساوة وصرامة مناخ الصحارى في بقية أنحاء الجزيرة العربية ، وقربها من الطائف ، تلك الحديقة الغناء في وسط تلك البوادي القاحلة الجرداء التي لا يرى فيها غير كثبان الرمال التي لا أول لها ولا آخر قد جعلها مقصداً لاشراف العرب وساداتهم ورجال الفكر والبيان فيهم يؤمنونها للاستمتاع بطبيعتها البهية •

ومما جعل مكة مركز جذب للقبائل البادية ، بالإضافة الى اهميتها

الدينية ، حالتها الحضارية • اذ كانت هي والمدينة تعتبران المدينتين الوحيدتين اللتين لهما مميزات الحضارة والحياة المدنية خارج بلاد اليمن • وللمدن في كل مكان وزمان الزعامة الفكرية على ابناء الاقاليم • لذا كانت مكة للعرب عاصمتهم الفكرية والدينية ، يجلبونها ويقدمونها ويحذون حذوها •

ثم ان قريشا بسبب بسطة عيشهم وتوسط موقع بلدتهم استحوذوا على زمام التجارة • فكانت قوافلهم الموقرة تجوب الآفاق متوجهة في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى بلاد الشام • وبذا كانوا يستفيدون من جراء أسفارهم علما وفهما وخبرة بأمور الحياة • فكان لهم المجال فسيحاً لان يختلطوا بالناس من مختلف اللغات والعقائد والاجناس ، وان يختبروا مختلف اللهجات العربية فينتقوا أحسنها وأعذبها لفظا وبلغها أسلوبا وأوسعها مادة لا غناء لغتهم بها ، لذا فقد آثرها الشعراء وحذا حذوها البلغاء والادباء •

ذكر صاحب العقد الفريد ان معاوية قال يوماً لجلسائه : أي الناس افصح ؟ فاجابه رجل : انهم ، يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رتبة العراق وتياسروا عن كشكشة بكر وتيامنوا عن فثفشة تغلب • ليس منهم غمغمة قضاة ولا طمطممانية حمير • قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش •

حياتهم الاجتماعية والفكرية

العرب ينقسمون من حيث طريقة معيشتهم الى قسمين : (١) الحضرة (٢) البدو •

كان الاولون ، خاصة في اليمن والحجاز وأطراف العراق والشام ، يقطنون المدن ويمتهنون مهنا حضارية كالزراعة والتجارة وبعض الصناعات الحرفية • وكان هؤلاء قد استوطنوا الوديان الخصبة المنبثة هنا وهناك فأسسوا الممالك وشيدوا المدن والقلاع وحرثوا الاراضي وزرعوها حقولا

ومساتين • وكانوا يشتغلون بالتجارة فينقلون السلع التي تأتيهم من الهند
وأفريقيا كالتوابل والعطور والذهب وغيرها بالإضافة إلى منتجاتهم المحلية
بواسطة السفن والقوافل إلى ديار الشام ومنها إلى بقية أنحاء الإمبراطورية
الرومانية في أوربا وشمالي أفريقيا • وكذلك ينقلون منتجات هذه البلاد إلى
الهند وأواسط أفريقيا وشرقها •

أما البدو فقد كانوا مستوطنين الصحراء متخذين من الخيام مساكن ،
ومن رعى الأنعام حرفة ، ومن الغزو صناعة ومهنة • فكان هؤلاء يجوبون
الصحراء بحثاً عن بُرٍ يستقون من مائها أو عشب يرعون به ماشيتهم أو
واحة يستظلون بظلها الوارف الظليل من لهب أشعة الشمس المحرقة •
ولما كانت الآبار والواحات قليلة فطالما اندلعت نيران حروب طاحنة بين
القبائل أهرقت من جرائها الدماء وازهقت الأرواح • وكانت كل حرب
تجلب معها بذور الثارات مما جعل تاريخ البلاد العربية سلسلة لا انقطاع
لها من الحروب الدامية والغزوات •

إن نواة الحياة الاجتماعية عند البدو هي الأسرة • وكل مجموعة
أسر تقطن حياً واحداً تكون عشيرة على رأسها شيخ أو أمير • وكل مجموعة
عشائر تشكل قبيلة يرأسها رئيس أو شيخ المشايخ •

ولو أن العادة الجارية أن تكون المشيخة منحصرة في أسرة معينة ،
إلا أن نظام الحكم ليس وراثياً بل يتبع إرادة جمهور أفراد القبيلة ، فإن
راقهم شيخهم أبقوه ، والا عزلوه واستبدلوا به غيره • ويشترط في الشيخ
أن يكون ذا شخصية قوية متصفاً بالحكمة والرشاد والحكمة • فهو الذي
يحكم ويوجه ويعاقب المذنبين ويحل المشاكل بين أفراد القبيلة وبينهم وبين
القبائل الأخرى • وهو الذي يختار بين السلم والحرب • وإن جميع العشائر
التي ترتبط برباط النسب تضوي تحت لواء شيخ مشايخها وتأنم بأوامره
وتسير خلفه في حالات الطوارئ وعند نشوب الحروب والغزوات •

وإن أفراد القبيلة متكافلون متضامنون ، وهم يد واحدة على من

سواهم ، ينصرون أخاهم ظلماً أو مظلوما •

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
فاذا اقترب أحد أفراد القبيلة جناية تحملت عبأها قبيلته وإذا غنم غنيمة
فهي مشاعة بينهم •

وان حياة الصحراء القاسية وما يصحبها من كفاح عنيف في سبيل
العيش قد قوت مراس العرب وعززت شكيمتهم ، فكانوا يتدربون مند
الصغر على البسالة والفروسية والاقدام واقتحام معامع الحروب وتحمس
المشاق • كما ان تلك الحياة القاسية قد خلفت في نفوسهم بعض العادات
الكريمة والطباع الحميدة كالكرم والمروءة والشهامة والوفاء وحسن الضيافة
وايواء اللاجئين وحماية المستجير •

ومما يدل على حيوية هذه الامة ما حققته من انتصارات باهرة
وقتوحات عظيمة جعلت دولتها بعد الاسلام تفوق الامبراطورية الرومانية في
اوج عزها جسامه ، اذ امتدت حدودها من فرنسا غربا حتى الهند والصين
شرقا بل لقد كان للعرب أثر ثقافي في بلاد لم تخضع لحكمهم المباشر كالملايو
واندونيسيا والفلبين ، فصهروا العديد من الاقوام وجعلوها تتعرب عقيدة
ولغة بل واثولوجيا أيضا •

ولم تقتصر حيوية هذه الامة على الحروب والفتوحات بل تعدتها الى
الكثير من مميزات الحياة الحضارية والفكرية • فقد استوعبت وهضمت كل
مناحي الحياة الحضارية من ادارية وسياسية وثقافية • فحملت مشعل الادب
والعلم والفلسفة عاليا امدا طويلا فشعشع نوره على العالم العربي ، فهو بهذا
مدين لها الى حد كبير •

والعربي فوق هذا وذاك يمتلك حساً مرهفا وبصيرة ثاقبة وخيالاً
واسعاً ، تلك الصفات التي تفاعلت ولغته الغنية بالمعاني الرائعة والمفردات
الجممة والمترادفات الغزيرة والمنسجمة مع الاوزان الموسيقية مما ساعد على
وفرة الانتاج الادبي وخاصة في حقل الشعر •

الشعر العربي

خصائصه وأغراضه

ان الشعر من نتاج هذه الطبيعة الباهرة المحيطة بالانسان ، تلك الطبيعة الساحرة بديع خلقتها ، بصفاء سمائها وخضرة تربتها ، برقراق مائها وتعريد حمامها ، كل تلك العوامل تفاعلت في نفس الانسان مع عواطفه وانفعالاته ، مع ملكة الشعور بالحق والجمال عنده ، فاندفع الى التغني ببدايع الوجود فظهر الشعر والغناء مظهرين للشعور المنبعث عن الوجدان •

الشعر من الفنون الجميلة ، والكلام لا يكون شعرا الا اذا كان صادرا عن الطبع ومتصلا بهذا البهاء من جمال الفن وروعة التخيل • قال القاضي الجرجاني : « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والروية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه » •

الشعر يتفق مع النثر في كونه فنا كلاميا يصور العقل والعاطفة ويتفق عن الخيال ويعبر عما في الفكر والشعور • ولكن الشعر بعد ذلك يمتاز عن النثر بخصائص منها الصورة الوزنية والقافية ذات الروى ، ومنها اللغة الممتازة في دقتها ، في اختيار مفرداتها ، في حسن سبك عباراتها •

ثم يمتاز الشعر بان العاطفة عنصره الاساسي والجمال هدفه ومنطلقه • لذا يعد الشعر اصفى أنواع الادب العاطفي وأكثرها اتساقا مع الفنون الجميلة • وهذه العاطفة تحتاج الى الخيال ليصورها ويعرضها الى نفوس القراء •

فللشعر ، والحالة هذه ، عنصران : اولهما العاطفة المسندة بفكرة وثانيهما وسيلة ابراز تلك العاطفة والفكرة وهي خصب الخيال واللغة

الموزونة المقفاة • فتعريف الشعر اذن هو الكلام الموزون المقفى الذي يصور العاطفة ويعبر عن الصور المؤثرة البليغة • وقد عرفه ابن رشيق بقوله : « البنية من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية • فهذا هو حد الشعر لان من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة والبنية » • فلا يكفى النظم ان يكون شعرا مجرد انه موزون مقفى ، بل يجب ان تكون الفاظه منتقاة من حيث الرقة والجمال ومعناه ساميا صادرا عن الخيال والشعور • ولقد قيل : « ان الشعر تعبير فني حسي للعقل الانساني • وهنا تعطى للشاعر صفة الرسام أو المصور اللذين من واجبهما تجسيم المجردات وابراز المثل العليا ، وليس له عون على ذلك الا فطرته الطبيعية التي ابرز بها هذه الصورة المعنوية في أشكال مادية نكاد نلمسها وسكب على تلك الأشكال المادية من روحه لغة موسيقية تزيدها بهجة ورواء » كما جاء في دائرة المعارف البريطانية •

أنواع الشعر

الشعر على أنواع عديدة أهمها ما يلي :

- | | |
|----------|-------------------------------|
| Lyric | (١) الشعر الوجداني أو الغنائي |
| Epic | (٢) الشعر القصصي |
| Dramatic | (٣) الشعر التمثيلي |

فالشعر الغنائي هو استمداد من القلب وتعبير عن الشعور • ولما كان هذا النوع من الشعر تعبيرا مباشرا عن العواطف الشخصية يجد فيه الشاعر متفئسا عما يكنه قلبه من آلام وأشجان ، من حب وغرام ، من كره وبغضاء ، من فخر وكبرياء ، من آراء سامية عميقة شغلت باله • لهذا فهذا النوع من الشعر يعد اصفى صورة للشعر وابدعه خيالا وأقواء تأثيرا في النفوس • والشعر القصصي هو فن روائي موضوعي يتناول الشاعر فيه الأحداث

التاريخية والوقائع الحربية والامجاد القومية فينظمها ملاحم شعرية كالإلياذة لهوميروس والشاهنامه للفردوسي ومهابهارتا للهنود •

أما الشعر التمثيلي فهو نظم وقائع وحوادث يتصور فيه الشاعر الاشخاص الذين جرت على أيديهم تلك الوقائع والاحداث فينطقهم بما يناسب كلا منهم من أقوال وينسب اليهم ما يلائمهم من أفعال • ولعل هذا النوع من الشعر اسمى واشق الانواع جميعا لانه يجمع بين الفن القصصي والفن الغنائي ويؤلف بينهما •

ان مزاوله الشعر القصصي والتمثيلي تقتضي الروية وعمق التفكير ، والعرب أهل بديهة وارتجال تنقصهم ملكة التحليل والتعليل لذا لم ينم عندهم الشعر القصصي والشعر التمثيلي بالاضافة الى عامل آخر هو ضيق افق الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في الجزيرة العربية • لهذا فقد اقتصر الشعر العربي على الشعر الغنائي الوجداني الذي يصف المشاعر والاحساسات النفسية الذاتية • فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف والتغني بالامجاد والبطولات •

الشعر في بلاد العرب

كان الشعر أقدم الآثار الادبية عهدا وان ما وصلنا منه لا يزيد في القدم عن المائة والخمسين عاما قبل البعثة النبوية • ولم يصلنا منه الا الاشعار المختارة التي بقيت محفوظة في صدور الرواة أو مدونة لاهميتها البالغة • وقد اجمع الباحثون على ان الشعر العربي موغل في القدم وقد ضاع منه الكثير لان الاعتماد في حفظه كان على الرواية وهذه تتعرض الى النسيان والفقدان • قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » •

شاعرية العرب

العرب كغيرهم من الاقوام تأثروا بالطبيعة ، اذ لهم حس ولهم عاطفة ، وبين جنباتهم نفوس تحن الى الجمال • فكانت انعكاسات تلك الاناشيد الطبيعية المتمثلة في صداح الطيور ونوح الحمام وصفير الرياح وصفاء السماء على أوتار قلوبهم تظهر بمقطعات شعرية موزونة تجيشن عما في صدورهم من فرح أو ألم ، من حب أو بغض ، من طمع أو زهد ، من ايمان أو كفر •

والعرب كما قال فيهم أحمد حسن الزيات : « اشعر الساميين فطرة ، وابلغهم على الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم للقول ، وملاءمة بيتهم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسداجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم ، وكمال حريتهم ، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ، ويعوق الذهن عن التفكير • فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية ، يملأ الذهن والنفس روعة وخيالا وجلالا • وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة ، وطباع نائرة ، يستفزههم الرغب والرهب ، ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئا يجول في النفس أو يقع تحت الحس الا نظموه • فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائعهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، ومادة حوارهم وسمرهم ••• فلا بدع اذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت الواحد من الشعر يقيمهم ويقعدهم ؛ والامثلة في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ، ومنزلة الشاعر في قلوبهم » •

تطور الشعر العربي

قلنا ان الشعر العربي انحصر في دائرة الشعر الغنائي الذي يصور العواطف الشخصية ويعتمد على الخيال التفسيري ويعبر عما يحتلج في نفس الشاعر من انفعالات • وان الاغراض التي تطرق اليها الشعر العربي متعددة

حسب تلك العواطف والانفعالات النفسية التي تفاعلت في نفس الشاعر مع
المؤثرات الخارجية • وهذه الاغراض هي : الحماسة ، والمدح ، والرثاء ،
والنسيب ، والغزل ، والهجاء ، والفخر ، والمجون ، والزهد ، والوصف ،
والحكمة وغير ذلك •

ولقد تطور أسلوب الشعر العربي نتيجة تطور المجتمعات العربية في
مختلف العهود والعصور • والادب كما نعهده مرآة صافية تعكس المستوى
الفكري والعاطفي والذوقي للمجتمع الذي قيل فيه • فالشعر الجاهلي له
مميزاته الخاصة في أسلوبه ولفظه وتركيبه وتشبيهاته تختلف عن تلك
التي في الشعر العباسي أو الاندلسي • فلكل مجتمع من هذه المجتمعات بيئته
الخاصة التي تختلف عن تلك التي للمجتمعات الاخرى والتي لها مؤثراتها
الخاصة التي تؤثر في الانتاج الادبي منهجا وأسلوبا ومادة •

واليكم أمثلة في الوصف • قال امرؤ القيس واصفا الليل :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله علىٰ بانواع الهموم ليتلى
فقلت له لما تمطىٰ بصلبهِ واردف اعجازا وناء بكللك
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبحٍ وما الاصبح منك بأمنل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيدبل

وقال خنجد المري من العصر الاموي واصفا ليل (صول) :

في ليل (صول) تنهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفى ان ظفرت به
وان بدت غيرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تلممه
كأنه حية بالسوط مقتول

متى ارى الصبح قد لاحت مخايله
والليل قد مُزقت عنه السراويل

ليلٌ تحير ما ينحط في جهة
كأنه فوق متن الارض مشكول

نجومه ركـد ليست بزائلة
كانما هن في الجو القناديل

ما اقدر الله ان يدنى على شحط
من داره (الحزن) ممن داره (صول)

الله يطوي ساط الارض بينهما
حتى يرى الربع منه وهو مأهول

وقال ابن الرومي العباسي وهو يصف غروب الشمس :

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
على الافق الغربي ورساً مززعزا

وودعت الدنيا لتقضى نجبها
وشوّل باقي عمرها فتشعسعا

ولاحظت النوار وهي مريضة
وقد وضعت خدا الى الارض أضرعاً

كما لاحظت عواده عين مدنف
توجّع من اوصابه ما توجّعاً

وظلّت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجيّ لتدعماً

يرا عينها صورا اليها روايا
ويلحظن الحاظا من الشجو خُشعا

ويئن اغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلا صفا تودعا

وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضارا مشعشا

واذكي نسيم الروض ريعان ظله
وغنى معنى الطير فيه وسجعا

وقال ابن خفاجة الاندلسي في وصف ليل حالك الظلام يثير في
النفس الرهبة والخيالات المرعبة :

ومفازة لا نجم في ظلمائها
يسرى ولا فلك بها دوار

تتلهب الشعري بها وكأنها
في كف زنجي الدجي دينار

قد لقني فيها الظلام وطاف بي
ذئب يلثم مع الدجي زوار

طراق سادات الديار مساور
ختال ابناء السرى غدار

يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
في فروة قد مسها اقشعرار

فعضوت في ظلماء لم تقدح بها
الا لمقتته وبأسى نار

ورفقت في خلع علي من الدجى
عقدت لها من انجم ازوار
والليل يقصر خطوه ولربما
طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق
فيها ومن خط الهلال عذار

الشعر الجاهلي

ان خشونة العيش وطبيعة المناخ والبيئة وصرامة الحياة في مجاهل الصحارى القفراء والوادي المحملة الجرداء وسذاجة البداوة طبعت الشعر الجاهلي بخصائص يتميز بها ، منها الصدق في تصوير العواطف وقلة الزخرفة في الكلام وعدم التكلف في الاداء وعدم المبالغة في المدح والوصف والثناء • كما انه يمتاز بمتانة التركيب ووفرة الغريب من الالفاظ •

ونظرة عامة في الشعر الجاهلي تدلنا على ان معانيه غير غزيرة وموضوعاته غير متنوعة وسياق الكلام فيه مفكك مضطرب • تحشد غالباً فيه جميع الاغراض في القصيدة الواحدة ، اذ كان ينقصه الابداع ويعوزه الابتكار • فكانت معظم القصائد تبدأ بالنسيب والوقوف عند الديار المهجورة والطلول الموحشة والبكاء على الاحبة • ثم يأتي بعد ذلك وصف الناقة أو الفرس ، ثم يتبع كل ذلك الموضوع الذي انشئت القصيدة من أجله ، فاما مدح لامير ، أو تغن بامجاد القبيلة ، أو هجاء لعدو ، أو رثاء لراحل فقيد ، أو افتخار بموقعة انتصر فيها الشاعر ثم وصف لشجاعته واقدامه واستبساله بالقتال الخ •

الا ان هناك ، والحق يقال ، بعض الشعراء الجاهليين الذين حادوا عن هذه القاعدة فظهر في شعرهم الابتكار وظهرت لهم مناح خاصة وشخصية واضحة كزهير بن ابي سلمى وامية بن ابي الصلت والخساء •

هذا وان الشعر الجاهلي على نقصه في الخيال وفي التنويع والابتكار يعطينا مثلاً حسناً عن مهارة في التعبير وحسن في البيان •

وان حياة العرب الاجتماعية في العهد الجاهلي المبنية على اسس من النعرات القبلية ، وما رافقها من تمسك كل قبيلة بالعصية ، وما كان يجري

بين القبائل من حروب وغزوات مستمرة ، كل ذلك جعل من الشعراء أصحاب المقام السامي في قبائلهم • فهم الذين يحمون ذمار قبائلهم ويشيدون بمفاخرها وامجادها ، وهم الذين يثيرون نيران الحروب أو يطفئونها • فكانت القبائل لهذا تتباهى بشعرائها وتفاخر بهم وتمحضهم المكانة اللائقة بهم •

هذا وان الكثير مما روى من الشعر الجاهلي يشك بصحته ، لان الشعر لم يدون الا في أوائل القرن الثاني للهجرة مما جعل مجالا واسعا للتبديل والتحرير والاختلاق • وما روى عن عبث حماد الراوية وخلف الاحمر بالشعر مساغ لهذا الظن • لذا فان اختيار الصحيح منها يحتاج الى الكثير من العناية والتمحيص • ولعل القصائد التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة اشعار العرب اصحها رواية واصدقها تمثيلا للاسلوب والمنهاج الجاهليين • وان ابعد هذه القصائد مدى في الرواية واوفرها حظا من الحفظ والعناية المعلقة أو المذهبات السبع التي كانت معلقة على الكعبة وهي لامرئ القيس وزهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد ولييد بن ربيعة وغنتره بن شداد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة •

اما انكار الشعر الجاهلي برمته كما فعل الدكتور طه حسين فغير وارد • والبراهين التي اوردها لاثبات ذلك غير قوية • اذ انه استند على اختلاف اللهجات لدى القبائل العربية في العصر الجاهلي واتخذها حجة لانكار ذلك الشعر كله اذ كيف تنظم تلك القصائد بلغة قريش من شعراء ينتمون الى مختلف القبائل مع تباين لهجاتها ؟ فلا بد اذن يكون ذلك الشعر اسلاميا ومنحولا الى الجاهليين ، كما ادعى •

نعم كان هناك بعض الاختلاف في اللهجات ولكن ذلك لم يكن من السعة والشمول بحيث يبرر ذلك الانكار خاصة وان شقة ذلك الاختلاف أخذت تنقص وتضعف شيئا فشيئا قبيل الاسلام كما شرحناه في بحثنا عن

العرب ولغتهم *

وان بعض المفردات المختلفة الدالة على معنى واحد والمستعملة لدى القبائل المختلفة والتي كانت مصدر الاختلاف في اللهجات قد جمعت وجعلت مترادفات في اللغة العربية الموحدة مما زاد في غنى هذه اللغة ويمكن الشعراء من ان ينظموا القصائد الطويلة مع التزام الروى والقافية ، ويمكن الكتاب من اختيار الكلمات القوية للمواقف القوية والكلمات اللينة للمواقف اللينة .

لاشك هنالك العديد من القصائد المنحولة والمقتعلة المنسوبة الى العهد الجاهلي وما هي منه ، مما يقتضى التروي بجمع صحيحها ونبد تلك التي لم تستند روايتها على سند رصين . ولكن المبالغة بانكار كل ما هو جاهلي من شعر أو نثر أمر يستوجب التأمل والتروي . خاصة وان للشعر الجاهلي أسلوبه الخاص الذي يتميز به عن غيره . فمن المستبعد جدا ان يكون كله مصطنعا في العصور الاسلامية ومنسوبا الى شعراء الجاهلية . وان ما هو منحول حقا يختلف عادة باسلوبه وتركيبه عن الشعر الجاهلي الحقيقي .

هذا بالاضافة الى وجود تواتر كبير لدى ثقاة الرواة عن قسم كبير من الأشعار التي تسب الى العهد الجاهلي .

وعلى ذكر الطلوع والديار والتشبيب بالاحباب نورد الامثلة التالية .
بدأ بما جاء بمستهل قصيدة امرىء القيس المعلقة :

فما نبك من ذكرى حبيب ومنزل

سقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوصح فالقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقوفا بها صجبي على مطيهم
يقولون لا تهلك اسي وتجمل

وقال طرفة بن العبد في مطلع معلقته :

لخولة اطلال ببرقة نهد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقال عنترة العبسي في مطلع معلقته أيضا :

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد بوهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي

وعسى صباحا دار عبلة واسلمي

ولقد قال الجاهليون الشعر في مختلف أغراضه • قالوا في الحماسة
وفي الفخر وفي المدح وفي الرثاء وفي الهجاء وفي الحكم وفي الزهد ، وقالوا
في الغزل والنسيب •

واليكم قول عنترة في الحماسة :

والخيل تعلم والفوارس اتني

فرقت جمعهم بضربة فيصل

والخيل ساهمة ابوجوه كانما

تسقى فوارسها نقيع الحنظل

ولقد ابت على الطوى واطله

حتى انال به كريم المأكول

وقال امية بن ابي الصلت في الزهد :

حل عيش وان نضوت دهرنا
متهى امره الى ان يزولا

يتشي كنت قبل ما قد بدا لي
في رؤوس الجبال ارعى الوعولا

جعل الموت نصب عينك واحذر
غولة الدهر ، ان للدهر غولا

وقال حاتم الطائي في مدح الكرم :

اما وى ان المال غاد ورائح
ويبقى من امال الاحاديث والذكر

اما وى اما مانع فمبين
واما عطاء لا ينهنه الزجر

اما وى ان يصبح صداي بمصره
من الارض لا ماء لدي ولا خمر

تري ان ما انفتحت لم يك صربي
وان يدي مما بخلت به صفر

اما وى ان المال اما بذلته
فأولاه شكر وآخره ذكر

الشعر الاموي

قامت خلافة الامويين والامة العربية منقسمة على نفسها • فساسوا الناس بالعصية ، والهوهم بالتفريق • فاشتدت الخصومات السياسية التي أدت الى عاصفة من الهجاء بين جرير والفرزدق وغيرهما ، كما سلطوا حياة اللهو والترف على شعراء الحجاز لكي تلهيهم عن الانغمار في السياسة • فاعتكف هؤلاء على اللهو والغناء ، واتجهوا نحو الغزل ووصف الغواني والتشبيب بربات الجمال • وقد قصر مثل هؤلاء الشعراء شاعريتهم على الغزل وحده من بين فنون الشعر كعمر بن ابي ربيعة وقيس بن الملوح وجميل بثينة وكثير عزة وقيس بن ذريح وغيرهم • فاقصرت اشعارهم على الغزل ، والغزل وحده • وهم في هذا يختلفون عن شعراء الجاهلية الذين لم يتطرقوا الى الغزل الا في مطالع قصائدهم •

قال جميل بن معمر في معشوقته بثينة :

وما زلتُمُ يا بثن حتى لو انني
من الشوق استبكي الحمام بكى ليا

اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت انت دعائها

وما زادني النأى المفرق بعدكم
سُلوًا ولا طول التلاقي تقالبا

ولا زادني الواشون الا صباة
ولا كثرة الناهين الا تماديًا

تمد خفت أن القى المنيّة بفتة
وفي النفس حاجات اليك كماهيا

وقال قيس بن ذريح :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واش أو وعيد امير
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا ولم يذهبوها ما قد اجن ضميري

أما سوق المدح فقد كانت رائجة ، غذاها الخلفاء بعطاياهم الجسيمة
وسبائهم الكبيرة • وقد بلغ غرام الخلفاء بالمدح ان أرادوا جعله وقفا عليهم •
فلم يرضوا عن شاعر مدح غيرهم حتى من كان من أعوانهم أو من اقرب
المقربين اليهم •

قيل ان جريرا مدح الحجاج وملاً الارض بالثناء عليه • فأراد الحجاج
ان يحسن الى جرير فأرسله مع ابنه محمد الى عبدالملك • ولما وصلا
دمشق وصارا في مجلس الخليفة قدمه محمد بن الحجاج الى عبدالملك
قائلا : هذا يا أمير المؤمنين ابن الخطفي • فقال الخليفة : هو مادح الحجاج ؟
فأجاب جرير : بل ومادحك يا أمير المؤمنين فأنذن لي بالانشاد • قال
الخليفة : هات ما قلت في الحجاج ، فقال جرير :

صبرت النفس يا ابن أبي عقيل
محافظة فكيف ترى الثوابا

• لو لم يرض ربك لم ينزل
مع النصر الملائكة الغضابا

إذا سمر الخليفة نار حرب
رأى الحجاج اتقها شهابا

قال عبدالملك : صدقت ، ثم هات ••• فأنشده :

طربت لعهد هيجته المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل

الى ان قال :

ولولا أمير المؤمنين ، وانه
امال وعدل للبرية فاصل

وبسط يد الحجاج بالسيف لم يكن
سبيل جهاد واستيح الحلائل

اذا خاف درءاً من عدو رمى به
شديد القوى والنزع في القوس نابل

خليفة عدل ثبت الله ملكه
على راسيات لم تزلها الزلازل

فما فرغ جرير من تلاوة قصيدته حتى أخذ الشرر يتطاير من عيني
عبد الملك • فقال لجرير : اجلس • فجلس • وبادر الشعراء بالقاء قصائدهم
في مدح الخليفة ، واستمر ذلك ثمانية أيام ، وفي اليوم التاسع وزعت الجوائز
عليهم جميعا الا جرير ، فتوسل محمد بن الحجاج الى الخليفة ان يسمع
من جرير فاذن • وعندئذ اندفع جرير بانشاد قصيدته التي مطلعها :

اتضحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صجبك بالرواح

الى ان قال :

اغثني ، يا فداك ابي وأمي
بسبب منك ، انك ذو ارتياح

فانني قد رأيت علي حقا
زيارتي الخليفة وامتداحي

سأشكر ان رددت علي ريشي
واثبت القوادم في جناحي

الستم خير من ركب المطايا
واندى العالمين بطون راح

وقوم قد سموت لهم فدانوا
بدهم في مملمة رداح

ابحت حمى تهامة بعد نجد
وما شيء حميت بمسباح

لكم شم الجبال من الرواسي
واعظم سيل معتلج البطاح

فطرب الخليفة ، ثم امر له بمائة ناقة وثمانية من العيد .

واما الهجاء فقد اتجه ، في العهد الاموي ، وجهة تختلف عنها في
الشعر الجاهلي . اذ ان الشاعر في الجاهلية كان اذا هجا لم يفحش في
القول أو يذكر العورات ، وكانت معانيه بسيطة لا تتعدى التعبير بانعدام
الفضل أو خمول الذكر أو النكوص عن مواقف الشجاعة . ولما جاء العصر
الاموي استغل الحكام العصبيات القبلية والسياسية فالبوا الشعراء الهجائيين
على بعضهم ، فاعلنوها حربا ضروسا لا هوادة فيها فيما بينهم ، لم تعرف
الجاهلية لها مثيلا .

قال الطرماح يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو ان برغوئا على ظهر قملة يكر² على صفى تميم لولت

وقال الاخطل :

وكنت اذا لقيت عبيد تيم وتيما ، قلت : ايهما العبيد ؟
لئيم العالمين يسود تيما وسيدهم ، وان كرهوا ، مسود
أصبح الشعر ، في العهد الاموي ، من عدد الحرب للاحزاب يظهر
به المساوىء والمخازي ، ويؤلبون ويهددون • وكان معظم شعراء العصر
الى جانب بني امية ، منهم الاخطل وجريير والاعشى والنابعة الشيباني
وغيرهم • الا ان الكميت بن زيد وابا الاسود الدؤلي والنعمان بن بشير
كانوا من أنصار العلويين •

فقال عمران بن حطان في مدح بن ملجم الذي قتل أمير المؤمنين
عليا بن ابي طالب ، وكان هذا الشاعر مغاليا بالباطل ضد علي :

لله در المرادي الذي سفكت
كفاه مهجة شر الخلق اسانا
امسى عشية غشاه بضربته
مما جناه من الآثام عريانا
يا ضربة من كريم ما اراد بها
الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
اني لافكر فيه ثم احسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا

وقال الكميت بن زيد يعيب على بني امية جورهم ويدعو الله ان تدول
دولتهم ، وتزول أركان حكمهم ، ويعود السلطان الى بني هاشم :
فقل لبني امية حيث حلوا وان خفت المهند والتطيعا

اجاع الله من اشبعوه واشبع من بجوركم أجيعا
بمرضي السياسة هاشمي يكون حيا لامته ربيعا
وقال الاخطل يهجو الانصار :

واذا نسبت ابن الفريعة خلته
كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة
بالجزع بين صليصل وصرار
قوم اذا هدر العصير رأيتهم
حمرا عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من اهلها
وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها
واللؤم تحت عمائم الانصار

ولم يقتصر الهجاء على الاغراض السياسية ، بل تعداها الى العلاقات
الشخصية والقبلية بين الشعراء ، فأخذوا يتهاجون تهاجيا مرا لاذعا باقذع
الالفاظ وأفحش العبارات ، وصاروا يتهمون من بعضهم ويظهرون بعضهم
البعض بمظهر يدعو الى الهزء والسخرية •

قال الفرزدق :

لقد عشت لثام بني ققيم على انامل الصفن الحسود
وما نهضت ققيم للمعالي بزند في الفخار ولا عديد
وقال في كليب :
فيا عجبا حتى كليب تسبني كأن ابها نهشل ومجاشع

وقال جرير في هجو نمير :

فغض الطرف ، انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقال في الفرزدق ، وفي البيت ما فيه من سخرية لاذعة :

زعم الفرزدق ان سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

هذا وان الشعر ، في هذا العصر ، لم يخرج عن دائرة الشعر الجاهلي في طريقته ونسجه الا ان جمال الحضارة قد أضفى عليه حلاوة في اللفظ وطلاوة في الاسلوب وجزالة في التركيب وسلاسة في التعبير .

قالت ليلي الاخيلية ترثي توبة :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى

اذا لم تصبه في الحياة المعايير

وما احد حي وان عاش سالما

باخلد ممن غيبته المقابر

فلا الحي مما احدث الدهر معتب

ولا الميت ان لم يصبر الحي ناشر

وكل جديد أو شباب الى بلى

وكل امرئ يوما الى الموت صائر

فلا يبعدنك الله يا توب هالكا

اذا الحرب ان دارت عليك الدوائر

فأليت لا انفك ابكيك ما دعت

على فنن ورقاء أو طار طائر

وقال الفرزدق يصف ذئبا صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

واطلس عسال وما كان صاحباً
دعوت لناري موهنا فاتاني
فلما اتى قلت ادن دونك انني
وايالك في زادي لمشتركان
فبت أقدُّ الزاد بيني وبينه
على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكا
وقاء سيفي من يدي بمكان
تعشَّ فان عاهدتني لا تحونني
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وانت امرؤ يا ذئب والغدر كتما
اخين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلمس القرى
رماك بسهم او شبة سنان

الشعر العباسي

تميز الشعر العباسي بخصائص خاصة كانت نتيجة للتطور الذي طرأ على الحياة الفكرية والاجتماعية في هذا العصر الذي هو العصر الذهبي في التاريخ الاسلامي ، بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان حدا قصيا ونضج فيه المستوى العقلي وزهت الآداب وازدهرت العلوم والفنون • وكان الخلفاء والوزراء والامراء من أكبر المشجعين لتلك الحركة الفكرية العنيفة وخاصة في عهد الرشيد والمأمون •

ولقد بلغت رقعة الدولة العباسية حدا عظيما من الاتساع ، وأصبحت بغداد عاصمة لامبراطورية مترامية الاطراف ثابتة الاركان ، وكان يجبي اليها الخراج من أقصى الامصار وادناها ، فكانت تتدفق الثروات عليها وتتهال كالطر • وبالإضافة الى ذلك فقد كانت بغداد مركزا تجاريا عظيما ، لذا فقد اتسمت حياتها في ذلك العهد بالترف والرخاء ، فعمت الخيرات ، وعاش الخاصة من الناس في بجموحة من العيش الرغيد •

ولا بدع ان تتفقق قرائح الشعراء في بيئة مترفة مترففة مثل هذه ، اذ كانت الهبات والعطايا تنهال عليهم دون حساب ، وهم يمدحون الخلفاء والملوك والوزراء وينادمونهم فيدخلون الى قلوبهم المتعة والطرب في حفلات السمر •

ولقد ظهر من نتيجة حياة الترف والرفاهية في العصر العباسي مما لم يكن شبيه في العصور التي سبقته خصائص جديدة في الحياة الاجتماعية : منها (١) كثرة الجوارى والغلمان ورواج سوق الرقيق ، حتى لقد كانت تصرف الاموال الطائلة لتعليم اولئك الجوارى والغلمان وتثقيف عقولهم وتدريبهم على الموسيقى والغناء ومختلف الفنون ، (٢) مجالس الطرب

والشراب التي عمت وانتشرت ، وكان يؤمها المشعراء والأدباء والشباب ، فيقضون ليالي صاحبة عابثة بين الكاس والطاس وعلى أنغام الموسيقى وتغريد المغنيات • (٣) كثرة الحدائق والبساتين والمنزهات ، حيث الزهور اليناعة ، والخضرة المرعة ، والغصون المتشابكة فوق السواقي والنهيرات التي يجري فيها الماء رقراقا نмира صافيا • وهناك تجتمع الخمرة والخضرة والماء والوجوه الحسان • (٤) القصور المنيفة والقلاع الحصينة والبنائات الجميلة الخاصة بسكنى رؤساء القوم وحریمهم وجواریهم حيث الاحواض والنافورات وما يحيط بها من حدائق وجنيات ، كانت مصدر الهام لكثير من الشعراء الذين نظموا القصائد في وصفها والاشادة بمحاسنها وجمالها ، (٥) التألق في الفنون الحضمرية من ملابس ورياش ومفروشات ، والتفنن بالطعام ومختلف الحلويات ، وصنع الآلات الموسيقية ، وما الى ذلك من أسباب الحضارة مما كان يعكسه الشعر في ذلك العصر ، (٦) انتشار المدارس والعلوم ونشاط حركة التأليف والترجمة من اللغات اليونانية والفارسية والهندية ، خاصة في الطب والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات والجغرافيا وغيرها ، (٧) الامتراج الذي حدث بين القوميات المختلفة التي اهدت بهدى الاسلام واستطلت بظل الخلافة الاسلامية ، فقد انصهرت معظم تلك القوميات في بودقة الاسلام ، وكان من نتاج تلك التفاعلات الاساسية لعبقريات مختلف الامم والاقوام التي تألفت منها الدولة الاسلامية ان ظهرت حضارة جديدة ، وأسلوب أدبي جديد في الشعر والنثر •

وإذا اتسم الادب القديم بمتانة التعبير ، وصحة الاداء ، وقوة التركيب ، وقلة الزخرفة ، فان الادب العباسي له مزية المعنى ، وسعة الخيال ، واتساق الفكر • قال أبو الفتح عثمان بن جنى : « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ » •

ولما كان الشاعر يعكس في شعره ما يرى وما يحس فلا ريب ان

الشاعر الحضري قد تكدست في فكره مرثيات ومشاهدات وأحاسيس لم يعرفها البدوي •

وبالإضافة الى ذلك فانه كان للمدنية أثر كبير في رقة حاشية الكلام ، وجزالة اللفظ واناقة ، وعدوبة التعبير ورقته ، وحلاوة التركيب وسلاسته • فعنى الشعراء بالاكثار من التشبيه والاستعارة ، والتفنن في المعاني ، والتوفر على البديع اللفظي ، والتوسع في المصطلحات اللفظية •

وكان من اثر الحضارة الجديدة ان تغيرت أغراض الشعر ، ولكن لم تمح الاغراض القديمة عن آخرها ، بل استحدثت أغراض جديدة • اما الاغراض القديمة فقد حدث فيها ما جعلها ذات طابع غير طابعها في العصر الذي قبله • فدخل على الكثير من الاغراض القديمة كالمدح والهجاء والغزل بالمؤنث والوصف والفخر والسياسة والزهد صفة الغلو والمبالغة •

ومن الاغراض التي جدت واستحدثت في هذا العصر هي : (١) الفحش في الهجاء وقدف الاغراض والامعان في البذاءة • وكان ذلك من اثر الحياة الحضارية التي أدت الى كثرة الفجور وتعدد المثالب فكان ذلك مادة للهجاء •

(٢) وصف الخمر والمجون وهو نتاج الحياة المترفة المترفة التي سادت في العصر العباسي • وهذه الحياة المترفة قادت الى الاندفاع بحماس نحو اللهو والمجون والغناء وكرع جامات الخمرة مترعة • وقد كان بعض شعراء هذا العهد مولعين بالخمر الى حد العبادة ، فوصفوه وصف العاشق لمعشوقه ، ونزهوه تنزيه العابد لمعبوده • كما قال أبو نؤاس :

غرد الديك الصدوح فاسقني طاب الصبوح
واسقني حتى تراني حسنا عندي القبيح
قهوة تذكر نوحا حين شأد الفلك نوح

نحن نخفيها ويأبى طيب ريح فتفوح
فكان القوم نهبي بينهم مسك ذبيح

(٢) الغزل بالمذكر - وقد ظهر هذا النوع من الغزل منذ أوائل العهد العباسي ، وكان اول من اجترأ على القول فيه حماد عجرد ، ووالبة ابن الجباب ، وأبو نؤاس ، والحسين بن الضحاك . كان هذا الغزل وليد حياة العث والمجون التي انتشرت في هذا العهد وكثرة بيوت الشراب حيث كان السقاة من الغلمان المرذوخين الذين كانوا يتشبهون بالنساء في المظهر وفي اللباس والحركات ، فمجد الشعراء وهم في نشوة سكرهم جمال هؤلاء المرذوخين ، وشدوا بذكر محاسنهم ومفاتنهم وغلوا بذلك حتى انهم صاروا اذا وصفوا غاية جعلوا الصفات للمذكر ، وكان أبو نؤاس فارس الميدان في هذا المضمون من الشعر ، واليكم احدى مقطوعاته :

يا بدعة في مثال يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو مؤنث الخلوات
زها علي بصدغ مزرفن الحلقات
من فوق خد اسيل يضيء في الظلمات

(٤) الحكمة والزهد - وهذا الاتجاه ظهر كرد فعل لحياة العث والمجون وخلع العذار . وكان على رأس الشعراء الزهاد أبو العتاهية الذي حمل لواء الفضيلة ودعا اليها ، مرغبا في العمل الصالح ، ومذكرا بالموت ، ومرهبا مما بعده ، وحاضا على الزهد في الدنيا . ومن شعره في ذكر الموت :

خانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح
لدواعي الخير والشر دنو ونزوح

هل لملطوب بذنب ثوبه منه نصح
كيف اصلاح قلوب انما هن قروح

واسترسل في القصيدة حتى قال :

سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح
بين عيني كل حي علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والم موت يغدو ويروح

(٥) التفتن في الوصف - وهو ناتج عن سعة الخيال المنبثقة عن تعدد مظاهر المتع والجمال ، وكثرة الاشياء التي تستحق الوصف فتؤثر في الوجدان . فلقد وصف الشعراء الورود والحدائق والبساتين ، وصفوا الطيور المغردة والريم الشرود ، وصفوا الطبيعة المبهجة والحياة الرائقة ، وصفوا مجالس الشراب حيث القصف والجواري الحسان الفاتيات ، وصفوا القصور المنيفة والحدائق الغناء ، وصفوا النرجس والاقاح ، ولم يدعوا شاردة أو واردة الا وتغنوا بمفاتها ونظموا القصيد اشادة بمحاسنها .

قال أبو نؤاس واصفا مجلس شراب :-

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها اثر منهم جديد ودارس
مسابح من جر الزقاق على الثرى واضغات ريحان جنى ويابس

وقال أحمد بن يونس الكاتب يفضل الورد :-

يا من يشبه نرجسا بنواظر دعج تنبه ان فهمك راقد
ان القياس (لمن يصح قياسه) بين العيون وبينه متباعد
والورد اشبه بالخدود حكاية فعلام تجحد فضله يا جاحد

وقال البحرري يصف بركة المتوكل :-

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والأنسات اذا لاحت مغايتها

بحسبها انها من فضل رتبها
وقال منها :-
تعد واحدة والبحر ثانيها

كانما الغضة البيضاء سائلة
اذا علتها الصبا ابدت لها جبكا
من السبائك تجري في مجاريها
فحاجب الشمس احيانا يضحكها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
اذا النجوم تراءت في جوانبها
وريق الغيث احيانا يباكيها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها

الشعر الاندلسي

لقد وجد العرب في الاندلس ما لم يجدوه في أقطارهم الاخرى من نواحي الطبيعة المتعددة الصور ، والمناظر المتنوعة ، والاجواء المتغيرة ، فقد كانت غزارة الامطار ، ولطافة الجو واعتداله من الاسباب التي البست تلك بلاد حلة سندسية قشبية ، فانتشرت السهول المرعة الخضراء ، والجبال الشم المطرزة بأبهى ألوان الورود ، والوديان المعطرة بأجمل الازهار نراهية ، وجرت الانهار الرويه في كل مكان ، وجادت الارض المنتبة المعطاء عليهم بالغللات ووافر الخيرات ، حتى ظهرت على الاندلسيين معالم الغنى وفاحش الثراء ، فبنوا القصور المنيفة والدور العالية ، واعتنوا بتنظيم الحدائق ، واكثروا من الاحواض والحمامات ، وقد عرفوا بالنظافة حتى قيل انهم اشد الناس عناية بالنظافة في ما يلبسون وما يفرشون . وقد دخل الاندلس ابن حوقل النصيبي في المائة الرابعة للهجرة فقال فيها :- « تغب المياه الجارية ، والشجر ، والتمر ، والرخص ، والسعة في الاموال ، من الرقيق الفاخر ، والخصب الظاهر ، الى اسباب التملك الفاشية فيها ، ولما هي به من اسباب رغد العيش ، وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهينهم . وارباب صناعتهم ، لقله مؤوتتهم ، وصلاح معاشهم » .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله تعالى بلاد الاندلس من الربيع وغدق السقيا ، ولذاذة الاقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، بما حرمه الكثير مما سواها من البلدان » . وقال أحمد بن محمد الرازي : « بلد الاندلس هو عند الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معقول الهواء ، ربيعه وخريفه وشتاؤه ومصيفه على قدر من الاعتدال ، وسطة من الحال ، تتصل فواكهه اكثر

الازمنة ، وتدوم متلاحقة غير مفقودة » •

فلا غرو ان يشدو شعراؤها بمحاسنها ويصفوا مفاتها من ربي
مشرفة ، ووديان منبسطة ، وأنهار متدفقة ، وحقول سندسية ، وبساتين
نضرة ، كما قال أبو الفضل القيرواني في وادي عذراء :-

رياض تعشقها سندس توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا لها نظرة فنتت من نظر
وكل مكان بها جنة وكل طريق اليها سقر

وقال ابن سفر المريني :-

في أرض اندلس تلتدُ نعاء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا يقوم بحق الانس صهباء
واين يعدل عن ارض يحض بها على المدامة امواه وافياء
وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها وكل روض بها في الوشى صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطل انداء
وانما ارج الند استثير بها في ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما اصنفه وكيف يحوى الذي حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض حين بدت فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا ابحر خفقت وجدا بها اذ تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللانخصان اصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض فهي الرياض وكل الارض صحراء

وقال ابن خفاجة الاندلسي :-

يا اهل اندلس لله دركم
ماء وظل وانهار واشجار

ما جنة الخلد الا في دياركم' ولو تخيرت هذى كنت اختار

★ ★ ★

اضف الى ذلك ما اجتمع لدى اهل الاندلس من خفة الروح ،
والظرف ، وحب الفكاهة والتندر ، والاقبال على الموسيقى والغناء ،
والانغماس في اللهو والمرح ، والانغمار في كرع جامات الخمر وتعاطي
المسكرات ... كيف لا ، وان الكروم في بلادهم كثيرة ، ومزارعها منبثة
في كل مكان .

كل ذلك أدى الى صفاء أذهانهم ، وسمو وجدانهم ، وعذوبة بيانهم ؛
فانعكس باشعارهم التي تتسم بالعذوبة والصفاء وصدق الوجدان ، وبالمعاني
المبتكرة والتعابير الرشيقة والالفاظ الانيقة والذوق النقي السليم والخيال
الرائق الرفيع . وقد استمدوا من فكر الافرنج وأدبهم ما مزجوه بالفكر
العربي وأدبه ، فنشأ من انصهارهما أدب رائع بديع .

★ ★ ★

قال شعراء الاندلس في مختلف الاغراض التي قال فيها الشعراء
المشاركة ، فقالوا في المدح ، والرثاء ، والحماسة ، والهجاء ، وفي الغزل
والنسيب ، وفي الخمريات والمجون ، وفي الزهد والحكم ، وقالوا في الوصف
فابدعوا ايما ابداع .

وانهم اذا لم يتعدوا كثيرا عن المشاركة في أغراض الشعر ومعانيه ،
فانهم قد اخترعوا أوزانا مستحدثة للشعر أهمها ما يسمى بالموشحات ،
وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال ، فمزجوا بين أوزان
مختلفة وقواف متعددة في قصيدة واحدة . وان هذا النوع من الشعر يتسق
مع الالحان لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ .

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته ، قال : « اما اهل الاندلس فلما

كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناخيه وفنونه ، وبلغ التمييز فيه الغاية ،
استحدث المتأخرون منهم فنا منه سموه بالموشح ، ينظمونه اسماطا اسماطا ،
واغصانا اغصانا ، يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد
منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما
بعد ، الى آخر القطعة ، واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات »

وقد استظرف الناس ، الخاصة منهم والعامه ، هذا النوع من الشعر ،
وكلفوا به لسهولة تناوله ، وظرافة اسلوبه ، وحلاوة تعابيره .

ومن تلك الموشحات قول عبادة القزاز :-

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

ومنها موشحة لابن زمرك ، جاء في مقدمتها :-

في كؤوس الثغر من ذاك اللعس راحة الارواح
وتفشى الروض مسكى النفس عاطر الارواح
وكسا الارواح وشيا مذهبا يبهر الشمس
عسجد قد حل من فوق الربا يبهج النفسا
فاتخذ للهو فيه مركبا تلحق الانسا

★ ★ ★

ومنها موشحة ابن سهل التي جاء فيها :-

هل درى طبي الحمى ان قد حمى قلب صب حله من مكس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا اطلعت يوم النوى غررا تسلك في نهج الغرر

ما لقلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن عيني النظر
 اجتني اللذات مكلوم الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكر
 ولقد عارضها لسان الدين بن الخطيب بموشحته التي جاء في مطلعها :-
 جادك الغيث اذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
 لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس
 اذ يقود الدهر اشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم
 زمرا بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم
 والحيا قد جلل الروض سنى فتغور الزهر منه تبسم

الكهانة في شعر عنيزة العباسي

ان للمناخ والبيئة الطبيعية اثرا كبيرا في تكوين اخلاق الناس وطباعهم ،
وفي تنظيم حياتهم الاجتماعية وأساليبهم المعاشية •

وبلاد العرب في العهد الجاهلي لم تكن تصلح للزراعة ، الا في الزاوية
الجنوبية الغربية منها ، ولم تلائم الحياة الحضرية • فهي قاحلة قفراء ، ومن
الجفاف بحيث قلما يوجد فيها الغيث ، فأرضها اما جبال صخرية جرداء أو تلال
رملية موحشة ، تتخللها بعض الآبار والواحات المنبثة هنا وهناك • لذا كان
سكانها على حالة من البداوة ، يعيشون تحت الخيام ، ولا مهنة لهم سوى
رعي الابل والانعام ، يتغذون بلبنها ولحومها ، ويكتسبون بصوفها ووبرها •
وكانوا ينتقلون من محل الى آخر وراء العشب والكلأ ، فالفوا حياة الطعن
والتجوال متبعين مواقع القطر تحت أشعة الشمس المحرقة • وهذا ما جعلهم
يتصفون بمتانة الخلق والقابلية على تحمل المشاق •

واذا حبست السماء جودها عنهم ، وامحلت ارضهم ، انطلق بعضهم
على بعض بالاغارة والغزو ، فتسفك الدماء ، وتؤخذ السبايا والاسلاب •
وقد قيل ان « يد كل بدوي موجهة ضد كل من الآخرين ، ويد كل من
هؤلاء موجهة ضده » • وكان من اثر ذلك ان فسدت القلوب واستمرت
الحروب وانعدم الامن ورسخت فيهم روح الانتقام والاخذ بالثأر •

وكان نظامهم الاجتماعي مؤسسا على القبيلة • فكل خيمة تمثل اسرة ،
ومجموع الاسر في مضرب للخيام يمثل عشيرة أو فخذاً ، وعدة عشائر أو

انخاذ تعتبر نفسها منحدره من أصل واحد وذات دم واحد تشكل قبيلة •
وكل افراد القبيلة يخضعون الى سلطة رئيس هو شيخ القبيلة وزعيمها •
ولست للبدوي ملكية خاصة سوى خيمته وثيابه والادوات اللازمة
لمعيشته وافراد أسرته • وما عدا ذلك كالارض والماء والزرع وما شابه ذلك
كلها تحت الملكية العامة للقبيلة •

وطالما أدت صعوبة الحياة والمنافسة على بئر أو واحة أو قطعة أرض
مغشبة الى حدوث صدام وصراع دمويين بين تلك القبائل • وان قوانين
الصحراء القاسية الصارمة اقتضت ان يكون الاعراب دائما على غاية الاهبة
والحذر والاستعداد للدفاع عن انفسهم وممتلكاتهم • لذا فقد اتصفوا
بالشجاعة ، وحذقوا صناعة الحرب ، ومهروا في استعمال الصارم البتار
والرمح السمهري • فبرز في تاريخ العرب القديم الكثيرون ممن خلد
التاريخ ذكرهم في البأس والشجاعة وحمى الذمار ، ومنهم شاعرنا عنترة
العبيسي •

وبالاضافة الى ما تقدم لقد اقتضت ضرورات الحياة القاسية في الصحراء
تقوية العصية القبلية • وكان شعار كل واحد من الاعراب : « انصر احاك
ظالما أو مظلوما » ، اذ كان أفراد القبيلة الواحدة متكافلين متضامين ، والقبيلة
مسؤولة تجاه القبائل الاخرى عن أي جرم يقترفه أحد أفرادها ضد أي
فرد من أفراد تلك القبائل • وكان الثأر القانون الرئيسي الذي ينظم علاقات
المجتمعات البدوية ، فلا يغسل الدم المسفوك الا الدم المسفوك ، وكل دم
يسفك يؤدي الى المزيد من الرغبة بالثأر • وهكذا فان تاريخ العرب في
الجاهلية سلسلة متصلة الحلقات من الحروب والغزوات التي دام بعضها
مددا طويلة كحرب البسوس بين قبيلتي تغلب وبكر التي استمرت أربعين
عاما وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان التي بلا فيها عنترة
العبيسي أحسن بلاء •

وكانت كل قبيلة تفأخر القبائل الأخرى بأبطالها وفوارسها ، وكان كل شاعر ينظم قلائد من القصيد التي تشيد بمفاخر قبيلته والاطناب بأصحاب الشجاعة والفروسية من أبنائها ليقوى مركزها بين بقية القبائل • ومثل هذا الشاعر كان مدعاة فخر تلك القبيلة واعتزازها •

نعم كانت الفروسية وقوة المراس صفة من الصفات الأصيلة عند العرب التي شدا بذكرها الشعراء ومجدوا ذكرها بأشعارهم الخالدة خلود الفرقدين • وفي غمرة اصطلاء العرب نيران الحروب ، وغشيانهم معامع الوغى كان يتفجر من نفوسهم شعر الحماسة بليغا هدارا ، وتتجاوب مع اصداؤه الحان الفخر وملاحم النصر •

قيلت أشعار الحماسة في وصف البطولات ، وتصوير الحروب الطاخنة حينما تشتبك فيها شفار السيوف واسنة الرماح ، وامتداح بسالة الشجعان وذم خور الجبان ؛ كل ذلك استنفرازا للحمية ، واثارة الحماس للاستبسال بالقتال •

وكان عنتر بن شداد العبسي فارس هذا الميدان وزعيمه الذي لا يقعق له بالشنان • انه جمع بين البطولة والفروسية وبين الشعاعرية وسعة الخيال • فكان عنتره مثلا صادقا من أمثلة الفتوة وعلما شامخا من أعلام البطولة والقوة بالاضافة الى كونه شاعرا فحلا موهوبا امتاز شعره بجزالة اللفظ ومثانة الاسلوب وسناء التركيب •

كان قرما عارما يقتحم سوح الوغى فيدير رحاها ، ويشن الهجمات والغارات على أعداء قومه فيسيل الدماء أنهارا ويطيح رؤوس الأبطال وهو مرتخص في سبيل مجده ومجد قومه كل غال ونفيس • انه حمى ذمار قبيلته وسان حوزة ديارها ، فكان لاسمه دوي اصاخ له سمع الزمان •

وكفاه فخرا وشرفا ان الرسول محمدا كان بوده ان يراه لو كان

خيا • فقد روى عمر بن شبة ، قال : حدثنا ابن عائشة ، قال : انشد النبي صلى الله عليه وسلم قول عنتره :

ولقد آيت على الطوى واظله حتى انال به كريم المأكل

ثم قال : « ما وصف لي أعرابي قط فاحببت ان أراه الا عنترة » •

ومما قيل عن مبلغ حزمه وعزمه واقدامه أن قال له قائل : « انت اشجع الناس واشدهم ؟ » فاجابه : « لا » • قال السائل : « فيماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزما ، واحجم اذا رأيت الاحجام حزما ، ولا ادخل موضعا لا أرى منه مخرجا ، وكنت انازل الضعيف الجبان فاضربه الضربة القاضية يطير لها قلب الشجاع ، فأتى عليه فأقتله » •

ولد شاعرنا في الربع الاول من القرن السادس الميلادي من أب كان من سادات قومه ومن أم سوداء كانت امة حبشية • فكان عنترة هجينا لم يستلحقه أبوه به أو يعترف ببنته ، على عادة العرب الذين لم يكونوا يعترفون بابن الامة ما لم يظهر من البطولة والفروسية والمواهب ما يعزز مركزه بين أفراد اسرته وقبيلته • فذاق عنترة مرارة الحرمان ومهانة الدار ، طريدا بين العييد والرعاة •

وكانت سمية زوجة ابيه تدس له عند ابيه وتحوك له من المكائد ما يجعله عرضة للعقاب الصارم والعذاب المؤلم • ولقد قال بذلك شعرا يصور فيه مأساته في صباه :

امن سمية دمع العين مذروف لو ان ذا منك قبل اليوم معروف
تجللتني اذ أهوى العصا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف
العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

تسى بلائي اذا ما غارة لحفت تخر منها الطوالات السرايف (١)
 يخرجن منها وقد بلت رحائلها (٢) بلماء يركضها الشم الغطاريف (٣)
 قدأطعن الطعنة النجلاء عن عرض تصفر كف اخيها وهو منزوف (٤)

ولكنه لم يمر طويل زمن حتى وجد أبوه نفسه مضطرا الى الاعتراف
 بعنترة ، والى الفخر بتصحيح نسبه اليه . وذلك ان قبيلة طيء اغارت على
 بني عبس ترد ثارا لها عندها ، وكان عنترة مع قومه في حومة النزال ، الا
 انه كان متقاعسا عن الاشتراك الفعلي في المعركة . فاشتد الخطب على عبس
 حتى كادت تسلب أموالهم وخيراتهم وتدور عليهم الدوائر . فصاح بعنترة
 أبوه : « كُرِّ يا عنتره » . فقال عنترة : « العبد لا يحسن الكر ، انما يحسن
 الحلاب والصر » .

فقال له أبوه : « كر وانت حر » . فهجم عنترة على الاعداء وابلى
 في ميدان الوغى خير بلاء ، فما زال في موقف الطعان والنزال يكر ويفر
 على الاشواس الابطال حتى شئت شملهم وانقذ قومه من عار الهزيمة وذل
 الانكسار . فاستلحقه أبوه به ، واعترف بنوته ، واحتفلت القبيلة به مكرمة
 فيه فارسها الفذ وبطلها المغوار وحامي عرينها والذائد عن حياضها .

كان عنترة ، بالاضافة الى شجاعته وفروسيته ، ايبا لا يقبل الضيم ،
 وفيها جوادا ذا مروءة ونجدة . فكان عنترة اذا استبى في غزواته احدى
 الحرائر دفع اليها مهرها وتزوجها على غير عادة العرب الذين يعتبرون
 السبية من الاماء . كما قال :

-
- (١) السرايف جمع سرعوف : كل خفيف طويل يريد بها الخيل .
 (٢) الرحائل جمل رحاله : وهي السرج .
 (٣) الغطاريف جمع غطريف : وهو الشاب وهو أيضا السرى
 الشريف .
 (٤) المنزوف : الذي نزلت دماؤه .

ما استمت انثى نفسها في موطن حتى اوقى مهرها مولاها
وكان حافظا للحرمان وراعيا للجوار وراثيا بنفسه عن مواطن
الشبهات فقال :

اغشى فتاة الحي عند حليلها واذا غزا في الجيش لا اغشاها
واغض طرفي ان بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها
وكان اذا مست كبرياؤه ، فخر بشجاعته وحسن بلائه وطيب
شمائله ، كما قال :

اني امرؤ من خير عبس منصبا شطري واحمي سائري بالمنصل
واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت الفيت خيرا من معم ومخول

فهو يفخر بطيب ارومته من ابيه ، واما من جهة امه فله السيف
البتار الذي يحمى به نفسه من تلك الهنة ، وهو في المعامع عندما يثور النقع
وينعقد الغبار تراه باقدامه وبسالته خيرا من ذوي الاعمام والاخوال •

وكان البعض يعيبه بالسواد • فقال مدافعا عن لونه وواصفا اياه بأحسن
الاصناف ، ومشيدا بما هو عليه من سجايا نبيلة وخلائق سامية تقوض
ما يلصقونه به من هنات ومعائب يتوهمونها • قال :-

وان أكُ اسودا فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني كبعد الارض عن جو السماء
وقال :

تعيّرني العدا بسواد جلدي وبيض خصائلي تمحو السواد
سلي يا عبل قومك عن فعالتي ومن حضر الواقعة والظرادا

وإذا كان أولئك البعض يعيونه بسواد جلده بقصد الاثارة والأيذاء
نهل نسوا سود فعالمهم وخبث طواياهم ، كما قال :
يعيون لوني بالسواد وانما فعالمو بالخبث اسود من جلدي
وقال :

لئن يعيوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال اذا ما فاتني النسب
ولقد افرط في دفاعه عن السواد حينما وصف امه مفاخرا بسوادها
واجدا في صفاتها ميزات تستدعي الاطراء والمديح لا عيوباً تستوجب القدح
والاستنكار . قال :

وانا ابن سوداء الجين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعر منها مثل حب الفلفل
والشعر من تحت اللثام كأنه شرق تلاًلاً في الظلام المسدل
كما انه افتخر باخواله السود قائلاً :

منهم ابي حقا فهم لي والد والام من حام فهم اخوالي
وانه يفاخر اولئك الذين عابوه ولكنهم قصروا عن همته ، وفتروا عن
مجاراته في سجاياه وفضائل نفسه وفضاحة شعره . اذ انه سيخرسهم
بفضاحته ويبيكم بلاغة الفصحاء . كما قال :

ما ساءني لوني واسم زبيبة اذ قصرت عن همتي أعدائي
فلئن بقيت لاصنعن عجائباً ولابكمن بلاغة الفصحاء
وقد جاء في شعر عنتره ما يعكس صفاته الطيبة وخصاله الحميدة وعفته
وانعدام الطمع في المغانم عنده ، كما قال :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
ينبئك من شهد الواقعة انني اغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولقد كان جبه العنيف لابنة عمه عبلة مصدر الهام وينبوع محبة •
فقد كانت صورتها مرتسمة في مخيلته وهو ينظم الشعر فيدع ايما ابداع ،
ومرتسمة في مخيلته وهو يكر على الفرسان فيزداد جرأة واقداما •
كما قال :

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

فما اشد هذه العاطفة النبيلة والحب الصافي السليم الذي جعله وهو
يقارع الابطال في ساحة الوغى يود تقبيل سيوف أعدائه التي تقطر من
دمه لانه تخيلها كبارق ثغر عبلة حبيته المفضلة •

وكانت قصة جبه العنيف وشاعريته المبدعة ورسالته في الحروب قد
اثارت عواطف الجماهير فكانت معينا لا ينضب للرواة والقصاصين لم
يضاهها سوى قصة قيس بن الملوّح مع ليلاه العامرية •

ولقد كانت هذه الاثارة لعواطف الجماهير والرواة والشعراء قد
تسببت في ما اصاب شعر عنترة من تصحيف وتحريف وزيادة كبيرة حتى
أصبح من الصعوبة بمكان استخلاص الصحيح من المنحول • ولكن هنالك
مصادر لشعره تعتبر معتمدة لا يتطرق اليها الشك وهي كتاب شعراء
النصرانية وروايات الاصمعي والبطليوسي وابي عمرو بن العلاء والمفضل
الضبي وابي سعيد السكري وغيرها •

ويعتبر عنترة من شعراء المعلقات ، وله ديوان شعر كبير يحتوي على
اشعاره التي دخل اليها الكثير من القصائد المنحولة والمنسوبة •

ولقد اتسم شعره بالرقة والوضوح مع بلاغة التعبير ومثانة الأسلوب
خلافاً للمسمة التي يتصف بها الشعر الجاهلي من ضخامة اللفاظ وخشونة
المعاني ووعورة الوصف والبكاء على الاطلال ووصف النوق والجمال .

أما أغراضه الشعرية فلا تتعدى النسيب والفخر والحماسة . وكان
هذا الغرض الأخير أهم الأغراض التي نظم فيها وأجاد . جاء في العمدة
لابن رشيق ، حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة ، قال : « كفاك من
الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنايف إذا رهب ، والاعشى إذا
طرب ، وعنترة إذا كلب » . وشعر عنترة ملئ بذكر الحرب حتى قال
فيه الأصمعي : « ذهب أمية بن أبي الصلت في شعره بعامة ذكر الآخرة ،
وعنترة بعامة ذكر الحرب » .

وأهم قصائده طويلته المسماة بالملذبة ، وهي معلقته التي جاء في
مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم^(٥) أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا ، دار عبلة ، واسلمي
وما زال عنترة يخاطب عبلة ويباعثها ويصف شعوره بشأن رحيلها
وتركها الدار تعي من كانت تملؤه زهوا ونورا :

دار لأنسة غضيض طرفها طوع العناق لذيدة المتبسم
فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدَنَ لاقضى حاجة المتلوم
وتحل عبلة بالجواء واهلنا بالحرزِ فالصمان فالمتلثم^(٦)

ثم قال في الفخر :-

(٥) بمعنى هل ابقى الشعراء معنى الا وقد سبقوا اليه .

(٦) الحزن والصمان والمتلثم : أسماء أمكنة .

اثني على بما علمت فاني سهل مخالفتي اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل مر مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات اسرة قرنت بأزهر^(٧) في الشمال مقدم^(٨)

ثم انتقل الى وصف مكارمه وطيب شمائله وانه عندما يشرب يستهلك
ماله ولكن عرضه مصون غير مكلوم • قال :

فاذا شربت فاني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندي وكما علمت شمائلي وتكرمي

ثم يصف بأسه وبلاءه وهو يتصيد الفرسان ، قال :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوّم
برحبية الفرغين^(٩) يهدى جرسها^(١٠) بالليل معتس^(١١) الذئاب الضرم^(١٢)
فشككت بالرمح الاصم ثيابه ليس الكريم على القنا محرم
فتركته ، جزر السباع ينشئه ما بين قلّة رأسه والمعصم

ثم يصف عترة حالة مبارزه الذي فغر فاه لغير تبسم بل دهشة
وذعرا :

لما رأني قد نزلت اريده ابدى نواجذه لغير تبسم
فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديدة مخذم

(٧) الازهر : الابريق •

(٨) مقدم : مسدود فمه •

(٩) الفرغ : الفتحة التي يخرج منها الدم •

(١٠) الجرس : الصوت •

(١١) معتس : قاصد القنص •

(١٢) الضرم : الجياع •

عهدي به مد النهار كأنما
بطل كأن ثيابه في سرحة
خُضِبَ البنان ورأسه بالعظم
يحدى نعال السبت^(١٣) ليس بتوأم

ويصف نفسه انه دائما قلب الهجوم وطليلة الفرسان :-

اذ يتقون بي الاسنة لم أحم^(١٤)
ولقد هممت بغارة في ليلة
لما سمعت نداء مُرَّةً قد علا
ومعلم يسعون تحت لوائهم
أيقنت ان سيكون عند لقائهم
لما رأيت القوم اقبل جمعهم
عنها ولكني تضايق مقدمي^(١٥)
سوداء حالكة كلون الادلم^(١٦)
وابنى ربيعة في الغبار الاقتم
والموت تحت لواء آل محلم
ضرب يطير عن الفراخ الجثم
يتدامرون^(١٧) كررت غير مذمم

ثم يصف نفسه وهو في غمرة النضال انه قطب الرحى والفارس
المغوار الذي توجه اليه النداءات لانقاذ الموقف :

يدعون عترة والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الادهم
ثم اخذ يصف جواده وما كان يلاقيه من هول القتال وتعرضه لطنع
الرماح وشجج السيوف ، فائنخ بالجراح حتى لكأنه اغتسل بالدماء
المهدورة منه :-

ما زلت ارميهم بغرة وجهه
فازور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولبانه حتى تسربل بالدم
وشكا الي بعبرة وتحمحم
ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي

(١٣) نعال السبت : المدبوغة بالقرظ .

(١٤) لم احم : لم اجبن .

(١٥) تضايق مقدمي : تضايق طريقي .

(١٦) الادلم : شديد السواد .

(١٧) يتدامرون : يحث البعض البعض الآخر .

والخيل تقتحم الغبار عوابسا من بين شيطمة واجرد شيطم^(١٨)
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم
ذُل ركابي حيث شئت مشايحي قلبي واحفزه بامر مبرم

وهو يخشى الموت لسبب واحد وهو خوفه من ان يوافيه قبل ان
يثأر من اولئك الذين يناصبونه العداة وينالونه بالسنة وقاح وخاصة ابني
ضمضم المريان :

ولقد خشيت بان اموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذرين اذا لقيتهما دمي
ان يفعلا فلقد تركت اباهما جزر^(١٩) السباع وكل نسر قشعم^(٢٠)

ولعنترة قصائد في الحماسة سارت بذكرها الركبان ، منها قصيدته
الحائية التي قالها في اغارته على بني ضبة وتميم :

طربت وهاجتك الظباء السوارح
غداة غدت منها سنيح وبارح^(٢١)

تغالت بي الاشواق حتى كأنما
بزندين في جوفي من الوجد قادح
وقد كنت تخفي حب سمراء حقة
فج لان منها بالذي أنت بائح
لعمري لقد اعذرت لو تعذريني

وخشنت صدرا جيبه لك ناصح^(٢٢)

(١٨) الشيطم : الطويل الجسم • الاجرد : قصير الشعر •

(١٩) جزر : جمع جزرة أي الفريسة •

(٢٠) القشعم : النسر الكبير •

(٢١) السنيح : القادم • البارح : الذاهب •

(٢٢) الجيب : القلب •

اعاذل كم من يوم حرب شهدته
 له منظر بادي النواجذ كالح
 فلم ار حياً صابروا مثل صبرنا
 ولا كافحوا مثل الذين تكافح
 اذا شئت لاقاني كمي (٢٣) مدجج
 على اعوجي (٢٤) بالطعان مسامح
 نزاحف زحفا او نلاقي كتيبة
 تطاعنا او يذعر السرح صائح
 فلما التقينا بالجفار تصصعوا (٢٥)
 وردت على اعقابهن المسالح (٢٦)
 وسارت رجال نحو اخرى عليهم الـ
 حديد كما تمشي الجمال الدوالج (٢٧)
 اذا ما مشوا في السابغات حسبهم
 سيولا وقد جاشت (٢٨) بهن الاباطح
 فاشرعت رايات وتحت ظلالها
 من القوم ابناء الحروب الججاجج (٢٩)

(٢٣) الكمي : المدجج بالسلاح .

(٢٤) الاعوجي : الحصان الاصيل .

(٢٥) تصصع : ذل .

(٢٦) المسالح جمع مسلحة : وهم قوم ذوو سلاح .

(٢٧) الدوالج : المثقلة بالحمل .

(٢٨) جاشت : تدفقت .

(٢٩) الججاجج : السادة السمحاء الكرماء .

ودرنا كما دارت على قطبها الرحي
 ودارت على هام الرجال الصفائح (٣٠)
 بهاجرة (٣١) حتى تغيب نورها
 واقبل ليل يقبض الطرف سائح
 تداعى بنو عبس بكل مهند
 حسام يزيل الهام والصف جانح (٣٢)
 وكل رديني (٣٣) كأن سنانه
 شهاب بدا في ظلمة الليل واضح
 فخلوا لنا عوذ النساء (٣٤) وجبوا (٣٥)
 عبايد (٣٦) منهم مستقيم وجامح
 وكل كعاب (٣٧) خدلة الساق (٣٨) فخمة
 لها منصب في آل ضبة طامح
 تركنا ضرارا بين عان مكبل
 وبين قتيل غاب عنه النوائح

-
- (٣٠) الصفائح : السيوف
 - (٣١) الهاجرة : نصف النهار ظهرا
 - (٣٢) جانح : متشابك
 - (٣٣) الرديني : الرمح
 - (٣٤) عوذ النساء : المرضعات
 - (٣٥) جبب : فر وهرب
 - (٣٦) عبايد : متفرقين شذر منذر
 - (٣٧) الكعاب : الناهد الثديين
 - (٣٨) الخدلة : الممتلئة الساقين

وعمرا وجبانا تركنا بقفرة
 تعودهما فيها الضباع الكوالح (٣٩)
 يجررنَ هاما قَلَّتْهَا رماخنا
 تزيل منهن اللحى والمسائح
 وقال في يوم عراعر • وهي معركة جرت بين بني عبس وبني كلب
 على ماء يقال له عراعر فاتصر بنو عبس ، فقال عترة :
 ألا هل اتاها ان يوم عراعر
 شفى سقما لو كانت النفس تشفى
 فجننا على عمياء ما جمعوا لنا
 بارعن لا خل ولا متكشف
 تماروا بنا اذ يمدرون حياضهم
 على ظهر مقصى من الامر محصف
 وما نذروا حتى غشينا بيوتهم
 بغيبة موت سبل الودق مزعف (٤٠)
 فظلنا نكر المشرفية (٤١) فيهم
 وخرصان (٤٢) لدن السمهي المتقف
 علالتنا في كل يوم كريهة
 باسيافنا والقرح لم يتقرف

(٣٩) الكوالح : العابسة المكشرة •

(٤٠) الودق المزعف : المطر المهلك الذي لا يبقى ولا يذر •

(٤١) المشرفية : السيوف •

(٤٢) الخرصان : الرماح •

ايننا فلا نعطي السواد عدونا
 قياما باعضاء السراء (٤٣) المعطف
 بكل هتوف عجبها رضوية (٤٤)
 وسهم كسير الحميري المؤنف
 فان يك عز في قضاة ثابت
 فان لنا بالرححان واسقف (٤٥)
 كتائب شها فوق كل كتيبة
 لواء كطل الطائر المتصرف
 وغادرن مسعودا كأن بنحره
 شقيقة بُرد من يمان مُفَوِّف
 وقال في موقعة حربية جرت بين بني عبس وبني تميم فانهزمت
 بنو عبس ، الا ان عترة صمد كالطود ، فلبى بنو عبس نداءه ، فكروا
 على أعدائهم ودحروهم :-
 طال الثواء على رسوم المنزل
 بين اللكيك وبين ذات الحرمل
 فوقفنت في عرصاتها متحيرا
 اسل الديار كفعل من لم يذهل

(٤٣) السراء : شجر تتخذ منه القسي .

(٤٤) هتوف : مصوته . العجس : مقبض القوس . رضوية نسبة
 الى رضوى جبل في المدينة .

(٤٥) الرححان : جبل بين عكاظ وعرفات . اسقف موقع في البادية .

لعبت بها الأنواء بعد انيسها
 والرامسات وكل جون مسبل (٤٦)
 افمن بكاء حمامة في أيكة
 ذرفت دموءك فوق ظهر المحمل
 كالدر او فضض الجمان (٤٧) تقطعت
 منه عقائد سلكه لم يوصل
 لما سمعت دعاء مرة اذ دعا
 ودعاء عبس في الوغى ومحلل
 ناديت عبسا فاستجابوا بالقنا
 وبكل ايض صارم لم ينجل
 حتى استباحوا آل عوف عنوة
 بالمشرفي وبالوشيج الذبَل (٤٨)
 اني امرؤ من خير عبس منصبا
 شطري واحمي سائري بالمتصل
 ان يلحقوا أكرر وان يستلحموا
 أشدد وان يُلْفَوا بضنك انزل
 حين النزول يكون غاية مثلنا
 ويفر كل مضلل مستوهل (٤٩)

-
- (٤٦) الرامسات : الرياح المغبرة • الجون : السحاب المتكاثف • مسبل : ممطر •
 - (٤٧) فضض الجمان : فتت اللؤلؤ •
 - (٤٨) المشرفي : السيف • الوشيج : الرمح • الذبل : الضامرة •
 - (٤٩) المستوهل : الضعيف الجبان •

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله
حتى انال به كريم المأكَل
وإذا الكتيبة احجمت وتلاحظت
ألفيت خيرا من معِمٍّ ومُخَوِّلٍ
والخيل تعلم والفوارس انني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل
اذ لا ابادر في المضيق فوارسي
ولا أوكَل بالرعيل الاول
ولقد غدوت امام راية غالب
يوم الهياج وما غدوت بأعزل
بكرت تخوفني الحتوفُ كأنني
اصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فاجبتها ان المنيّة منهلٌ
لا بد ان أُسقى بكأس المنهل
فأقنى حياءك لا ابا لك واعلمي
أنني امرؤٌ سأموت ان لم اقتل
ان المنيّة لو تمثّل مُثّلتُ
مثلى اذا نزلوا بضعك المنزل
والخيلُ ساهمةٌ الوجوه كأنما
تسقى فوارسها نقيع الحنظل
وإذا حملت على الكريهة لم اقل
بعد الكريهة ليتني لم افعل

لقد تمثلت في هذه القصيدة صفة الابطال الاشاوس وهي انعدام
الرهبة من الموت ومقابلة الحتوف بقوة وصلابة اذ ان المنية منهل يسقى
منها كل انسان ، فالمرء مصيره المحقق الموت ان قتل او لم يقتل ، فالاجدر
به ان يؤدي واجبه تجاه مجتمعه برحابة صدر وقوة جنان •

وقال ايضا : -

عجبت عبيّلةً من فتىً متبدّل
عاري الاشاجع^(٥٠) شاحبٍ كالمُنْصَل
شعثِ المفارقِ مُنْهَجٍ سرْباله
لم يدَهْنِ حَوْلًا ولم يترجّل
لا يكتسى الا الحديدَ اذا اكسى
وكذاك كل مغاورٍ مستبسل
قد طالما لبس الحديد فاتمّا
صدأ الحديد بجلده لم يُغسل
فتضاحكت عجباً وقالت يا فتى
لا خيرَ فيكَ كأنها لم تحفل
فعجبت منها حين زلت عنها
عن ماجدٍ طَلَّقَ اليدينِ شَمْرَدِل^(٥١)
لا تهرمني يا عيّلُ وراجعي
فيّ البصيرةَ نظرة المتأمل

(٥٠) عاري الاشاجع : قليل اللحم •

(٥١) الشمردل : الطويل •

فلرُبَّ أَمْلَحَ مِنْكَ دَلَا فاعلمي
 واقرَّ في الدنيا لعين المجتلي
 وصلت جبالِي بالذي انا أهله
 من ودها وانا رخي المطول
 يا عبل كم من غمرة باشرتها
 بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
 فيها لوامع لو شهدت زهاها
 لسلوت بعد تخضب وتكحل
 اما تريني قد نحلت ومن يكن
 غرضا لاطراف الاسنة ينحل
 فلرب ابلج مثل بعلك بادن
 ضخم على ظهر الجواد مهيل^(٥٢)
 غادرتَه متعفرا اوصاله
 والقوم بين مَجْرَحٍ ومجدل
 فيهم اخو ثقة يضارب نازلا
 بالمشرفي وفارس لم ينزل
 ورماحنا تكف النجيع صدورها
 وسيوفنا تخلق الرقاب فتختلي
 والهام تَنَدُرُ بالصعيد كأنما
 تلقى السيوف بها رؤوس الحنظل

• (٥٢) المهيل : الثقل الملول

ولقد لقيت الموت يوم لقيته
 متسربلا والسيف لم يتسربل
 فرأيتنا ما بيننا من حاجز
 إلا المجنُّ ونصل ايض مفصل
 ذكر أشق به الجماجم في الوغى
 واقول لا تقطع يمين الصيقل^(٥٣)
 ولربَّ مشعلة وزعت رعاها
 بمقلص نهده المراكل هيكل
 سلس المعذر^(٥٤) لا حق اقرا به^(٥٥)
 متقلب عشا بفأس المسحل^(٥٦)
 نهده القطاة كأنها من صخرة
 ملساء يغشاها المسيل بمحفل
 وكان هادي به اذا استقبلته
 جذع أذِلَّ وكان غير مذلل
 وكان مخرج روحه في وجهه
 سربان كانا مَوْلَجِين لجيل^(٥٧)

(٥٣) الصيقل : من يصقل السيوف ويشحذها .

(٥٤) المعذر : مكان اللجام .

(٥٥) لاحق اقرا به : ضامر البطن .

(٥٦) المسحل : اللجام .

(٥٧) السربان : مغارتان تحت الأرض . المولج : حجر . الجيل :

الضبع .

وكان متييه اذا جردته
ونزعت عنه الجلّ متا ايل

وله حوافر موثق تركيها
صم النسور كأنها من جدل

وله عسيب ذو سيب سايف
مثل الرداء على الغنى المفضل

سلس العنان الى القتال فعينه
قبلاء شاخصة كعين الأحول

وكان مشيته اذا نهته
بالكل مشية شارب مستعجل

فعليه اقتحم الهياج تقحما
فيها وانقض انقراض الاجدل (٥٨)

وقال في يوم جيلة وفيه قتل لقيط بن زراره
ارى لي كل يوم مع زماني
عتابا في البعاد وفي التداني

يريد مذتني ويدور حولي
بجيش النابيات اذا رأني

كأنني قد كبرت وشاب رأسي
وقل تجلدي ووهي جناني

الا يا دهر يومي مثل أمسي
واعظم هية لمن التقاني

ومكروب كشفت الكرب عنه
بضربة فيصل لما دعاني
دعاني دعوة والخيـل تجري
فما ادري أباسمي أم كناني
فلم أمسك بسمعي اذ دعاني
ولكن قد ابان له لساني
ففرقت المواكب عنه قهرا
بطعن يسبق البرق اليماني
وما لبيته الا وسيفي
ورمحي في الوغى فرسا رهان
وكان اجابتي اياه أني
عظفت عليه موار العنان
باسمر من رماح الخط لادن
وابيض صارم ذكر يمان
وقرن قد تركت لدى مكرًا
عليه سبائباً كالأرجوان (٥٩)
تركت الطير عاكفة عليه
كما تردى الى العرس البواني
وتمنعن ان يأكلن منه
حياة يد ورجل تركضان

(٥٩) السبائب : الجدائل أو خصائل الشعر المخضبة بالدم .

فما او هي مراسم الحرب ركني
ولكن ما تقدم من زمان

وما دانيت شخص الموت الا
كما يدنو الشجاع من الجبان

وقد علمت بنو عيسن بانني
أهش اذا دعيت الى الطعان

وان الموت طوع يدي اذا ما
وصلت بنانها بالهندواني

ونعم فوارس الهيجاء قومي
اذا علقوا الاعنة بالبنان

هم قتلوا لقطا وابن حجر
واردوا حاجبا وابني ابلان

وقال في يوم الفروق حينما هزم بنو عيس بنو سعد وقتل عنزة معاوية

بن نزال جد الاحنف :-

ألا قاتل الله الطلول البوالي	وقاتل ذكراك السنين الخوالي
وقولك للشيء الذي لا تاله	اذا ما حلا في العين يا ليت ذا ليا
ونحن منعنا بالفروق نساءنا	نُطِرَّف عنها مشعلات غواشيا
حلفنا لهم والخيل تردى بنا معا	نزاي لهم حتى يهروا العوالي
عوالي زرقا من رُدِينةٍ	هرير الكلاب يتقين الافاعيا
الم تعلموا ان الاسنة احرزت	بقتنا لو أن للدهر باقيا
أبينا أيننا ان نضب لثاتكم	على مرشفات كالظباء عواطيا

وقلت لمن قد أخطر الموت نفسه ألا من لأمر حازم قد بدا ليا
وقلت لهم ردوا المغيرة عن هوى سوابقها وأقبلوها النواصيا
وانا نقود الخيل تحكي رؤوسها رؤوس نساء لا يجدن فواليا (٦٠)
تعالوا الى ما تعلمون فانني ارى الدهر لا ينجي من الموت ناجيا

وقال يتوعد النعمان بن المنذر مفاخرًا بقومه :

لا يحمل الحقد من تعلقو به الرتب
ولا ينال العلا من طبعه الغضب
ومن يكن عبد قوم لا يخالفهم
إذا جفوه ويسترضى إذا عتبوا
قد كنت فيما مضى أرعى جمالهم
واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا
لله درُّ بني عبسٍ لقد نسلوا
من الأكارم ما قد تسئل العرب
لئن يعيبوا سواذي فهو لي نسب
يوم النزال اذا ما فاتني النسب
ان كنت تعلم يا نعمان أن يدي
قصيرة عنك فلايام تنقلب
اليوم تعلم يا نعمان اى فتى
يلقى اخاك الذي قد عرّه العُصَبُ

(٦٠) الفوالى : المشططات • : النعمان بن المنذر مفاخرًا (١٤)

ان الافاعي وان لانت ملامسها
 عند التقلب في اتيابها العطب
 فتى يخوض غمار الحرب مبتسما
 ويشنى وسانان الرمح مختضب
 ان سل صارمه سالت مضاربه
 واشرق الجو وانشقت له الحجب
 والخيـل تشهد لي اني اكفـفها
 والطعن مثل شرار النار يلتهب
 اذا التقت الاعادي يوم معركة
 تركت جمعهم المغرور يَنْتَهَبُ
 لي النفوس وللطير اللحوم ولد
 وحش العظام وللخيالة السلب
 لا ابعـد الله عن عيني غطارفة
 انسا اذا نزلوا جنأ اذا ركبوا
 اسود غاب ولكن لا نيوب لهم
 الا الاسنة والهنديـة القضب
 تعدو بهم أعوجيـات مضمرة
 مثل السراحين في اعناقها القب (٦١)
 ما زلت القي صدور الخيل مندقـا
 بالطعن حتى يضحـ السرج واللَّبَبُ

(٦١) السراحين جمع سرحان : الذئب • القنب : اللجام الثقيل •

فَالْعُمَىٰ لَوْ كَانَ فِي آجْفَانِهِمْ نَظَرُوا
وَالخُرْسُ لَوْ كَانَ فِي أَفْوَاهِهِمْ خُطْبُوا
وَالنَّقَعُ يَوْمَ طَرَادِ الْخَيْلِ يَشْهَدُ لِي
وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ

الرشاء في شعر الخنساء

ان الخنساء تمثل بحق في شعرها الرثاء ، لأنه مادة شعرها ، وقلمها وجدت لها منظومة تخرج عن نطاق الرثاء ، وانها ان مدحت تمدح اولئك الذين تربيهم ، فهي غالبا ما تبدأ قصائدها بالبكاء والنواح ثم تتحول الى مدح المرثى واطراء شمائله •

اسمها الحقيقي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية • وكان ابوها وآلها من سادات بني سليم من مضر • وكان أبوها ذا مكانة مرموقة في جزيرة العرب مما دعا النعمان الى اختياره ضمن سادات العرب العشرة الذين اوفدهم الى كسرى انوشروان لكي يظهروا له فضل العرب •

كانت بارعة الجمال ، وافرة الادب ، ولقبت بالخنساء لجمال انفها ، لان الخنس كان يعتبر من جمال الانف عند العرب آنثى • ولقد لقب بهذا اللقب اربع من سيدات العرب في الجاهلية الا انهن لم يبلغن مبلغ تماضر من خلود الذكر ، وذيوع الصيت •

نبتت اذن تماضر في دوحة الشرف ، وترعرعت في روضة الفضل ، فنشأت وهي ذات ادب جم ، وعقل وافر ، وخلق نبيل •

وكان لها اخوان : صخر ، ومعاوية - وكانا اجمل فارسين في العرب - كان ابوهما يأخذ بيديهما في الموسم ويقول : « انا ابو خيرى مضر ، فمن انكر فليغير » فلم ينكر عليه احد • ثم استطرد قائلاً : « من اتى بمثلهما اخوين من قبلي ، فله حكمه » ، فأقرت له العرب بذلك •

فألف كرم محتد تلك العائلة وطيب ارومتها بين قلوب اعضائها ،
وكانوا يتبادلون الحب والاعجاب ، لذا فكانت تماضر تباهي بقومها ، وتعتز
بألها اعتزازا تمثله القصيدة الرائعة التالية التي قالتها في سباق بين ابها
واخيها صخر ، وقد قيل لها : لئن مدحت احدهما هجوت الآخر • قالت
تصف صخرًا وقد ارادت مساواته بابيها مع مراعاة حق الوالد :

جاري اباي ، فأقبلأ وهما يتعاوران ملاءة الحضر
حتى اذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعدر
وعلا هتاف الناس : ايهما ؟ قال المحيب ، هناك : لا ادري
برزت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى ان يساويه لولا جلال السن والكبر
وهما كأنهما وقد برزا صقران قد حطا على وكر

وقيل للخساء : صفي لنا اخويك صخرًا ومعاوية • فقالت : كان صخر
جنة الزمان الاغبر وذعاف الخميس الاحمر • وكان معاوية القائل الفاعل •
قيل لها : فايهما كان اسنى وافخر ؟

قالت : اما صخر فحر الشتاء ، واما معاوية فبرد الهواء •
قيل لها : فايهما اوجع وافجع ؟

قالت : اما صخر فجمر الكبد ، واما معاوية فسقام الجسد • وانشدت :

اسدان محمرا المخالب نجدة بحران في الزمن الغضوب الانمر
قمران في النادي رفيعا محتد في المجد فرعا سوّدد متخير

* * *

ولقد خطبها دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم فردته
وآثرت الزواج في قومها • ويروى للخساء قولها عن حادث خطبة دريد
لها ورغبة اخيها معاوية لتزويجها منه ، ورفضها ذلك الزواج في الوقت

الذي كان فيه اخوها صخر غائبا في غزاة له :

يبادرني حُميدةُ كل يوم فما يولى معاوية بن عمرو
لئن لم أوت من نفسي نصيبا لقد أودى الزمان اذن بصخر
اتكرهني ، هُبِلتَ ، على دريد وقد أحرمت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى مجدا ومكرمة أتاها اذا عثى الصديق جريم نمر
ولو اصبحت في جشم هديا اذن اصبحت في دنس وفقير

ولم يمض وقت طويل حتى كان موضوع دريد وتماضر قصة الموسم
وحديث القاصي والداني في طول الجزيرة العربية وعرضها ، فكانت
هوازن في جانب وهي معتزة بسيدها وشاعرها الذي كان اشبه بأسطورة في
فروسيته وشجاعته ، وتكر ان ترده فتاة من العرب . وبنو سليم ، في الجانب
الآخر ، وهي ترى في تماضر ، وهي بنت سيدها ، خير سادات العرب ،
كفوا لأن ترد أي سيد ، كائنا من كان .

* * *

واخيرا كان رواحة بن عبدالعزيز السلمي هو الموعود بشرف الزواج
منها . فلم تجد في الحياة الزوجية معه السعادة المرجوة . اذ كان مولعا
بالمقامرة متلافا ، طالما شكته الى اخيها صخر .

ولقد أتت اخاها صخرًا يوما وشكت اليه حالها ، فما كان من صخر
الا ان شطر ماله شطرين اعطاها خيرهما .

فرجعت بالمال الى زوجها فاتلفه قبل ان يتم العام ، وعادت تماضر
الى صخر ، فشاطرها ماله واعطاها خير الشطرين .

وتكررت المأساة ، حتى اذا كانت الرابعة وهم صخر بأن يشاطر
اخته ماله ، اعترضته زوجته فعذلته قائلة : « ان زوجها مقامر ، وهذا

ما لا يقوم له شيء ، فان كان لا بد من صلتها فاعطها آخس مالك ، فانما هو
متلف ، والخيار فيه والشرار سيان » •

فكان جواب صخر أن قال :

والله لا امنحها شرارها وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدرها

ثم شطر ماله فاعطى اخته افضل الشطرين • ولم يدر صخر انه
بعمله وقوله قد ائقل كاهل تماضر بحمل ثقيل ، وفرض عليها ان تمزق
خمارها من بعده ، وتتخذ من شعر صدرها حتى مماتها ، وتملاً الدنيا
نواحا وعويلا •

كانت تماضر مع زوجها الثاني ، المسمى « مرداس بن ابي عامر
السلمي » الملقب بالفيض لسخائه ، اسعد حالا من زوجها الاول • ومع ذلك
فلم يسمع عن الخنساء اي نشاط في عالم الشعر طيلة حياتها الزوجية التي
انتهت بمرثية جادت بها على زوجها الثاني عند وفاته ، فظفر منها ما لم يظفر
به احد قط غير اخويها • وهي التي ضنت على بنيتها الاربعة بيت واحد
من الشعر تؤبئهم ، حينما قتلوا جميعا في وقعة القادسية •

وهذه هي مرثيتها لزوجها مرداس السلمي ، وهي المرثية الوحيدة
التي قيلت في غير اخويها : -

ولما رأيت البدر اظلم كاسفا
رنينا وما يغنى الرنين وقد أتى
لقد خار مرداسا على الناس قاتله
وقلن : الأهل من شفاء يناله
وفضل مرداسا على الناس حلمه
وأن كل واد يكره الناس هبطه
ارن شواذ بطنه وسوائله
بموتك من نحو القرية حامله
ولو عاده كتابه وحلائله
وقد منع الشفاء من هو نائله
وان كل هم همه فهو فاعله
هَبَطْتَ وماءٍ منهل انت ناهله

تركت به ليلا طويلا ومنزلا تعادى على ظهر الطريق عواسله^(١)
وسبى كآرام الصريم تركته خلال الديار مستكينا عواطله^(٢)
وعدت اليهم بعد بؤس بأنعم فكلمهم 'تُعْنَى' به وتواصله
متى ما توازن ماجدا يعتدل به كما عدل الميزان بالكف راطله
وتبدو في هذه القصيدة ملامح مبكرة من مرثي الخنساء وهي نفتقر
الى قوة العاطفة ، والى الشعور بعنف المصاب .

ولقد كانت الخنساء في اول امرها تقول البيت او البيتين حتى مقتل
اخويها الذي اثار فيها طبيعة الشعر ونمى روحها الشاعرية ، فنظمت في
رثائهما قصائد تعد من اروع قصائد الرثاء واجودها .

ولولا ان مرداسا مات قبل ان تُرَوِّعَ تماضر بفقد اخويها ، لما ظفر
منها بكلمة واحدة لأنها نذرت الا تحزن على احد من بعد صخر ، والا
ترثى ميتا بعده .

* * *

جاء مقتل اخيها معاوية اول صدمة للخنساء هز كيانه ، ففجعت به ؛
وكان الذين قتلوه آل غطفان من بني مرة . فاشتد بها الجزع ، وغمرها
الاسى ، وانشدت :-

الا ما لعينك أم مالها لقد أخضل الدمع سربالها^(٣)
ابعد ابن عمرو من آل الشريب جد حلت به الارض اتقالها ؟

(١) تعادى : تتبارى بالعدو . عواسل جمع عاسلة : وهي انثى
الذئب .

(٢) الآرام : الغزلان البيض . الصريم : موضع تكثر فيه الأطباء .
عواطل : نساء غير متزينات بحلي .

(٣) أخضل : بلل . السربال : قميص كناية عن الجفن الذي يستر
العين كما يستر القميص الجسد .

فأليت آسى على هالك واسأل باكية ، مالها ؟
لعمر ايك لنعم الفتى تحش به الحرب اجذالها

* * *

فان تكُ « مرة » اودت به فقد كان يكثر تقاتلها
فخرَّ الشوامخ من قلته وزلزلت الارض زلزالها
وزال الكواكب من فقده وجلت الشمس اجلالها
وداهية جرها جارم تبين الحواضن احمالها
وقالت فيه :-

يا عين ابكى فارسا حسن الطعان على الفرس
ذا مرةٍ ومهابة بينا تؤلمه احتليس

؛

نعم الفتى عند الوغى حين التصايح في الغلَسْ
فلأبكيتك سييدا فصل الخطاب اذا التبس
من ذا يقوم مقامه بعد ابن امى اذ رُمِس
او من يعود بحلمه عند التنازع في الشكس^(٤)
غيث العشيرة كلها : الغائرين ومن جلس^(٥)

وقالت فيه الايات التالية التي يظهر فيها الحزن والاسى بكل
وضوح ، فيهز وجدان السامع رنينها المثير الذي تجعله « الهاء الساكنة »
شبيها بالنواح والعيويل :-

(٤) الشكس : صعوبة الخلق .

(٥) الغائرون : الذاهبون الى الغارة . من جلس : من قعد عن الغارة .

ألا لا ارى في الناس مثل معاوية
 اذا طرقت احدى الليالي بدهيه
 بدهيه يصغى الكلاب حسيها
 وتخرج من سر النجى علانيه
 الا لا ارى كالفارس الورد فارسا
 اذا ما علتة جرأة وعلانيه
 وكان لزاز الحرب عند شوبها
 اذا شممت عن ساقها وهي ذاكه^(٦)
 بلينا وما تبلى تعار وما ترى
 على حدث الايام الا كما هيه^(٧)
 فاقسمت لا ينفك دمعي وعولتي
 عليك بحزن ما دعى الله داعيه

وقالت فيه ايضا :-

يا عين جودي بالدمو ع المستهلات السواجم^(٨)
 فيضا كما انخرق الجما ن وجمال في سلك النواظم
 وابكى معاوية الفتى وابن الخضارمة القماقم^(٩)
 والحازم الباني العلا في الشاهقات من الدعائم

(٦) لزاز الحرب : ملازمها وملاحقها .

(٧) تعار : اسم جبل .

(٨) المستهلات السواجم : المتدفق منها الدمع .

(٩) الخضارمة جمع خضرم : السيد الجواد . القماقم : السيد الكثير

الاحسان .

تلقى الجزيل عطاؤه عند الحقائق غير نادم
اسقى الاله ضريحه من صوب دائمة الرهائم^(١٠)



ولم تتكامل شاعرية الخنساء الا بعد وفاة اخيها الحبيب صخر ، وهو
في نظرها زين العشيرة ، واولهم حلما وجودا وشجاعة وجمالا ، وكان
واخاه معاوية على ما روى « ابو عبيدة » اجمل رجلين في العرب في زمنهما .
ولنا ان تصور محنة الخنساء في فقد صخر بعد معاوية • فلقد فقدت
بفقدته سعادتها ، واسودت الدنيا بعينها ، وانطفأ نورها ، وخمد للأؤها ،
فلم تعد تجد فيها غير البؤس والشقاء • فانفجرت نواحا على صخر ،
وملأت الدنيا قصائد تراثيه فيها • ولم يظفر احد بالمرائي قدر ما ظفر به
صخر من مرثي الخنساء اذ تقدر بنحو سبعين مرثية ، لا تكاد واحدة
منها تخلو من ذكر اسمه ، فكأنما كانت تجد في ترديد اسمه راحة لها •
وكانت اولى قصائدها في رثاء صخر ، وهو اعز عزيز لديها ، تلك
التي قالتها عندما نعى الناعي ذلك النبا المفجع ، فوفقت نائحة ملتاعة :-

ابنت صخر تلکم الباکیة لا باکی اللیلة الاهیة
اودی ابو حسان واحسرتا وكان صخر ملك العالیة
ویلاى ! ما أرحم ویلاً لیه اذا رفع الصوت الندی الناعیه
کذبت بالحق وقد رابنی حتی علت ایاتنا الواعیه
بالسید الحلو الامین الذی یعصمنا فی السنة العادیة
الی ان قالت :-

(١٠) الرهائم جمع رهمة : وهي المطر الخفيف المستمر .

لا خير في عيش وان سرنا والدهر لا تبقى له باقيه
كل امرئٍ سرّاً به اهله سوف يرى يوماً على ناحيه
وقالت فيه لما جاءها خبر وفاته ، وتستشف من هذه الايات اللهفة
الحارة والحزن العميم ، فكأنها صرخات قلب مقطوع ، وانات صدر موجع
مكلموم :

يا عين جودي بالدموع الغزار
وابكى على اروع حامي الذمار
فرع من القوم كريم الجدا
انما منهم كل محض التجار
اقول لما جاءني هلكه
وصرح الناس بنجوى السرار
أخى ! إِمّا تكُ ودعتنا
وحال من دونك بعد المزار

*

أهلي فداء للذي غودرت
اعظمه تلمع بين الخبار^(١١)
صريع ارماح ومشحوذة
كالبرق يلمعن خلال الديار
من كان يوماً باكياً سيداً
فليكنه بالعبرات الحرار

(١١) الخبار : الارض الرخوة .

ولتبكّه الخيل اذا غودرت
بساحة الموت غداة العثار
ولييكه كل اخي كربة
ضقت عليه ساحة المستجار
ربيع هُلاكٍ ومأوى ندى
حين يخاف الناس قحط القطار
أسقى بلادا ضمنت قبره
صوب مرايبع الغيوث السوار
حلفت بالبيوت وزواره
اذ يعملون العيس نحو الجمار
لا اجزع الدهر على هالك
بعذك ما خنت هوادي العشار
يا لوعة بانث تباريحُها
تقدح في قلبي شجي كالشرار
ابدى لي الجفوة من بعده
من كان من ذى رحيمٍ او جوار
ان يكُ هذا الدهر اودى به
وصار مسحا لمجاري القطار
فكل حي صائر للبلبي
وكل جبل مرة لاندثار
وقالت في صخر ، وهي تتفجع والتراب يحثي على محاسنه وعلى
غضارة وجهه :-

يا صخر ، من لحوادث الدهر
أم من يسهل راكب الوعر

كنت المفرج ما ينوب ، فقد
اصبحت لا تحلى ولا تمرى

يُحشى التراب على محاسنه
وعلى غضارة وجهه النضر

وقالت ، وقد هد قواها صوت الناعي فاخرجها عن طورها ، فتمنت
لو اطبقت السماء على الارض ، فمات كل من عليها من حاف وناعل :

ألا ليت امي لم تلدني سوية
وكنت ترابا بين ايدي القوابل

وخرت على الارض السماء فطبقت
ومات جميعا كل حاف وناعل

غداة غدا ناع لصخر فراغني
واورثني حزنا طويل البلايل

فقلت له : ماذا تقول ؟ فقال لي
نعت ابن عمرو ، اثكلته هوايل

فاصبحت لا التذ بعدك نعمة
حياتي ولا ابكي لدعوة ثاكل

فشان المنايا بالاقارب بعده
لَتُعَلِّلْ عليهم علة بعد ناهل

وتسود الدنيا في عيني تماضر ، ويلوح لها الكون كالبحر السواد ،
وتحس كل من في الكون يشاركها في البكاء والنحيب ، اذ تقول :-

يا عين جودي بالدموع
على القتي القرم الاغر
ايض ابلج وجهه
كالشمس في خير البشر
والشمس كاسفة لمهلكه
وما اتسق القمر
والانس تبكي ولهأ
والجن تسعد من سمر
والوحش تبكي شجوها
لما اتى عنه الخبر
المِدْرَهُ الفياض يحمل
عن عشيرته الكبير
يعطى الجزيل ولا يمن
وليس شيمته العسر
ويلي عليه ويلية
اصبحت حصني منكسر

وانشدت القصيدة التالية ، وهي تصور شدة جزعها وشجنها ،
وتصف نذب النوادب ونواح النائحات اللائي يشاركنها حزنها على فقد
اخي الندى والخير والشيم الصوالح :-

يا عين جودي بالدموع المستهلات السوافح^(١٢)
فيضا كما فاضت غروب المترعات من النواضح

(١٢) الدموع المستهلات السوافح : الدموع السائلة المنهملة .

وابكى لصخر اذ ثوى بين الضريحة والصفائح (١٣)
 رمسا لدى جدث تديع بتريه هوج النوافح
 السيد الجججاج وابن السادة الشم الججاج (١٤)
 الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح
 الجابر العظم الكسير من المهاصر والممانح (١٥)
 الواهب المئة الهجان من الخنازيد السوابح (١٦)
 الغافر الذنب العظيم لذى القرابة والمالح
 بتعمد منه وحلم حين يبغي الحلم راجح
 ذاك الذي كتبا به تشفى المراض من الجوانح
 ويرد بادرة العدو ونخوة الشنف المكاشح (١٧)
 فصابنا ريب الزمان فالنا منه بناطح
 فكأنما أمَّ الزمان نحورنا بمُدى الذبائح
 فساؤنا يندبن نوحا بعد هاديئة النوائح
 يحنن بعد كرى العيون حين والهة قوامح (١٨)
 شعث شواحب لاينين اذا ونى ليل النوائح
 يندبن فقد أخى الندى والخير والشيم الصوالح

(١٣) الضريحة : القبر • الصفائح : حجارة رقيقة لتسقيف القبور •

(١٤) الججاج : السيد المسارع الى المكارم •

(١٥) المهاصر : المفترس • الممانح : المعطاء •

(١٦) الخنازيد : الابل الطويلة • السوابح : السائرة بسرعة وكأنها

تسيح •

(١٧) الشنف : الميغض • المكاشح : المعادى •

(١٨) القوامح جمع قامحة : وهي الناقة التي ترفع رأسها عند شرب

الماء ، وتمتنع عن الشرب ربا •

والجود والأيدي الطوال المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوانا مثل أسنان القوارح
وقالت تصور جزع بني عمرو على الفقيد وتصف كيف بلت
دموعهم لحاهم :

بكت عيني وعاودها قذاها بعوار فما تقضى كراها^(١٩)
على صخر واي فتى كصخر اذا ما الناب لم ترام طلاها^(٢٠)
لئن جزعت بنو عمرو عليه لقد رزئت بنو عمرو فتاها
له كف يشد بها وكف تحلب ما يجف ثرى نداها
ترى الشم الججاج من سليم يبل ندى مدامعها لحاها
على رجل كريم الخيم اضحى بطن حفيرة صخب صداها^(٢١)
ليبك الخير صخرا من معد ذوو احلامها وذوو نهاها^(٢٢)
وقالت ايضا :-

مرهت عيني فعيني بعد صخر عطفه^(٢٣)
قدموع العين مني فوق خدي وكفه^(٢٤)
طرفت حندر عيني بعيك ذرفه^(٢٥)
ان نفسي بعد صخر بالبردى معترفه

-
- (١٩) القذى : ما وقع في العين من قشه وغيرها • العوار : الرمذ •
(٢٠) الناب : الناقة • ترام : تعطف على • طلاها : ولدها •
(٢١) الخيم : الطبيعة والسجية •
(٢٢) الحلم والنهى : العقل •
(٢٣) مرهت : خلت من الكحل • عطفه : مشفقه •
(٢٤) وكفه : جاريه وسائلة •
(٢٥) حندر العين : حدقة العين •

وبها من صخر شيءٌ ليس يُحكى بالصفه
وبنفسه لهمومٌ فهي حرى اسفه
وبذكرى صخر نفسي كل يوم كلفه

لقد كانت الخنساء الشادية الحزينة ، والغريدة الباكية ، فالحزن
مصدر الهامها ، وفقداء اخاها الاعز أسُّ بلائها • وكانت جل قصائدها
تتمص نواحا لتلك الحادثة التي تركت في نفسها اعظم الاثر •

ولقد ظفرت الخنساء بتقدير النقاد ، ولا تزال حتى اليوم موضع
العناية والتقدير • فلقد حضرت سوق عكاظ وقارعت فحول الشعراء وامراء
البيان ، فلمست آثار مجدها •

ولقد جاءت الموسم يوما ، وقد جلس « النابغة الذبياني » للحكم بين
الشعراء ، فانشدته بعض قصائدها في رثاء اخيها صخر • وكان قد سبقها
في تلاوة ما لديهم الكثير من الشعراء منهم الاعشى وحسان بن ثابت • فقال
لها النابغة : والله لولا ان ابا بصير (الاعشى) سبقك فانشدني آفا ، لقلت
انك اشعر من بالموسم • فغضب حسان من قوله • وهذا الحكم الصادر من
عميد الشعراء الذي اختاره العرب ليكون حكما بين الشعراء في مكة لجدير
بأن يكسب الخنساء منزلة رفيعة في عالم الشعر في العهد الجاهلي •

ويروى ان عبدالمك بن مروان سأل الشعبي في مجلس له : اي نساء
الجاهلية اشعر ؟ فقال الشعبي : الخنساء • فسأله عبدالمك : ولم فضلتها على
غيرها ؟ قال : لقولها :-

وقائلة والناس قد فات خطوها
لتدركه : يالهدف نفسي على صخر
الا ثكلت ام الذين غدوا به
الى القبر ، ماذا يحملون الى القبر !

وذكروا ان جريرا سئل : من اشعر الناس ؟

قال : انا ، لولا الخنساء •

فسألوه : بم فضلتك ؟

اجاب : بقولها :

ان الزمان وما تفسى عجائبه

ابقى لنا ذنبا واستوصل الراس

ابقى لنا كل مجهول وفجعنا

بالحالمين فهم هام وأرماس (٢٦)

ان الجديدين في طول اختلافهما

لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس

وكان بشار يقول : كل اشعار النساء تسم بالضعف والانوثة •

ف قيل له : وما قولك بالخنساء ؟

قال : لا ••••• تلك فاقت الفحول من الرجال •

وحدثوا ان « المفضل الضبي » دعى يوما الى مجلس المهدي ،

فسأله الخليفة : يا مفضل ، ما افخر بيت قالته العرب ؟

اجاب الضبي : قول الخنساء :

وان صخرًا لتأتَمُّ الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

فاستوى الخليفة جالسا واوما الى شخص كان في المجلس ، وقال

(٢٦) الهام : الجثث • الارماس : القبور •

للضبي : قد قلت لهذا ما قلت ، فأبى على ***

قال الضبي : الصواب معك يا أمير المؤمنين ***

ولقد ظلت الخنساء على مر الدهور والعصور متبوءة منزلة رفيعة في عالم الشعر ، ومكانتها بين فحول الشعراء مرموقة •



والخنساء تعتبر من طبقة المخضرمين من الشعراء الذين عاصروا

الجاهلية والاسلام •

فلما فاض نور الاسلام على ارجاء الجزيرة العربية ، ونادى البشير بانبثاق دين جديد يحمل تحت رايته الخفاقة الخير والصلاح جاءت الخنساء مع قومها بني سليم في السنة الثامنة للهجرة فبايعت الرسول بيعة النبوة ، فاستشدها شعرها في صخر ، فانشدته وهو يصغي اليها ويستزيدها قائلاً :
هيه يا خناس ••

ولم يلمها الرسول الكريم او يزجرها على استمرارها على حال

الجاهلية بالرغم من ان في الاسلام سلوة عمن فقدت •

وقد جاءت الخنساء مرة الى ام المؤمنين عائشة وقد وصلت من العمر عتياً ، وهي تدب من الكبر على عصا • فاستقبلتها عائشة بحفاوة وتكريم وقالت لها :

- اخناس !

فاجبتها الشيخة الكئيبه :

- ليك يا ام المؤمنين ••

قالت :

- اتلبسين الصدر ، وقد نهى الاسلام عنه ؟ قبض رسول الله فما لبست هذا •

فخففت الخنساء رأسها وتنهدت وهي تجيب •

- لم اعلم بنهيه !

فكفت عائشة عن لومها وسألتها :

- ما الذي بلغ بك ما ارى ؟

اجابت وهي تشهق بدمعها :

- موت اخي صخر •

ثم انشئت تقص عليها ما كان من كريم صنائعه وطيب شمائله ، وتحدثها عن قصة « الصدر » الذي لبسته منذ مات ، مصداقاً لقوله فيها :

ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدرها

ولمست الحزينة صدرها ، ثم رفعت رأسها الى ام المؤمنين قائلة :

- « والله لا اخلف ظنه ، ولا اكذب قوله ما حيت ! فان يكن الاسلام

قد نهى عن مثل هذا ، فرحمة الله واسعة ! » •

ولقد شاهدها يوماً امير المؤمنين عمر بن الخطاب في البيت الحرام وهي تطوف في صدرها الفاجع ، مقرحة الجفنين ، حليقة الشعر ، لا تكف عن النواح ولطم الخدود ، وقد علقت نعل صخر في خمارها • فاراد امير المؤمنين ان يخفف من بلوائها وان يأخذها بالصبر فوعظها • فقالت : اني رزئت فارساً لم يرزاً احد مثله •

فقال : ان في الناس من هو اعظم مرزئة منك ، وان الذي تصنعين ليس من الاسلام ، فالاسلام لا ييجيز لطم الوجه وكشف الرأس ، وان الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم حشو جهنم •

قالت : ذلك ادعى لحزني ، واني كنت ابكيهما من النار ، فاليوم
ابكيهما من النار •

ثم انشدت :

أريقى من دموعك او أفيقي وصبرا ، ان أطقت ، ولن تطيقي
وقولي ان خير بنى سليم وفارسهم بصحراء العقيق
واني والبكا من بعد صخر كسالكة سوى قصد الطريق
فلا وأبيك ما سليت صدري بفاحشة اتيت ولا عقوق
ولكني وجدت الصبر خيرا من النعلين والرأس الحليق
ألا هل ترجعن لنا الليالي وايام لنا بلوى الشقيق
الا يا لهف نفسي بعد عيش لنا بندى المخبم والمضيق

الى آخر القصيدة ••••

فلما سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اشادها تأثر لحالها تأثرا
بليغا وقال :

« دعوها • فانها لا تزال حزينه ابا ! »

نعم لقد اقسمت الخنساء ان لا تنزع عنها ثوب الحداد ابا ، وان
لا ترثى من بعد صخر احدا • ومثل الخنساء لا تحث بقسم • فلم ترث
اولادها الاربعة الذين لاقوا حتفهم جميعا في وقعة القادسية ، والذين قضت
ليلة كاملة قبل رحيلهم توصيهم بالصبر وبالاقدام على الجهاد ، وتغريهم
بمجد الاستشهاد ، قائلة : -

« يا بني انكم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم
لبنو اب واحد وام واحدة ، ما خنت اباكم ، ولا فضحت اخوالكم ،
ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم • وقد تعلمون ما اعد الله تعالى
للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين • واعلموا ان الدار الآخرة

خير من الدار الفانية • يقول الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا
وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ••• فإذا رأيتم الحرب قد
شمرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها
تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة » •

فقاتل ابناؤها في المعركة وابلوا بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعا ،
ولما وصلها نعيهم ، قالت : « الحمد لله الذي شرفني بموتهم ، وارجو ان
يجمعني بهم في مستقر رحمته » •

فأعطاها عمر ارزاق اولادها طيلة حياته •



واليكم بعض مختارات من قصائدها في رثاء صخر • وهذه القصيدة
التي انشدتها التابعة الذبياني في سوق عكاظ ففضلها على جميع من حضر
السوق من الشعراء الا الاعشى :-

قذى بعينك أم بالعين عُوَّار
أم ذرَّفت اذ خلت من اهلها الدار

كأن عيني لذكراه اذا خطرت
فيض "يسيل على الخدين مدار

تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت
ودونه من جديد الترب استار

تبكي خناس فما تنفك ما عمرت
لها عليه رنين " وهي مفقار (٢٧)

(٢٧) المفقار : المقصر •

تبكي خناس على صخر وحق لها
اذ رابها الدهر ، ان الدهر ضرار
لابد من مية في صرفها عبر
والدهر في صرفه حول واطوار
قد كان فيكم ابو عمرو يسودكم
نعم المعمم للداعين نصار
صلب النحيزة وهاب اذا منعوا
وفي الحروب جريء الصدر مهصار (٢٨)
وان صخرا لوالينا وسيدنا
وان صخرا اذا تشتو لنحار
وان صخرا لمقدام اذا ركبوا
وان صخرا اذا جاعوا لعقار
وان صخرا لتاتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار
جلد ، جميل الحياء ، كامل ، ورع
وللحروب غداة الروع مسعار
حمال الوية ، هباط اودية
شهاد أندية ، للجيش جرار
نحار راغية ، ملجاء طاغية
فكاك عانية ، للعظم جبار

(٢٨) النحيزة : الطبيعة • المهصار : الذي يدق الاعناق •

فقلت لما رأيت الدهر ليس له
معاتب وحده يسدى ونيار

لقد نعى ابن نهيك لي اخا ثقة
كانت تُرَجِّمُ عنه قبل اخبار

فبت ساهرة للنجم ارقبه
حتى اتى دون غور النجم استار

لم تره جارة يمشي بساحتها
لريبة حين يخلى بيته الجار

ولا تراه وما في البيت يأكله
لكنه بارز بالصحن مهمار (٢٩)

ومطعم القوم شحما عند مسغبهم
وفي الجدوب كريم الجد ميسار (٣٠)

قد كان خالصتي من كل ذى نسب
فقد اصيب فما للعيش اوطار

مثل الرُديني لم تفد شيبته
كأنه تحت طي البرد اسوار

جهم المحيا تضيء الليل صورته
آبأؤه من طوال السمك احرار (٣١)

(٢٩) المهمار : الكثير الكرم والجود .

(٣٠) ميسار : ذو غنى ويسار .

(٣١) جهم المحيا : عابس الوجه . السمك : القامة .

مُورَثَ المجد ميمون نقيته
 ضخم الدسيعة في العزاء مغوار
 فرع لفرع كريم غير مؤثب
 جلد المريرة عند الجمع فخار (٣٢)
 في جوف لحد مقيم" قد تضمنه
 في رسمه مقمطرات واحجار (٣٣)
 طلق اليدين لفعل الخير ذو فجر
 ضخم الدسيعة بالخيرات أمار (٣٤)
 ليكه مقتر" افنى حريته
 دهر" وحالفه بؤس واقطار
 ورفقة حار حاديهم بهلكه
 كأن ظلمتها في الطخية العار (٣٥)
 لا يمنع القوم ان سالوه خلغته
 ولا يجاوزه بالليل مُرَّار
 وقالت ايضا في رثاء صخر :-
 اعني هلا تبكيان على صخر
 بدمع حيث لا بكىء ولا نزر (٣٦)

(٣٢) مؤثب : المخلوط النسب • المريرة : ابرام الرأى •

(٣٣) المقمطرات : صغار الحجر والعظام •

(٣٤) ذو فجر : المتفجر بالمعروف • الدسيعة : العطاء •

(٣٥) الطخية : الغيم الرقيق الذي يخفى النجوم •

(٣٦) الحثيث : الغزير • بكىء ونزر : القليل •

وتستفرغان الدمع او تدريانه
على ذى الندى والجود والسيد الغمر

*

وقائلة والنعم قد فات خطوها
لتدركه : يا لهف نفسي على صخر

الا تكلت أم الذين مشوا به
الى القبر ، ماذا يحملون الى القبر !

وماذا يوارى القبر تحت ترابه
من الخير ، يا بؤس الحوادث والدهر

ومر الحزم في العزاء والجود والندى
غداة يرى حلف اليسارة والعسر

لقد كان في كل الامور مهذبا
جليل الايادي ، لا يَنْهَنَهُ بالزجر

وان تلقه في الشرب لا تلق فاحشا
ولا ناكثا عقد السرائر والصبر

فلا يُبْعَدَنَّ قَبْرَ تَضَمَّنَ شَخْصَهُ
وجاد عليه كلُّ واكفة القطر

وقالت فيه :

ما بال عينك منها دمعا سرب
اراعها حزن" ام عاها طرب (٣٧)

(٣٧) سرب : سائل • عاها : زارها • طرب : حزن •

ام ذكر صخر بُعِيدَ النوم هيجها
فالدمع منها عليه الدهر ينسكب
يا لهف نفسي على صخر اذا ركبت
خيل لخيّل تنادي ثم تضطرب
قد كان حصنا شديد الركن ممتعا
ليثا اذا نزل القتيان أو ركبوا
اغر ، ازهر ، مثل البدر صورته
صاف ، عتيق ، فما في وجهه ندب
يا فارس الخيل اذ شدت رحائلها
ومطعم الجوع الهلكي اذا سغبوا
كم من ضرائك هلاك وارملة
حلوا لديك فزال عنهم الكرب
سقيا لقبرك من قبر ولا برحت
جود الرواعد تسقيه وتحتلب (٣٨)
ماذا تضمن من جود ومن كرم
ومن خلائق ما فيهن مقتضب
وقالت تجيب اولئك الذين نصحوها بالتصبر والسلوان :-
ضقت بي الارض وانقضت مخارمها
حتى تخاشعت الاعلام والييد
وقائلين تعزى عن تذكره ،
فالصبر ! ليس لأمر الله مردود

(٣٨) الجود : الغيث • الرواعد : السحاب المرعد • (٧٧)

يا صخر قد كنت بدرا يستضاء به
فقد ثوى يوم مت المجد والجود
فاليوم امسيت لا يرجوك ذو أمل
لما هلكت وحوض الموت مورود
وربّ ثغر مهول خضت غمرته
بالمقربات عليها القتيّة الصيد
نصبت للقوم فيه فصل اعينهم
مثل الشهاب وهي منهم عبايد (٣٩)

وقالت :

يا عين جودي بدمع منك مدرار
جهد العويل كماء الجدول الجاري
وابكى اخاك ولا تنسى شمائله
وابكى اخاك شجاعا غير خوار
وابكى اخاك لايتام وارملة
وابكى اخاك لحق الضيف والجار
جم فواضله تدى انامله
كالبدر يجلو ولا يخفى على الساري

رواد عارية فكاك عانية
كضيغم باسل للقرن هصار
جواب اودية حمال الوية
سمح الدين جواد غير مقتار

(٣٩) وهي : ضعف • العبايد : الفرق من الناس •

وقالت :-

يا عين ابكى على صخر لأشجان
وهاجس في ضمير القلب خزان
اني ذكرت ندى صخر فهيجني
ذكر الحبيب على سقم واحزان
فابكى اخاك لايتام أضر بهم
ريب الزمان ، وكل الضر يغشاني
وابكى المعمم زين القائدين اذا
كان الرماح لديهم خلجَ اشطان
وابن الشريد فلم تبلغ ارومته
عند الفخار لقرم غير مهجان (٤٠)
لو كان للدهر مال عند متلده
لكان للدهر صخر مال فتيان
أبى الهزيمة آت بالعزيمة متلاف
الكريمة ، لا نكس ولا وان (٤١)
حامى الحقيقة بسال الوديقة معتاق
الوسيقة ، جلد غير ثنيان (٤٢)

(٤٠) الارومة : الحسب والاصل • مهجان : لئيم •

(٤١) الهزيمة : الظلم • الكريمة : خيار المال • النكس : الجبان •

الواني : الضعيف •

(٤٢) بسال الوديقة : الذي يحمى الذمار • معتاق الوسيقة : من

اعتق عبدة او اسيرة • ثنيان : من لا عقل له ولا رأى •

طلائعُ مرقبة ، مناع مغلقة
وراد مشربة قطاع اقران

شهاد أنديسة حمال الوية
قطاع اودية سرحان قيعان

يحمى الصحاب اذا جد الضراب
ويكفى القائلين اذا ما ليل الهاني

ويترك القرن مصفرا انامله
كأن في ريطيه نضح أرقان

بعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه
من التلاد وهوب غير منان

وقالت في صخر ، وهي تحاول التوفيق بين قلبها المفجوع وبين ايمانها

الجديد :

كل يوم ينال منا شريفا	ما لذا الموت لا يزال مخيفا
الا المهذب الغطريفيا (٤٣)	مولعا بالسراة منا ، فما يأخذ
فتنال الشريف والمشروفا	فلو ان المنون تعدل فينا
وأن لا نسومه تسويفا	كان في الحق أن يعود لنا الموت
لألفيته نقيا عفيفا	ايها الموت لو تجافيت عن صخر
فيما ويبذل المعروفا	عاش خمسين حجة ينكر المنكر
وسقى قبره الربيع خريفا	رحمة الله والسلام عليه

ولقد اقسمت الخنساء ان تهدي قصيدة لصخر في كل مجمع ، حيث

تقول :

(٤٣) الغطريف : السيد .

واقسمت لا انفك اهدى قصيدة
فدتك سُلَيْمٌ : كهلهما وغلماها
لصخر أخي الفضال في كل مجمع
وجدعَ منها كل انف ومسمع
وقالت ترثي اخويها صخرًا ومعاوية ، وهي من القصائد التي قيلت
بعد الاسلام :

ارى الدهر افنى معشري وبنى ابي
ايا صخر هل يغنى البكاء او الاسى
فامسيت عبري لا يجف بكائيا
على ميت بالقبر اصبح ثاويا
فلا يبعدن الله صخرًا وعهده
ولا يبعدن الله صخرًا ، فانه
وما أثبت الله الجبال الرواسيا
من المستهلات السحاب الغوايا
سأبكيهما والله ماحن واله
سقى الله ارضا اصبحت قد حوتهما

وقد ذكرها صياح الديك صخرًا ، فانشدت :-

الا ايها الديك المنادي بسحرة
بدا لي اني قد رزئت بقتية
هلم كذا اخبرك ما قد بدا ليا
بقية قوم اورثوني المباكيا
تعزيزت واستيقنت أن لا أخا ليا
وكيف أرجى العيش؟ ضل ضلاليا!
تقدم يومي قبله لبكى ليا
وعسان لم تسمع له الدهر لاحيا

وقالت :-

اعينى جودا ولا تجمدا
الا تبكيان الجريء الجميل
الا تبكيان لصخر الندى !
الا تبكيان الفتى السيدا
سواد عشيرته امردا
طويل النجاد رفيع العماد

إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مُصْعِداً
يكلفه القوم ما عا لهم وان كان اصغرهم مولداً
ترى المجد يهوى إلى بيته يرى أفضل الكسب ان يحمداً
وان ذكر المجد أفتيه تَأَزَّرَ بالمجد ثم ارتدى

وقالت ، وهي تبرر شدة حزنها وتستحسن طول بكائها على أخيها
صخر :

الا يا صخر ان ابكيت عيني لقد اضحككتي دهرا طويلا
بكيتك في نساء معولات وكنت احق من ابدى العويلا
دفعت بك الجليل وانت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقالت في صخر ، وهي من غرر قصائدها؛ وهي تسم بحلاوة اللفظ ،
ورشاقة الروى ، وجزالة التركيب :-

يؤرقني التذكر حين امسي فأصبح قد بليت بفراط نكس^(٤٤)
على صخر ، واى قسى كصخر ليوم كرهية وطعان جلس
وللخصم الألد اذا تعدى ليأخذ حق مظلوم بقنس
فلم أر مثله رُزءاً لجن ولم ار مثله رزءاً لانس
أشد على صروف الدهر أيذا وافضل في الخطوب بغير لبس
وضيف طارق او مستجير يروّع قلبه من كل جرس^(٤٥)
فاكرمه وآمنه فأمسى خليا باله من كل بؤس

• (٤٤) النكس : عود المرض بعد الشفاء •

• (٤٥) الجرس : الصوت الخفي •

واذكره لكل غروب شمس
على اخوانهم لقتلت نفسي
وباكية تنوح ليوم نحس
عشية رزئه أو غب أمس
أعزى النفس عنه بالتأسي
افارق مهجتي ويشق رمسي
ابي حسان لذاتي وانسى
أصبح في الضريح وفيه يمسي؟

يذكرني طلوع الشمس صخرا
ولولا كثرة الباكين حولي
ولكن لا ازال ارى عجولا
أراها والهها تبكي اخاها
وما يكون مثل اخي ولكن
فلا والله لا انسك حتى
فقد ودعت يوم فراق صخر
فيا لهفي عليه ولهف امي،

[Faint bleed-through text from the reverse side of the page, including phrases like "يا صخر" and "يا اخي"]

طول الجند وبيع المنولفنا بعد ربيعة : ربيعة (22)
فخفا ربيعة : ربيعة (25)

الفِزَل

في سفر عمر بن أبي ربيعة

عمر بن أبي ربيعة ، ويكنى ابا الخطاب ، وابوه عبدالله بن ربيعة من اعيان قريش وساداتها . كان ذا تجارة كبيرة وذا ثراء عظيم ، وقد بلغ من غناه ان كانت قريش تكسو الكعبة من مالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، لذا فقد اطلق عليه لقب « العِدْل » . فاريد بذلك انه وحده يعادلهم جميعا .

عينه النبي محمد (ص) عاملا على الجند ومخالفها في اليمن وبقى فيها حتى خلافة عثمان .

وقد ولد لعبدالله ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب ، فسماه عمر .
لذا فقد قيل : « اي حق رفع . . . واي باطل وضع ؟! » .

نشأ شاعرا عمر في بيت بلغ من الغنى والجاه العريض ذروته ، فترعرع وهو يتقلب في بحبوحة من العيش الرغيد يحف به الخدم والحشم والدايات ، يسكن القصور التي تضم بين جدرانها وسائل الترف كاملة ، ويلبس البرود اليمانية الغالية ، ويمتطي العتاق من الخيل وقد زينت بانواع الحلى من الفضة والذهب ، ويسير في كوكبة من عبيده واتباعه .

وكان عمر فتى وسيم الطلعة جميل المحيا ، يرجل لفته ، ويتعطر بانفس العطور . لذا فلم يكن له عمل سوى اغتراف جامات اللهو والمتعة وكرعها مترعة ، خصوصا وكانت بيئة الحجاز والمدينة خاصة مليئة بالترف

وجامعة اسباب اللهو من جمال وغناء وغزل وفكاهة • وكان مطمح انظار
الغانيات اللواتي كن يشتقن اليه قبل اشتياقه اليهن ، ويعجبن به قبل اعجابه
بهن ، لهذا فقد اتجه اتجاها في غزله جعل من نفسه محورا لتلك المغامرات
كما قال :-

لقد ارسلت جاريتي وقلت لها خذي حذرك
وقولي في ملاطفة لزينب نولي عمرك
فهزت رأسها عجبا وقالت من بدا امرك
اهذا سحرك النسوا ن قد خبرتني خبرك
وقلن : اذا قضى وطرا وادرك حاجة هجرك

وكما قال :-

تصابي القلب وادكرا صباه ولم يكن ظهرا
لزينب اذ تجد لنا صفاء لم يكن كدرا
اليسيت بالتي قالت لمولاة لها ظهرا
أشيري بالسلام له اذا هو نحونا خطرا

*

والغزل في الشعر الاموي على نوعين : العذري ، والاباحي • اما الغزل
العذري فقد حمل لواءه شعراء البداوة ، يعشق الرجل منهم امرأة بعينها
فتمتلك عليه نواحي نفسه وتسلبه له ، فتنفجر عواطفه المنتهبة
اشعارا في وصف حبيبته والتشبيب بها • وهذا الشعر يتسم بحرارة الوجدان
وطهارة اللسان والابتعاد عن ذكر خلوة او افحاش في وصف • وكان جميل
وقيس بن الملوح زعيمى هذه الطبقة ، فشد الاول بذكر بشينة وتعنى الثاني
باسم ليلي • واليكم مقطوعة لجميل ويلاحظ منها قناعته بالنظرة العجلى من
حبيبة قلبه مرة في العام ، ولا يمنى نفسه باكثر من ذلك • قال :-
واني لأرضى من بشينة بالذي لو ابصره الواشي لقرت بلابله

بلا ، وبالألا استطيع وبالمنى
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أوأخره لا نلتقى واوائله



اما الغزل الاباحى فى العهد الاموى ، وهو غزل الحضارة ، فقد حمل
رايته زعيم الغزلين عمر بن ابى ربيعة • فحياة الترف والنعيم التى عاشها ،
وخلو حياته من مشاغل الدنيا ، وغناه عن التكسب بشعره جعلته ينغمس
حتى الذقن بحياة اللهو والمرح فخضع للجمال ، وبعبدالجمال ، ووقف
حياته للتغنى بالجمال واصحابه ، واسر فؤاده كل جميل • (قيل) كان
عمر يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال له : واين زين المواكب ؟
(وعنى بذلك ابنه محمد بن عروة ، وكان يسمى بذلك لجماله) ، فقال
عروة : هو أمامك • فركض عمر يطلبه ، فقال له عروة : يا ابا الخطاب
أو لسنا اكفاء كراما لمحادثتك ومسايرتك ؟ فقال عمر : بلى بأبى انت وامى ،
ولكن :

انى امرؤ مولع بالحسن اتبعه لاحظ لي منه الا لذة النظر

(وقال) اسحاق ، حدثني مصعب بن عروة بن الزبير ، قال : خرجت
انا واخى عثمان الى مكة معتمرين ، فلما طفنا بالبيت مضيئا الى الحجر
نصلى عنده ، فاذا شيخ قد فرّج بينى وبين أخى ، فاوسعنا له ، فلما قضى
صلاته اقبل علينا فقال : من انتما ؟ فاخبرناه ، فرحب بنا وقال : يا ابني
أخى - انى امرؤ موكل بالجمال اتبعه ، وانى رأيتكما فراقني حسنكما
وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل ان تندما عليه ، ثم نهض وانصرف •
فسألنا عنه فاذا هو عمر بن ربيعة •

ولقد استباح عمر ومن هم من طبقته من الشعراء الغزلين الحضاريين
ما لم يستبحه اصحاب الغزل العذري • فالتشيب بها عندهم غير واحدة ،

بل عديدات • فللساعر في كل يوم غزوة ، وفي كل يوم نزوة ، فيصف مغامراته وخلواته بهن ، بل لقد يبرز محبوبته محبة ، ومعشوقته عاشقة ، فهي تراسله وتستزيره وتحال لمصيره • ولم يكن العرب يعرفون هذا النوع من الغزل سابقا ، لذا فقد حملوا عمر لواءه ، وجعلوه زعيم كل من اتبع خطاه في هذا السبيل من الشعراء • وقد ساعده نسبه ونسبه وشبابه وترفه على ان يقول في ذلك ما لم يجروا احد على قوله • فسلك مسلك القصص : يصف النساء وتزاورهن واحاديثهن ومداعبة بعضهن البعض الآخر • ويروى مجالسته اياهن ، واشباع نهم نفسه من محاسنهن ومفاتهن ، وارواء ظمأ روحه بمواصلتهن ومحادثتهن • فهو يتنقل من الشريا بنت علي ، الى عائشة بنت طلحة ، الى سكينه ، فزينب ، ونعم ، وفاطمة بنت عبدالمك ، ورملة ، ولبابه ، والرباب ، وهند ، واسماء • كل ذلك بلفظ رشيق واسلوب عذب مبتكر ، فبهر الناس ، واولع به المغنون ، وشغف به الندمان والقيان ، وهام اعجابا بشعره القيان والشبان ، حتى ضج الغيارى والزهاد ، فقال ابن جرير : « ما دخل الغواني في خدورهن اضر عليهن من شعر ابن ابي ربيعة • • »

ويقال ان جريرا والفرزدق وغيرهما من فحول الشعراء لم يابها في بادىء الامر بشعر ابن ابي ربيعة ، وقد يكون السبب ابتعاده عن الشعراء ولم يكن له معهم حديث طويل ، وليس له بهم اجتماع في سوق او عند امير ، انما كان مجلسه يضم المعجبين بشعره من المغنين ، والفتيان الناشئين على نهجه في التدله بالجمال والغرام لربات الحجال • ولكن جريرا لما سمع رائيته التي مطلعها :-

أمن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غدام رائح فمهجرج

اعجب بها كل الاعجاب وقال : « ما زال هذا القرشي يهذى حتى قال الشاعر ! وقال الفرزدق في شعر عمر « هذا والله الذي ارادته الشعراء

فأخطأته وتعللت بوصف الاطلال والديار ! .. »

ولقد وصف مصعب بن عبدالله الزبيري شعر عمر بما يأتي :-

« راق عمر بن ابي ربيعة الناس ، وفاق نظراءه ، وبرعهم بسهولة
الشعر ، وشدة الاسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ،
والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وانطاق القلب ، وحسن العراء ،
ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، واثبات الحجّة ، وطلاوة
الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ... وكان بعد هذا كله فصيحاً .
فمن سهولة شعره وشدة أسره قوله :-

فلما توافينا وسلمت اشرفت وجوه زهاها الحسن ان تتقنا
تبالهن بالعرفان لما رأيتني وقلن : امرؤ باغ أكل واوضعا
ومن حسن وصفه قوله :-

لها من الريم عيناه وستته وعزة السابق المختال اذ سهلا
ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :-

عوجا نحى الطلل المحولا والربع من اسماء والمنزلا
بسايف البوابة لم يعدّه تقادم العهد بان يؤهلا
ومن انطاقه القلب قوله :

قال لي عتيق مقالا فجرت مما يقول الدموع
قال لي اودع سلمى ودعها فأجاب القلب : لا أستطيع .. »

وقال مصعب : « ان لشعر عمر لموقعا في القلب ، ومخالطة للنفس
ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحرا » .

* * *

ويفهم مما تقدم ان عمر لم يتطرق الى ابواب الشعر الاخرى غير
 الغزل الا لما • وتكاد لا تجد في ديوانه اية قصيدة تخلو من التغزل
 بالنسوان والتشبيب بهن • • فلقد اقتصر شعره على غرض واحد هو
 النسيب ، كما اقتصر شعر قيس بن الملوح على الغزل بليلي • ولم يعرف
 العصر الاموي كله شاعرا اجاد بوصف المرأة جملة وتفصيلا كما فعل
 عمر بن ابي ربيعة ، ولم يخطيء نصيب حين قال : « لعمر بن ابي ربيعة
 اوصفنا لربات الحجال » •

ولم يكن حب عمر عذريا ، بل كان حسيا ، وانه « يلتمس الحب
 في الارض لا في السماء » كما قال فيه عميد الادب العربي طه حسين •
 قال عمر في « الثريا » التي كان يتعشقها :-

ابرزوها مثل المهاة تهادي	بين خمس كواعب اتراب
وهي مكنونة تحير منها	في اديم الخدين ماء الشباب
دمية عند راهب ذي اجتهاد	صوروها في جانب المحراب
ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا	عدد النجم والحصى والتراب
اذكرتني من بهجة الشمس لما	طلعت من دجنة وسحاب
فارحنت من حسن خلق عميم	تتهادي في مشيها كالجباب
غصبتني مجاجة المسك عقلي	فسلوها ماذا أحل اغتصابي
قلدوها من القرنفل والدر	ر سخابا واهأ له من سخاب
وقال في نعم :-	

امن آل نعم انت عاد فمبكر	غداة غد ام رائح فمهجر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها	فتبلغ عذرا ، والمقالة تعذر
اهيم الى نعم : فلا الشمل جامع	ولا الجبل موصول ، ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم - ان دنت - لك نافع	ولا نأياها يسلي ، ولا انت تصبر

نهى ذا النهى لو يرعوى او يفكر
 لها كلما لاقيتها يتمر
 يسر لي الشحاء ، والبغض يظهر
 يشهر المامي بها وينكر
 بمدفع اكان : أهذا المشهر ؟
 اهذا المغيرى الذي كان يذكر ؟
 وعيشك انساه الى يوم أقبر ؟
 سرى الليل يحى نصه والتهجى
 عن العهد ، والانسان قد يتغير
 فيضحى ، واما بالعشى فيخصر
 به فلوات ؟ فهو أشعث أغبر
 سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
 وريان ملتف الحدائق اخضر
 فليست لشيء آخر الليل تسهر
 وقد يجشم الهول المحب المغرر
 احاذر منهم من يطوف وانظر
 ولي مجلس ، لولا اللبانة ، او عر
 لطارق ليل او لمن جاء معور^(١)
 وكيف لما آتى من الامر مصدر ؟
 لها ، وهوى النفس الذي كاد يظهر^(٢)

واحرى اتت من يور نعم ، ومثلها
 اذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة
 عزيز عليه ان ألم بيتهما
 الكنى اليها بالسلام فانه
 بآية ما قالت غداة لقيتها
 قفى فانظري - اسماء - هل تعرفينه
 اهذا الذي اطريت نعنا فلم اكن
 نقالت : نعم لا شك غير لونه
 لمن كان اياه لقد حال بعدنا
 رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت
 اخاسفر ، جواب ارض ، تقاذفت
 قليل على ظهر المطية ظله
 واعجبها من عيشها ظل غرفة
 ووال كفاهها كل شيء يههما
 وليلة ذى دوران جشمى السرى
 فبت رقيبا للرفاق على شفا
 اليهم منى يستمكن النوم منهم
 وباتت قلوصى بالعراء ورحلها
 وبت اناجى النفس اين خباؤها
 فدل عليها القلب ريبا عرفتها

(١) القلوص : الناقة الشابة • المعور : مكشوف ظاهر •

(٢) الريا : الرائحة الطيبة •

فلما فقدت الصوت منهم واطفئت
وغاب قمير كنت اهوى غيوبه
وخفّض عني الصوت اقبلت مشية ال
نحييت اذ فاجأتها ، فتولعت ،
وقالت وعضت بالبنان : فضحتني
اريتك اذ هنا عليك الم تخف
فوالله ما ادري : اتعجيل حاجة
فقلت لها : بل قاذني الشوق والهوى
نقالت وقد لانت وأفرّخ روعها :
فانت ابا الخطاب ، غير مدافع ،
فبت قرير العين ، اعطيت حاجتي
نيا لك من ليل تقاصر طوله
ويا لك من ملهى هناك ومجلس
يجع ذكى المسك منها مقبل
تراه اذا ما افر عنه كأنه
وترنو بعينها الى كما رنا
فلما تقضى الليل الاقله
اشارت بان الحي قد حان منهم

مصايح شبت بالعشاء وانور^(٣)
ورواح رعيان ، ونوم سمر
حباب ، وشخصى خشية الحي ازور
وكادت بمخفوض التحية تجهر
وانت امرؤ ميسور امرك اعسر
وقيت ، وحولي من عدوك حُضّر؟
سرت بك ام قد نام من كنت تحذر؟
اليك ، وما نفس من الناس تشعر
كلاك بحفظ ربك المتكبر^(٤)
علي امير ما مكث مؤمّر
اقبل فاهما في الخلاء فاكسر
وما كان ليلى قبل ذلك يقصر
لنا لم يكدره علينا مكدر
نقى الثنايا ذو غروب مؤشر
حصى برد او اقحوان منور
الى ظبية وسط الجميلة جوذر^(٥)
وكادت توالي نجمه تتغور^(٦)
هبوب ، ولكن موعد منك عزور^(٧)

(٣) الانور : جمع نار .

(٤) افرخ روعها : زال خوفها .

(٥) ترنو : تنظر . الخميطة : الشجر الكثيف . الجوذر : ولد البقرة

الوحشية .

(٦) تتغور : تغيب .

(٧) عزور : موقع قرب مكة المكرمة .

فما راعني الا مناد : ترحلوا
 فلما رأته من قد تنبه منهم
 نقلت : اباديهم ، فاما افوتهم
 نقلت : اتحقيقا لما قال كاشح
 فان كان ما لا بد منه فغيره
 أقصُ على اختى بدء حديثنا
 لعلهما ان تطلبا لك مخرجا
 فقامت كئيبا ليس في وجهها دم
 فقامت اليها حرتان عليهما
 فقالت لاختيها : اعينا على فتى
 فاقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قلتما :
 فقالت لها الصغرى : سأعطيه مطرفي
 يقوم نيمشي بيننا متكرا
 فكان مجتبي دون ان كنت اتقي
 فلما اجزنا ساحة الحي قلن لي :
 وقلن : أهذا دأبك الدهر سادرا ؟
 اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
 وقال ايضا في هند :-

قل للمديحة قد أبلتني الذكْرُ
 فالدمع كل صباح فيك يتبدر

(٨) الكاعب : الجارية التي كعب ثديها ونهد . المعصر : الجارية
 المراهقة .

فليت قلبي وفيه من تعلقكم
ما ليس عندي له عدل ولا خطر

افاق اذ بخلت هند وما بذلت
ما كنت آمله منها وانتظر

وقد حذرت النوى ني قرب دارهم
فيعيل صبري ولم ينفعني الحذر

قد قلت اذ لم تكن للقلب ناهية
عنها تسلي ، ولا للقلب مزدجر :

يا ليتني مت اذ لم ألق من كلفني
مفرحاً وشآني نحوها النظر^(٩)

وشاقي موقف بالمروتين لها
والشوق يحدثه للعاشق انكر

وقولها لفتاة غير فاحشة :
ارائح ممسياً أم باكر عمر ؟

الله جار له اما اقام بنا
وفي الرحيل اذا ما ضمه السفر

نجت امشي ، ولم يغف الاولي سمروا
وصاحبي هندواني به أثر

فلم يرعها وقد نضت مجاسدها
الا سواد وراء البيت يستتر^(١٠)

(٩) الكلف : الحب . شآني غلبنني وقهرني .
(١٠) نضت : نزعت . مجاسدها : قمصانها التي تلي الجسد .

فلطمت وجهها واستتبتت معها
 بيضاء آنسة من شأنها الخصر
 ما باله حين يأتي ، اخت ، منزلنا
 وقد رأى كثرة الاعداء اذ حضروا
 لَشِقْوَةَ من شقائي ، اخت ، غفلتنا
 وشؤم جدّي ، وحين ساقه القدر (١١)
 قالت : اردت بدا عمدا فضيحتنا
 وصرم جبلي وتحقيق الذي ذكروا
 هلاّ دست رسولا منك يعلمني
 ولم تعجل الى ان يسقط القمر
 فقلت : داع دعا قلبي فأرقه
 ولا يتابعني فيكم فينجزر
 فبت أسقى عتيق الخمر خالطه
 شهد مشار ومسك خالص ذفير
 وغبر الهند والكافور خالطه
 قرنفل فوق رقراق له أشر
 فبت الثمها طورا ، ويمنعني
 اذا تمايل عنه البرد والخصر
 حتى اذا الليل ولّى قالتا زمرا
 قوما بعشكما قد نور السحر

(١١) الحين : الهلاك .

نقمت امشي ، وقامت وهي فاترة
كشارب الخمر بطًا مشيه السكر
يسجن خلفي ذيول الخز آونة
وناعم العصب كيلا يعرف الاثر
وقال ايضاً : -

راح صجبي ، ولم أحيّ النوارا
وقليل لو عرجوا ان تزارا
ثم اما يسرون من آخر الي
ل ، واما يعجلون ابتكارا (١٢)
ولقد قلت حضرة البين اذ جا
دّ رحيل" وخفت ان اسنطارا
لخيل يهوى هواناً موات
كان لي عند مثلها نظارا (١٣)
يا خليل' اربعن' علي' ، وعينا
ي من الحزن تهملان ابتدارا
ها هنا فاحبس البعيرين ، واحذر
زائدات العيون ان تستتارا
انسي زائر قريبة ، قد يع
لم ربي ان لا اطيع اصطبارا

(١٢) يعجلون ابتكارا : يسرون مبكرين .

(١٣) موات : مسعف ومساعد .

قال : فافعل ، لا يمنعنك مكاني
من حديث تقضى به الاوطارا
والتمس ناصحاً قريباً من الور
د ، يحس الحديث والاخبارا
فبعثنا مجرباً ، ساكن الري
ح ، خفيفاً ، معاوداً ، يطارا
فأتاها ، فقال : ميعادك السر
ح اذا الليل سدل الاستارا
فكمينا حتى اذا فقد الصو
ت دجاً المظلم البهيم فجارا^(١٤)
قلت لما بدت لصحبي : اني
ارتجى عندها لديني يسارا
ثم اقبلت رافع الذيل اخفي ال
سوطاً ، اخشى العيون والنظارا
فالتقينا فرحبت حين سلم
ت وكفت دمعاً من العين مارا^(١٥)
ثم قالت عند العتاب : رأينا
فيك عنا تجلدا وازورارا
قلت : كلا ، لاه ابن عمك ، بل خف
نا أمورا كنا بها اغمارا

(١٤) كميناً : استترنا .

(١٥) كفت : منعت وحبست . مار الدمع : اضطرب في العين .

فجعلنا الصدود ، لما خشينا
قاله الناس ، بيننا استارا
وركبنا حالاً لنكذب عنا
قول من كان بالبنان اشارا
واقصرت الحديث دون الذي قد
كان من قبل يعلم الاسرارا
ليس كالعهد اذ عهدت ، ولكن
أوقد الناس بالاخاديت نارا
ما ابالي ، اذا النوى قربتكم
فدنوتم ، من حلّ او كان سارا
فالليالي اذا نأيت طـووال
واراها ، اذا دنوت ، قصارا
فعرفت القبول منها لعذرى
اذ رأيتي منها اريد اعتذارا
ثم قالت وسامحت بعد منع
وارتسي كفاً تزين السوارا
فتناولتها فمالت كفضن
حركه ريح عليه فخارا
واذاقت بعد العلاج لذيذا
كجنى النحل شاب صرفاً عقارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو
في معنى بها صبوب شيعارا

واشتكت شدة الأزار من البه
ر ، والقت عنها لدى الخمارا

حبذا رجعتها اليها يديها
في يدي درعها تحل الأزارا

ثم قالت وبان ضوء من الص
بح منيراً للناظرين انارا :

يا ابن عمي فدتك نفسي ؛ اني
اتقي كاشحا اذا قال جبارا

وقال ايضا :-

الا يا هند قد زودت قلبي
جوى حزنٍ تضمه الضمير

اذا ما غبت كاد اليك قلبي ،
فدتك النفس ، من شوق يطير

يطول اليوم فيه لا اراكم
ويومي عند رؤيتكم قصير

وقد افرحت بالهجران قلبي
وهجرك ، فاعلمي ، امر كبير

فديتك اطلقني حبلني وجودي
فان الله ذو عفو وغفور

كان عمر يعتبر المرأة انسانة كالرجل لها عواطفها ولها غرائزها
ولها انفعالاتها ، ويتصورها مكملة للرجل وان جنسها هو النصف الثاني
للمجتمعات البشرية . كان يقدر في المرأة انوثتها ويعبد جمالها ويشدو

بفتتها وبهائها • وكان كل شيء في حياة عمر وسيلة الى الاتصال بالمرأة
 ووصف محاسنها والتحدث اليها ، فهو عنده وسيلة من تلك الوسائل اذ
 ينتهز عمر الفرص في مواسم الحج للترين والظهور باجمل صورة ،
 فيلاقي قوافل الحجاج وهي في طريقها الى مكة ويتلمس النساء ويتبينهن
 حتى اذا وصلت القوافل الى مكة المكرمة كانت عند عمر معلومات وافية
 عن اولئك اللائي يستهدف الحصول منهن على لقاء او حديث • وكان
 له رسل يبثهم او يبثهن هنا وهناك للاتصال بالغيد الحسان فيأتيه بالمواعيد
 في مكة او في منى •

ولم يكن يقتصر على واحدة بل تجد عواطفه مقسمة على العديد من
 النساء في كل موسم حج ، منهن الحجازية ومنهن الشامية ومنهن العراقية •
 وفي انتهاء موسم الحج يشيطن الواحدة بعد الاخرى • وكلما شيع احداهن
 قال فيها قصيدة لا تلبث ان تقع بايدي المغنين •

ولقد نظم القصيدة التالية في امرأة من ولد الاشعث بن قيس حجّت
 فهويها وراسلها ودخل اليها وتحدث معها وخطبها ، نقلت : اما ههنا فلا
 سبيل الى ذلك ، ولكن ان قدمت الى بلدي خاطبا تزوجتك ، فلم يفعل •

تَشَطُّ غَدًا دَارَ جِيرَانِنَا

وللدار بعد غد ابعده (١٦)

اذا سلكت غمرذي كندة

مع الركب قصد لها الفرفد

وحث الحداة بها عيرها

سراعاً اذا ما ونت تطرد (١٧)

(١٦) تشط : تبعه •

(١٧) حث : ساق • العير : الابل • ونت : فطرت •

هنالك اما تعزى الفؤا
د ، واما على اثرهم تكمد
فلمست بيدع لئن دارها
نأت فالعزاء اذن اجلسد
صرمت وواصلت حتى عرف
ت اين المصادر والمورد
دعاني من بعد شيب القذا
ل ريم له عنق اغسيد^(١٨)
وعين تصابي وتدعو الفتى
لما تركه للفتى ارشد
فلك التي شيعتها الفتاة
الى الخدر قلبي بها مقصد
تقول وقد جد من بينها
غداة غد عاجل موفد
الست مشيعنا ليلة
تقضى اللبانة او تعهد؟
فقلت : بلى ، قل عندي لكم
كلال المطي اذا تجهد
فعودي اليها ، فقولي ،
مساء غد لكم موعد

(١٨) القذال : مؤخرة الرأس *

وأية ذلك ان تسمعي
الينا دليلا بنا يقصد
فلما دنونا لجرس النباح
اذا الضوء والحي لم يرقدوا
ناينا عن الحي حتى اذا
تودع من نارها الموقد
وناموا ؟ بعثنا لها ناشدا
وفي الحي بغية من ينشد
فقامت ، فقلت : بدت صورة
من الشمس شيعها الاسعد
فجاءت تهادي على رقبة
من الخوف احشاؤها تُرعد
وكفت سوابق من عبرة
على الخد جال بها الأمد
تقول وتظهر وجدا بنا
ووجدى لو اظهرت أو جد
لما شقائي تعلقكم
وقد كان لي عندكم مقعد
عراقية وتهامي الهوى
يغور بمكة او ينجد

وقال ايضاً :

يا مَنْ لقلب مقيم كلف

يهدي بخود مريضة النظر^(١٩)

تمشي الهوينا اذا مشت قطنا

وهي كمثل العسلوج في الشجر^(٢٠)

ما زال طرفي يحار اذ برزت

حتى رأيت النقصان في بصري

ابصرتها ليلة ونسوتها

يمشين بين المقام والحجر

ما ان طمعنا بها ولا طمعت

حتى التقينا ليلا على قدر

بيضاً حسانا خرائدا قُطُفَاً

يمشين هونا كمشية البقر^(٢١)

قد فزن بالحسن والجمال معاً

وفزن رسلاً بالذلّ والخفر

يُنصِتِن يوماً لها اذا نطقت

كما يشرّفنها على البشر

قالت لترب لها تحدثها :

لتفسدن الطواف في عمر

(١٩) متيم : المغرم العاشق . الخود : المرأة الناعمة .

(٢٠) العسلوج : الغصن الذي الاخضر .

(٢١) الخرائد : الباكرات اللواتي لم يطمئن . القطف : ذوات السير

البطيء .

قومي تصدى له ليعرفنا
ثم اغمزيه يا اخت في خصر
قالت لها : قد غمزته فأبى
ثم اسبطرت تسعى على ائرى
مَنْ يُسَقِّعُ بعد المنام ريقها
يُسَقِّعُ بكأس ذي لذة خَصِرِ

ومما تقدم من شعر يظهر مدة تأثر النساء والعيد الفاتنات بهذه
الحركة الغزلية ففتن بها ، وحرّضن عليها ، واجتهدن في تقويتها
وتذكية نازها ، وتبارين لكسب الحظوة عند الشعراء الغزلين وعلى رأسهم
عمر بن ابي ربيعة واغرائهم للتشبيب بهن .

اجتمع يوماً جميل وعمر بالابطح ، فاشد جميل قصيدته التي يقول
فيها :

لقد فرح الواشون ان صرمت حبل
بشنة او أبدت لنا جانب البخل
ثم قال لعمر : هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال : نعم ، قال : فانشديه .
فانشده قوله :

جرى ناصح بالود بيني وبينها
فقرّني يوم الحصاب الى قتلي

نطازت بحد من فؤادي ونازعت
قريبها حبل الصفاء الى حبلي
فما أنسَ ملاء شياء لا أنسَ موقفي ،
وموقفها وهناً بقارعة النخل

فلما توافقنا عرفت الذي بها
كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

فعاجت بامثال الطباء نواعم
الى موقف بين الحججون الى النخل

فقلت لا تراب لها شبه الدمي :
أطلنّ التمني والوقوف على شغل

وقالت لهنّ : أرجعن شيئاً لعنا
نعاتب هذا او يراجع في وصل

فقلن لها : هذا عشاء ، واهلنا
قريب ، ألمّا تسامى مركب البغل ؟

فقلت : فما شئنّ ؟ قلن لها : انزلي
فللارض خير من وقوف على رحل

وقمن اليها كالدمى فاكتفنها
وكلّ "يُقَدّي بالمودة والاهل

نجوم" درارى" تكتفن صورة
من البدر وافت غير هوج ولا نكل

فسلمت واستأنست خيفة ان يرى
عدو مكاني او يرى كاشح فعلي

فقلت ، وارخت جانب الستر : انما سا : ربتا ٤٦ (٦٦)

معي فتحدثت لي بقا ردي في رقيقة (أهلي) (٢٢)

مجالاً قنيتلا قنيتمسا ربتا

مسا • قبلها رشتلشعا : كالحا (٥٦)

(٢٢) الرقبة : الحذر • بدلنا : رافعا • بدلنا : ديقا • بدلنا

نقلت لها : ما بي لهم من ترقبٍ
ولكن سري ليس يحمله مثلي

فلما اقتصرنا دونهن حديثنا
وهن طبيبات بحاجة ذي التبيل (٢٣)

عرفن الذي تهوى ، فقلن لها : أئذني
نطف ساعة في طيب ليل وفي سهل

نقلت : فلا تلبثن ، قلن : تحدثي
اتيناك ، وانسبن انسياب مها الرمل

نقمن ، وقد افهمن ذا اللب انما
فعلن الذي يفعلن ني ذاك من اجلي

وباتت تمج المسك في عيادة
بعيدة مهوى القرط صامته الحجبل (٢٤)

تقلب عيني ظبية ترتعي الخلا
وتحنو على رخص الشوى اغيد طفل (٢٥)

وتفتر عن كالا قحوان بروضة
جلته الصبا والمستهل من الوابل

اهيم بها في كل ممسى ومصبح
وأكثر دعوها اذا خدرت رجلي

(٢٣) ذو التبيل : السقيم .

(٢٤) بعيدة مهوى القرط : طويلة العنق . صامته الحجبل : ذات

الرجل السميكة المكتنزة باللحم .

(٢٥) الخلا : الحشائش الرطبة . الشوى : الاطراف . الرخص :

الناعم . الاغيد : الناعم . الطفل : الناعم .

وشبب عمر بفاطمة بنت عبدالمملك بن مروان الاموي ، ومن قوله
فيها :-

ضاق الغداة بحاجتي صدري
ويُسْت بعد تقارب الامر

وذكرت فاطمة التي علقت
عَرَضاً فيا لحوادث الدهر

مكسورة رَدَعُ العبير بها
جَمُ العظام لطيفة الخصر (٢٦)

وكان فاهما عند رقدتها
تجرى عليه سلافة الخمر

لما رأيت مطيها حزقاً
خفق الفؤاد وكنت ذا صبر

وتبادرت عيناى بعدهم
وانهل مدعها على الصدر

ولقد عصيت ذوى اقاربها
طراً واهل الود والصر

حتى لقد قالوا وقد كذبوا :
أجنتت ام بك داخل السحر ؟

ولما قدمت فاطمة بنت عبدالمملك مكة جعل عمر يدور حولها ، ويقول
فيها الشعر ، ولا يذكر اسمها خوفاً من عبدالمملك ومن الحجاج : لأنه كان

(٢٦) مكسورة : ممتلئة الساق . ردع العبير : اثر الطيب . جم
العظام : كثرة اللحم . لطيفة الخصر : دقيقتة .

كتب اليه يتوعده ان ذكرها او عرض بذكرها ، فلما قضت حجها
وارتحت انشأ يقول :-

يا خليلي شفتي الذكّر
وحمول الحبي اذ صدروا

ضربوا حمر القباب لها
واديرت حولها الحجر

سلكوا شعب النقب بها
زمررا تجتثها زمر

وطرقت الحبي مكنما
ومعي غضب به أنر (٢٧)

واخ لم اخش نبوته
يتوخي امرهم خير

واذا ريم على فرش
في حجال الخنز مختدر

حوله الاحراس ترقبه
نوم من طول ما سهروا

اشبهوا القتلى وما قتلوا
ذاك الا انهم سمروا

ندعت بالويل ، ثم دعيت
حرة من شأنها الخنز

(٢٧) الغضب : السيف .

ثم قالت للتي معها :
ويح نفسي ! قد أتى عمر
ماله قد جاء يطرقنا
ويرى الأعداء قد حضروا ؟
لشقاءى كان علقنا
ولحيني ساقه القدر
قلت : عرضي دون عرضكم
ولن ناواكم الحجر

كان عمر يسرف بوصف نفسه حتى قال له ابن ابي عتيق ذات يوم :
لم تشب بها ، وانما شببت بنفسك • وقد وصفه بعض النقاد بالتيه
والغرور • ولكن المطلع على حياته وعلى شعره يتمكن من اكتشاف انه كان
يصف الواقع ولم يتعده • ونستطيع الآن ان نفهم السبب في اقتان النساء
بعمر ، وتنافسهن فيه ، وتسبقهن للاستحواذ على مودته • فان في شعر
عمر لسحرا ابن منه سحر بابل • فلقد قن عمر النساء وتيمنهن ،
ناخذن يطربنه ويتهاكن عليه ، حتى قن هو بنفسه فلم يتعن بحبه ايهن
بقدر ما تعنى بحبهن اياه وتدلهن فيه •

قال في هند :-

لا انس طول الحياة ما بقيت
لطيفة روضة لها شجر
ممشى رسول الي يخبرني
عنهم عشا بعض ما اثمروا

او مجلس النسوة الثلاث لدى ال
خيمات حتى تبلغ السحر
ثم انطلقنا وعندنا ولنا
فيهن لو طال لينا وطر
فيهن هند ، والههم ذكرتها
تلك التي لا يرى لها خطر
قباء ان اقبلت ، مبتلة
والبوص منها كالقور منعفر
غراء في غرة الشباب من ال
حور اللواتي يزينها خفر
تقرر عن بارد مقبله
مفلج واضح له اشرف
وقولها للفتاة اذ اقد ال
يين : اعد ام رائح عمر
عجلان لم يقض بعد حاجته
الا تانى يوماً فينتظر
الله جبار له اذا نزلت
دار به او بدا له سفر
رايتها مرة ونسوتها
كانها من شعاعها القمر
يمشين في الخبز والمراجل ان
يعرف آثارهن مقنفر

يُدنِين مَنْ خَشِيَةَ الْعَيُونِ عَلَى
مِثْلِ الْمَصَابِيحِ زَانِهَاتِ الْخُمُرِ

وقال في هند ايضا ، وهي من درر شعره :

أَذْنَتِ هِنْدٍ بَيْنَ مِتْكَرٍ
وَحَذَرْتُ الْبَيْنَ مِنْهَا فَاسْتَمِرُّ

ارسلت هند اليها ناصحا
بيننا إيت حيبا قد حضر

فاعلمن ان محبا زائر
حين تخفي العين عنه والبصر

قلت : أهلاً بكم من زائر
او ث القلب غناء وذكر

تأهبت لها في خفية
حين مال الليل ، واجتن القمر

بينما انظرها في مجلس
اذ رمانى الليل منها بسكر

لم يرعنى بعد اخذني هجعة
غير ريح المسك منها والقطر

قلت : من هذا ؟ فقالت هكذا :
انا من جشمته طول السهر

ما انا والحب قد ابلغني
كان هذا بقضاء وقدر

ليت اني لم اكن علقتم
 كل يوم انا منكم في عبر
 كلما توعدني تخلفني
 ثم تأتي حين تأتي بعدر
 سخت عيني لئن عدت لها
 لتمدّن بجبل منبهر
 عمرك الله ، اما ترحمني
 ام لنا قلبك اقسى من حجر
 قلت لما فرغت من قولها
 ودموعي كالجمان المنحدر
 انت يا قرة عيني فاعلمي
 عند نفسي عدل سمعي والبصر
 فاتركي عنك ملامي واعذري
 واتركي قول اخي الافك الاشر
 فأذاقتني لذيذا خلته
 ذوب نحل شيب بالماء الخصر
 ومُدام عتقت في بابل
 مثل عين الديك او خمر جدر
 فتقضت ليلتي في نعمة
 مرة الثمها غير حصر
 وأفرى مرطها عن مخطف
 ضامر الاحشاء فعم المؤتزر (٢٨)

(٢٨) فرى : استيقظ • المرط : الثوب غير المخيط او ما يؤتزر به •
 ضامر الاحشاء : دقيقة الخصر • فعم المؤتزر : ممتلئة الردفين •

فلهوننا ليلنا حتى اذا
طربَّ الديك ، وهاج المدكير
حركتسي ، ثم قالت جزعاً
ودموع العين منها تبدر :
قم صفى النفس ، لا تفضحني
قد بدا الصبح ، وذا برد السحر
فتولت في ثلاث خرد
كدمى الرهبان او عينِ البقر (٢٩)
لست انسى قولها ما هدهدت
ذات طوقٍ فوق غصن من عُشَر
حين صممت على ما كرهت
هكذا يفعل من كان غدر
وقال :-

الممّ بعفراء ان اصحابك ابتكروا
وسلهم هل لديها اليوم منظر
واها لعفراء ان دار بها قرّبت
فما ابالي لام الناس ام عذروا
وان تبين غربة عنها بها قدّفت
فما تقضى الهوى منا ولا الوطر

(٢٩) الخرد جمع خرود : وهي المرأة الحبيبة أو الباكر التي لم
تمس . العين جمع عيناء : الواسعة العينين كالبقرة .

خود" مهفهفة الاعلى ، اذا انصرفت
تكاد من ثقل الارداق تبتتر

تقتر عن ذي غروب طعمه عسل
مفلج النبت ، رفاف ، له اشرف

كان فاما اذا ما جئت طارقها
خمر بيسان او ما عتقت جذر

شجت بماء سحاب زل عن رصف
من ماء ازهر لم يخلط به كدر (٣٠)

والعبر الاكف المسحوق خالطه
والزنجبيل ورنده هاجبه السحر

حوراء ، مكورة الساقين ، بهكتة
لا عيب في خلقها طول ولا قصر

كانها الشمس وافت يوم اسعدها
او درة شوفت للبيع ، او قمر

تقول اذ ايقنت اني مفارقها :
يا ليتني مت قبل اليوم يا عمر

وقال ايضاً :-

تقول وعينها تذرني دموعاً
لها نسق على الخدين تجرى

(٣٠) هدهدت : صوتت ، نطقت *

الست اقرء من يمشي لعيني
وانت الهم في الدنيا وذكرى ؟
اما لك حاجة فيما لدينا
تكن لك عندنا حقا فادري ؟
امن سخط علي صدوت عني
حملت جنازتي ، وشهدت قبوري
اشهراً كله الا ثلاثاً
اقتت على مصارمتي وهجري
وقال :-

الا حي التي قامت على خوف تحيننا
نفاضت عبرة منها فكاد الدمع يميننا
لئن شطت بهادار عنوج بالهوى حيننا
نقد كنا نواتيها وقد كانت تواتينا
فلا قرب لها يشفي وليس البعد يسلينا
وقد قالت لتربيتها ورجع القول يعيننا :
الا يا ليت ما شعري وما قد كان يميننا
أموف بالذي قال وما قد كان يعطينا ؟
نقالت تربها : ظني به أن سوف يجزيننا
ويعصى قول من ينهي ومن يعدله فينا
كما نعصى اليه عن جد القول ناهينا
وقال :-

فلما التقينا واطمأنت بنا النوى
وغيب عنا من نخاف ونشفق

أخذتُ بكفي كَفَّها ؛ فوضعتها
على كَبَدٍ من خُشْيَةِ اليَمِّنِ تخفق

فَقالت لأترابِ لها حينَ ايقنت
بما قد الأقي : ان ذا ليس يصدق

فقلن : اتبكي عين من ليس موجعاً
كئيباً ومن هو ساهر الليل يَأرق ؟

فقلت : ارى هذا اشتياقاً ، وانما
دعا دمع ذى القلب الخلى التَشَوُّقُ ؟

فقلن : شهدنا انّ ذا ليس كاذباً
ولكنه فيما يقول مصدّق

فقمين لكي يُخليننا ، فترقرقت
مدامع عينها ، فظلت تدقّ

وقالت : اما ترحمّني تدعّني
لديه وهو فيما علمتَ اخرق

فقلن : اسكتي عا فغير مطاعة
لهو بكِ منا ، فاعلمي ذاك ، ارفق

فقلت : فلا تبرحن ذا الستر ، انني
اخاف ورب الناس منه وافرق

وقال ايضاً - ويظهر من هذه القصيدة ثورة ابن ابي ربيعة على
المألوف من القافية :-

قد صبا القلب صِباً غير دنسي
وقضى الاوطار من ام على

وقضى الاوطار منها بعدما
كادت الاوطار ان لا تنقضى
ودعاه الحين منه للتي
تقطع الغلاتِ بالذلّ البهي
فارعوى عنها بصبر بعدما
كان عنها زمناً لا يرعوى
كلما قلت تناسى ذكرها
راجع القلب الذي كان نسي

فلها وارتاح للخود التي
تيمت قلبي بندى طعم شهى
ببارد الطعم شتيت نبتة
كالاقاحي ناعم النبت ثيرى
واضح عذب اذا ما ابسمت
لاح لوح البرق في وسط الحبي
طيب الريق اذا ما ذقته
قلت ثلج شيب بالمسك الذكى
وبطرف خلته حين بدت
طرف ام الخشف في عرف ندى
وبفرع قد تدلى فاحم
كدلى قنو نخل المجتنى
وبوجه حسن صورته
واضح السنة ذي ثغر نقي

وبجيد اغيد زيننه
 خالص الدر ويقوت بهي
 ولها نبي القلب مني لوعة
 كل حين هي في القلب تجي
 من يكن امسى خلياً من هوى
 فـؤادي ليس منها بخلي
 او يكن امسى تقياً قلبه
 فلعمري ان قلبي لغوي

وقال :-

ليت شعري هل اذ وقد	ن رُضاباً من حبيب
طيب الريقة والنك	هة كالراح القطيب ^(٣١)
واضح اللبّة والسنة	ة كالظبي الريب ^(٣٢)
مُخَطَف الكشحين عارى الـ	صلب ذي دل عجب
مُشَبَّع الخلد والقلد	بين صياد القلوب
قد سبتني شتيت النـ	بت في سقط كيب ^(٣٣)
جبذا ذلك غزالا	قد شفى قرح ندوبي
وجـزاني بهوائي	وتاني في المغيب
ولقد اشفت من حب	كم افضى نجيبى
ان قلبي فاعلميه	كل يوم في وجيب^(٣٤)

- (٣١) الراح القطيب : الخمر المزوج
 (٣٢) اللبّة : العنق • السنة : الوجه
 (٣٣) سبتني : اوقعتني في هواها • شتيت النبات : الفم ذو الاسنان
 المتفرقة
 (٣٤) الوجيب : الخفقان والاضطراب

كيف صبري عن فتاه احسن الناس ، لعوب
صلت الخدين خود خلطت حسناً بطيب (٣٥)

وقال :-

طال ليلي وتغاني الطرب
واعتراني طول همي بنصب

ارسلت أسماء في معتبة
عتبتها وهي اهوى من عتب

فاجابت رقتي فابسمت
عن شئت اللون صاف كالثعب (٣٦)

ان اتى منها رسول موهناً
وجد الحي نياماً فانقلب (٣٧)

ضرب الباب فلم يشعر به
احد يفتح منه اذ ضرب

فاتاها بحديث غاظها
شبه القول عليها وكذب

قال : أيقاظ ، ولكن حاجة
عرضت تكتم عنا فاحتجب

ولعمداً ردني ، فاجتهدت
يمين حلفة عند الغضب

(٣٥) صلته الخدين : ذات خدين أملسين براقين .

(٣٦) الثعب : الماء الصافي .

(٣٧) موهناً : بعد منتصف الليل . انقلب : رجع .

أشهد الرحمن لا يجمعنا
سقف بيت رجباً حتى رجب

قلتُ : حِلاً ، فأقبلي معذرتي
ما كذا يجزي محب من احب

ان كفى لك رهن بالرضا
فأقبلي يا هند ، قالت : قد وجب

فبعثنا طبّة محتالّة
تمزج الجد مراراً باللعب (٣٨)

ترفع الصوت اذا لانت لها
وتراخي عند سورات الغضب

وهي اذ ذاك عليها مئزر
ولها بيت جوارٍ من لعب (٣٩)

لم تنزل تصرفها عن رأيها
وتأناها برفقٍ وادب (٤٠)

وقال :-

ليت هذا انجزت ما تعد
وشفت انفسنا مما تجد

واستبتت مرة واحيدة
انما العاجز من لا يستبد

(٣٨) الطبّة : الحاذقة الخيرة العارفة بطرق الحيلة . (٣٧)

(٣٩) يقصد انها ما زالت صغيرة تلعب بلعب الفتيات الصغيرات .

(٤٠) تأناها : تستمهلها . (٤١) برفقته تعني : بالسهولة (٣٧)

زعموها سألت جاراتها
وتعرت ذات يوم بتبرد

أكما ينعتني تبصرتني
عمر كُنَّ الله ام لا يقتصد ؟

فتضاحكن وقد قلن لها :
حسن " في كل عين من نواد

حسداً حُمَّلنه من شأنها
وقديماً كان في اناس الحسد

عادة تفتقر عن اشئبها
حين تجلوه اقباح او برد

ولها عينان في طرفيهما
حَوْرٌ منها ، وفي الجيد غَيِّد

طَفَلَةٌ باردة القيظ اذا
مععان الصيف اضحي يتقد

سُخنة المشتي ، لحاف للفتي
تحت ليل حين يغشاه الصرد^(٤١)

ولقد اذكر اذ قيل لها
ودموعي فوق خدي تطّرد

قلت : من انت ؟ فقالت : انا من
شفه الوجد وابلاه الكمد^(٤٢)

(٤١) الصرد : شدة البرد .

(٤٢) شفه : اضناه . الوجد : شدة الحب . الكمد : الحزن .

نحن اهل الخيف من اهل مني
ما لقتول قتلناه قَوَدَ (٤٣)

قلت : اهلاً ، اتمُّ بَغِيْتُنَا
فَسَمَيْنَ ، فقالت : انا هند

انما ضلل قلبي فاجتوى
صعدة في سابري تَطَّرِد

انما اهلك جيران لنا
انما نحن وهم شيء احد

حدثونا انها لي نفتت
عُقْدًا ، يا حبذا تلك العقد

كلمنا قلت : متى ميعادنا ؟
ضحكت هند ، وقالت : بعد غد

وقال ايضا - وهي من غرر قصائده :-
هَيِّج القلب مغنان وصير

دارسات قد علاهن الشجر
ورباح الصيف قد ازرت بها

تسجج التراب فنونا والمطر
ظلت فيها ذات يوم واقفا

اسأل المنزل هل فيه خبر
للتّي قالت لأتراب لها

قُطِفَ فيهن أنسٌ وخفّر
اذ نَمَشَيْنَ بجوِّ مونيّق

نير النبت تعشيام الزهر

بدمك سهلة زينها
 يوم غيم لم يخالطه قتر (٤٤)
 قد خلونا فتمنين بنا
 اذ خلونا اليوم نبدي ما نسر
 فعرفن الشوق في مقلتها
 وحباب الشوق بيديه النظر
 قلن يسترضينها : منيتنا
 لو اتانا اليوم في سر عمر
 بينما يذكرنني ابصرني
 دون قيد الميل يعدو بي الاغر
 قلن : تعرفن الفتى ؟ قلن : نعم
 قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟
 ذا حبيب لم يعرج دوننا
 ساقه الحين لنا والقدر
 فاتانا حين ألقى برّكه
 جمّل الليل عليه واسبطر (٤٥)
 ورضاب المسك من اثوابه
 مرمم الماء عليه فنظر
 قد اتانا ما تمنينا ، وقد
 غيّب الأبرام عنا والقذر (٤٦)

- (٤٤) دماك : المكان اللين الرملي • القتر : الغبرة •
- (٤٥) القى الجمّل برّكه : أناخ الجمّل • اسبطر : اضطجع وامتد
- (٤٦) الأبرام جمع برم : هو الذي لا يشارك الناس في المسير •
 القذر جمع قذور : وهو الشخص الذي لا يخالط الناس لسوء خلقه •

العشق

في شعر قيس بن الملوح

ان قصة مجنون ليلى من المآسي الغرامية الفذة الكبرى ، وقد خلدتها اشعار بطلها قيس بن الملوح كما خلد شكسبير قصة روميو وجوليت •

نشأ قيس في بيت رفيع العماد في آل عامر الذين يتصل نسبهم الى كعب بن ربيعة • ويصفه الرواة انه كان مديد القامة ، حسن الهندام والمظهر ، جميل المحيا ، خفيف الروح ، بهي الطلعة •

شب وشبت معه فتاة من اجمل الناس صورة وهي قريبته ليلى بنت مهدي المعروفة بليلى العامرية • كانا في اول عهدهما يرعيان الغنم سويا بدليل قوله :

تعلقنت ليلي وهي ذات تمائم
ولم يبد للاتراب من نديها حجم

صغيرين نرعى البهم يا ليت اتنا
الى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

فترعرا في احضان الصحراء بين الصخور الجرداء والجبال السماء يتبادلان ارق العواطف ، فنمت في قلبيهما بذرة الحب العنيف الذي استولى على حواسهما وهز كيانهما طيلة حياتهما • وكان جمال قديهما قد سقى تلك البذرة وكانت خلواتهما البرية قد غذتها فنمت وترعرعت وكانت ناراً اعتلجت في قلبيهما الظمئين • فلم يكونا يشعران بذلك الرباط الوثيق الذي

كان يشد قلبيهما وروحيهما الى بعضهما حتى كبرا • فمَنع ليلي ذووها
من الخروج الى البراري للرعى •

ولكن علاقتهما لم تنفصم عند ذلك بل كان يزورها في الصباح في
بعض الزوايا او عند البئر الذي تستسقى فتيات الحي من مائه ، فيمكث
واياها حتى المساء كما قال :

نهاري نهار الناس حتى اذا بدا
لي الليل هزتني اليك المضاجع

أقضى نهاري بالحديث وبالمنى
ويجمعني بالهم والليل جامع

اذا مر يوم من حياتي ولا ارى
خيالك يا ليلي فعمري ضائع

تضيق عليّ الارض حتى كأنني
من الصبر في سجن فما انا صانع

ولما كان قيس واسع الاطلاع ملما باخبار العرب ، ولما كان متصفا
باللباقة وحلاوة الحديث فقد حظى باعجاب فاتته عندما كان يقص عليها
اخبار العرب ووقائعهم وحروبهم ويروى انباء العشاق وما اصابهم من نكد
الحياة ومرارة العيش اولئك العشاق الذين اضناهم عشقهم وهلكوا في
سبيل الغيد اللائمي سلبن الباهم وامتلكن قلوبهم • فكانت ليلي تميل الى
حديثه وتعجب به ايما اعجاب • فظنا ان الدهر سيقى الى جانبهما ، فتعاهدا
على الحب واقسما على الوفاء وانهما سيبقيان الى بعضهما حتى يفرق بينهما
المنون •

ولكنهما لم يدريا ان الليالي من الزمان حبالى منقلات يلدن كل
عجيبة ، لم يدريا ان الدهر غدار خؤون ، ولم يعلما ان الفراق معدّ لهما

قبل موعد المنون •

افاق قيس يوما من غفلته واذا بسياج سميك يفصل بينه وبين حبيبة
قلبه اذ صدرت الاوامر من ذويها بحجبها عنه ، ومنعها من رؤيته • وسبب
ذلك لما كان ينظم بها من اشعار في الغزل وانتشيب واصفا بها محاسنها
ومعبرا عن حبه لها وانتانه بها ، وكانت الالسنه تتناقل تلك الاشعار لرقتها
وعذوبتها وصدق تعبيرها عن مشاعره واحاسيسه النفسية ؛ فسارت بذكر
ليلي الركبان وهي تردد شادية ما كان يقوله بها قيس من اشعار :

شُعِفَ الفؤاد بجارة الجنب فظلمت ذا أسف وذا كرب
يا جارتني امسيت مالكة روحي وغالبة على لبي
وقال :

الا قل لمن امسيت مُضْنَى بحبها
وصارت رجاء النفس في البعد والقرب

اناخ هواها في فؤادي فصادني
ومن ذا يطيق الصبر عن مجمل الحب

فان كان ذنبي حب ليلي واهلها
فلا غفر الله المهيمن لي ذنبي

وقال :

وعارضن بالعقيان كل مفلح
به الظلم لم تقلل لهن غروب
رضاب كريح المسك يحلو متونه
من الضرب او فرح البشام قضيب

وقال :

ومفروشة الخدين وردا مضرجا
إذا خمشته العين عباد بنفسجا
شكوت إليها طول ليلي بعبرة
فأبدت لنا بالغنج دراً مفلجا
فقلت لها مني عليّ بقبله
أداوى بها قلبي فقالت تغنجا
بليتُ بردف لست اسطع حمله
يجاذب اعضائي إذا ما ترجرجا

وقال :

حلا ذكر الاحبة في فؤادي
فهمت من الغرام بكل وادي
وقد باحت بأسراري دموعي
وجفني قد جفا طيب الرقاد
وكم ناديت بين خيام ليلي
وكم في جها مثلي ينادي
أنا المُنْضِي فجودي لي بوصل
فقد زاد السقام إلى السهاد
وكم اجريت يوم البين دمعاً
على الخدين كالسحب الغوادي
فما حلّى التهتك في هواها
حماها الله من كيد الاعادي

عسى بالوصل احظى قبل موثي
وافرح باللقا بعيد البعد

وقال في ليلي ، وهي من قصائده الرشيقات :

اقول لاصحابي وقد طلبوا الصلي
تعالوا صلوا ان شتم النار من صدري

فان لهيب النار بين جوانحي
اذا ذكرت ليلي احمر من الجمر

فقالوا : نريد الماء نسقي ونستقي
فقلت : تعالوا فاستقوا الماء من نهري

فقالوا : واين النهر ؟ قلت مدامعي
سيغنيكم دمع الجفون عن الحفر

فقالوا : ولم هذا ؟ فقلت : من الهوى
فقالوا : لحاك الله . قلت : اسمعوا عذري

الم تعرفوا وجهها ليلي شعاعه
اذا برزت يغنى عن الشمس والبدر

يمر بوهمي خاطري فيؤودها
ويجرحها دون العيان لها فكري

مبجلة لوقابل البدر وجهها
لكان له فضل ميين على البدر

هلاية الاعلى ملطخة الذرا
مرجرجة السفلى مهفهفة الخصر

مُبْتَلَةٌ هيفاء مهضومة الحشا
موردة الخدين واضحة الثغر
مدملجة الساقين بض بضيضة
مفلجة الاسنان مصقولة الخمر
نقالوا : أمجنون ؟ فقلت : موسوس
اطوف بظهر اليد قفرا الى قفر
فلو ملك الموت المريح يريحني
فلا انا ذو عيش ولا انا ذو صبر
وصاحت بوشك البين منها حمامة
تغنت بليل في ذرى ناعم نضر
على دوحه يستن تحت اصولها
نواقع ماء مده رصف الصخر
مطوقة طوقا ترى في حزامها
أصول سواد مطمئن على النحر
وناحت باعلى الصوت منها فهيجت
فؤادا معننى بالمليحة لو تدري
فقلت لها : عودي • فلما ترنمت
تبادرت العينان سحاً على الصدر
كأن فؤادي حين جد مسيرها
جناح غراب رام نهضا الى الوكر
فودعتها والنار تقدح في الحشا
وتوديعها عندي أمر من الصبر

ورحت كَأني يوم راحت جمالها
سقيت دم الحيات حتى مضى عمري

أبت صريع الحب دام من الهوى
وأصبح منزوع الفؤاد عن الصدر

رمتي يد الايام عن قوس محنة
بسهمين في أعشار قلبي وفي نحري

بسهمين مسمومين من رأس شاهر
فغودرت محمر الترائب والنحر

فليلي دعنتي في الهوى متعلقا
وقد مت الا انسي لم ازر قبري

فليلي هي الدنيا ، هي القصد دائما
هي المثل الأعلى ان عاش في الدهر

فلو كنت ماء كنت من ماء مزنة
ولو كنت نوماً كنت في غفوة الفجر

ولو كنت ليلاً كنت ليل تواصل
ولو كنت نجماً كنت بدر الدجى يسرى

عليك سلام الله يا غايبة المنى
وقاتلتي حتى القيامة والحشر

وقال ايضاً وهي من غرر قصائده التي سارت بها الركبان :

انيري مكان البدر ان افل البدر
وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

فُفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالثَّغَرُ
بَلَى لَكَ نُورُ الشَّمْسِ وَالبَدْرِ كَلِّهِ
وَمَا حَمَلَتْ عَيْنُكَ شَمْسٌ وَلَا بَدْرٌ
لَكَ النُّظْرَةُ الْأَلَاءُ وَالبَدْرُ طَالِعٌ
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّرَائِبُ وَالتَّحَرُّ
وَمَنْ آوَى لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ فِي الضُّحَى
بِمَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنِ فِي طَرْفِهَا فَتَبَرُّ
وَإِنِّي لَهَا مِنْ دَلِّ لَيْلِي إِذَا انْتَشَتْ
بِعَيْنِي مَهَابَةَ الرَّمْلِ قَدْ مَسَّهَا الذُّعْرُ
وَتَبَسُّمِ لَيْلِي عَنْ ثَنَائِي كَأَنَّهَا
أَقْرَابُ بَجْرَعَاءِ الْمَرَضِيِّينَ أَوْ دَرُّ
مَنْعَمَةٍ لَوْ بَاشَرِ الذَّرَّ جَلْدَهَا
لَأَثَرَ مِنْهَا فِي مَدَارِجِهَا الذَّرَّ
إِذَا أَقْبَلْتَ تَمْشِي تَقَارِبُ خَطْوِهَا
إِلَى الْأَقْرَبِ الْأَدْنَى تَقْسِمُهَا الْبَهْرُ
مَرِيضَةٌ أَتْنَاءَ التَّعَطُّفِ إِنَّهَا
تَخَافُ عَلَى الْأَرْدَافِ يَسْلُمُهَا الْخَصْرُ
فَمَا أَمْ خَشَفَ بِالْعَقِيقِينَ تَرَعَوَى
إِلَى رَشَاءِ طِفْلِ مَفَاصِلِهَا خَدْرُ
بِمُخْضَلَّةٍ جَادِ الرِّبْعِ زَهَاءِهَا
رَهَائِمِ وَسَمَى سَحَابِهِ غَزْرُ

وقفنا على اطلال ليلي عشية
باجرع حزوى وهي طامسة دثر

يحاولها مزنان اسحج باكر
وأخر معهاد الرواح لها زجر

وجاد على روض الخزامى نسيمها
وانوارها فاخضوضل الورق الخضصر

وما أجمل تعبيره واروعه في تشبيهه ليلي بالشمس وبالبدر وتفضيله اياها
عليهما اذ من أين لهما دلال ليلي اذا اثنت ، ومن اين لهما ثغرها الجميل
اذا تبسمت ، ومن اين لهما عيناها الجميلتان الكحيلتان اللتان فيهما فتر ،
ومن اين لهما مثل تلك الترائب وذلك النحر ؟ وبالاضافة الى ذلك ففي
محيا ليلي ضوء الشمس الساطع ونور البدر الطالع ، فهي تستحق اذن ان
تقوم مقام البدر ان انل البدر ، وان تقوم مقام الشمس ما استأخر الفجر .

هذا واوجز قيس رغبات نفسه في المقطوعة التالية ، وهو يتمنى ان
تكون ليلي رفيقته حتى الى القبر ، وفي المقطوعة ما فيها من رقة في اللفظ
واناقة في المعنى وسمو في التعبير :

الا ليتنا كنا غزالين نرتعى
رياضا من الجوزان في بلد قفر

ويا ليتنا كنا حمامى مفازة
نطير وناوى بالعشى الى وكر

الا ليتنا حوتان في البدر نرتمي
اذا نحن امسنا نلجج في البحر

ويا ليتنا كنا جميعا وليتنا
نصير اذا متنا ضجيعين في القبر

ضجيعين في قبر عن الناس معزلا
وتقرن يوم البعث والحشر والنشر
وقال أيضا :

ان الطباء التي في الدور تعجيني
تلك الطباء التي لا تأكل اشجرا
لهن اعناق غزلان واعينها
وهن احسن من اشكالها - وورا
ولي فؤاد يكاد الشوق يصرعه
اذا تذكرت من مكتومه اثرا

وكان في حي ليلي امرأة من بني عامر قد تزوجها رجل من حريش
مات عنها ، فكان يأتيها قيس يتعرف منها على أخبار ليلي ، وكانت تلك المرأة
توصل أخباره الى ليلي وأخبار ليلي اليه . فلما بلغ أهل ليلي ذلك زجروا
المرأة وتوعدها . فآخبرت قيسا بذلك ، فأشدد متملا بيت امرىء القيس
وضم اليه بيتا ثانيا :

اجارتنا انا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

فلا تزجريني عنك خيفة كاشح
اذا قال شرا أو أخيف ليب
وقيل ان ليلي امتحنته ذات يوم وكان قد اتاها وعندها فتى من قومها ،
فتغاضت عنه ، واقبلت على ذلك الفتى تحادثه ، فرأته قد تغير حتى كادت
تصرعه الغيرة ، فأشددت :

كلانا مظهر للناس بغضا وکل عند صاحبه مكين
واسرار الملاحظ ليس تخفى وحبك في فؤادي لا يبين

وكيف يفوت هذا الناس شيء وما في الناس تظهره العيون

فلما سمع ذلك تهلل وجهه وشرح صدره وانشد :

احبك حبا لو تحيين مثله اصلك من وجد علي جنون
شديد على الاحشاء اما نهاره نحرزن واما ليله فأنين

ولم يمتنع قيس عن المجيء الى حي ليلى تحت أجنحة الظلام في
الليالي الليلية ، ولم يزدجر عن التغزل والتشبيب بها . وقد اشتهر ذلك
الامر ، وشاع ذكره بين العرب ، فشكا اهل ليلى الى الخليفة مروان بن
الحكم ملتجئين منه منع قيس من المجيء الى حيهم والتشبيب بابتهم ، فكتب
الى عامله في المدينة بهدر دمه اذا وجدوه في حي ليلى . ولما بلغ قيسا هذا
الأمر تكدر عيشه واخرج الايات التالية نفثة حرى من قلب متعذب مكلوم .

لئن حُجِبَتْ ليلى وآلى اميرها

على يميننا جاهدا لا ازورها

واوعدني فيها رجال ابوهم

ابي وابوها خشنت لي صدورها

على غير شيء غير اني احبها

وان فؤادي عند ليلى سميها

وأنى اذا حنت الى الالف فهنا

هنا بفؤادي حيث حنت سحورها

ولما رأى ابو قيس وذووه ما حل بابنهم من ضنى وما اصابه من وله
وعنا قرأهم على المبادرة لخطبة ليلى لابنهم . فلم يفلحوا في مسعاهم لأن
من عادات العرب السائدة آنذاك عدم تجويز زواج من شاع ذكر حبهم
وغرامهم .

وكان ذلك صدمة له اصابته في الصميم فمألت قلبه يأساً ومرض
مرضا وببلا ، فجاءه فريق من بني اعمامه ومعهم ابوه لعيادته والسلام عليه
فسمعوه يبكي بحرقة وينشد :

الا ايها القلب الذي ليج هائماً
بليلى وكيدا لم تقطع تمئمه

افق قد افاق العاشقون وقد ابى
لما بك ان تلقى طيبيا تلاممه

فما لك مسلوب العزاء كأنما
تري نأى ليلي مغرماً انت غارمه

اجدك لا ينسيك ليلي ملامة
تلم ولا ينسيك عهداً تقادمه

فاستتروا حتى أتم نشيده ودخلوا عليه فحادثوه في أمر سلو ليلي
وطرحها عن باله ، فزاد في الهيام ، واشتدت عنده الصبابة والغرام وعاود
موضعها وصار يتمرغ في التراب ويبكي بكاء مرا ، ثم خرج الى الجبال
والوديان ، واتقطع عن العمران مستأنساً بالوحوش كما قال :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكسدت أطيير

فلم يكن قيس يسلو ليلاه ، ولم تغب عن باصرته لحظة من لحظات
الليالي والنهار ، بل كان يتخيلها في كل شيء يقع بصره عليه ، في الوادي
المعشب ، وفي الشمس المنيرة ، وفي القمر ، وفي الريم الشرود ، وفي الحمام

الشادي • وكثيراً ما كان يترنم بهذا البيت :

ومستوحش لم يمس في دار غربة
ولكنه ممن يود غريب

وقال :

أيليل زند الين يقدح في صدري
ونار الاسى ترمي نؤادي بالجمر

ابى حدثان الدهر الا تشتتا
واي هوى يبقى على حدث الدهر؟

تعزفان الدهر يجرح في الصفا
ويقدح بالعصرين في الجبل الوعر

واني اذا ما اعوز الدمع اهله
فزعت الى دلجاء دائمة القطر

فوالله لا انسك ما هبت الصبا
وما ناحت الاطيوار في وضح الفجر

وما نطقت بالليل سارية القطا
وما صدحت في الصبح غادية الكدر

وما لاح نجم في السماء وما بكت
مطوقة شجوى على فنن السدر

وما طلعت شمس لدى كل شارق
وما هطلت عين على واضح انحر

وما اغطووشن الغريب واسود لونه
وما مر طول الدهر ذكرك في صدري

وما حملت انسى وما خب ثعلب

وما طفح الأذى في لجج البحر

وما زحفت تحت الرجال بركبها
قلاص تؤم البيت في البلد الفقير

فلا تحسبي يا ليل اني نسيتمكم
وان لست مني حيث كنت على ذكر

ايكى الحمام الورق من فقد الفه
ويسلو ومالي عن أليفي من صبر

واقسمت ما انساك ما ذرَّ شارق
وما خب آل في معلمة قفر

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة
انا جيكم حتى أرى غرة الفجر ؟

وقال مخاطبا ظيماً :

ايا شبه ليلي لا تراعى فانسي
لك اليوم من دون الوحوش صديق

ويا شبه ليلي لو توقفت ساعة
عليها سحاب هاطل وبروق

ويا شبه ليلي لو توقفت ساعة
لعل فؤادي من جواد يفيق

اقول وقد اطلقتها من وثاقها
فانت ليلي ان شكوت طليق

فعيناك عيناها وجيدك جيدها
سوى ان عظم الساق منك دقيق

تكاد بلاد الله يا ام مالك
بما رحبت يوماً عليّ نضيق
تسوقُ اليك النفس ثم أردّها
حياء ومثلي بالحياء خديق
ولو تعلمين الغيب ايقنت انني
مُحِبٌّ وانني للحييب مشوق
اروم 'سلو' النفس عنك ومالها
الى احد الا اليك طريق
وقال :

دعاني الهوى والشوق لما ترنمت
هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب ورقاً قد اصخن لصوتها
فكلُّ لكلِّ مُسَعِدٌ ومجيب
فقلت : حمام الايك مالك باكيا
افارقت الفأ ام جفاك حبيب ؟
تذكرني ليلى على بعد دارها
ويللى قنول المرجال خلوب
وقد رابني ان الصبا لا تجيني
وقد كان يدعوني الصبا دأجيب
سبى القلب الا ان فيه تجلُّداً
غزال باعلى الماتحين ريب

فكلم غزال الماتحين فانه
يدانى وان لم يشفني لطيب
ولو ان ما بي بالحصى فلق الحصى
وبالريح لم يسمع لهن هبوب
والو انسي استغفر الله كلما
ذكرتك لم تكتب على ذنوب
فدومي على عهدي فلست بزائل
عن العهد منكم ما اقام عسيب
وقال :

رأيت غزالا يرتعى وسط روضة
فقلت ارى ليلي نرات لنا ظهرا
فيا ظبي كل رغدا هنيئاً ولا تخف
فانك لي جار ولا ترهب الدهرا
وعندى لكم حصن حصين وصارم
حسام اذا اعملته احسن العبرا

اجل اصبح قيس بن الملوح هائماً في البرارى والقفار مستأنساً
بالوحوش حتى الفها ، يعانى ما يعانى من شدة الحر وصرامة القر ، ومن
الوحدة في سكون الليل البهيم ، فاقداً رشده حتى لم يكن يعى ما حوله او
يفهم ما يقال له حتى يذكر له اسم « ليلي » فيفوق من غشيته فيلهج
باسم حبيته وسالبة لبه بايات يرتجلها ، ثم يعود الى غيبوته •

ولما رأى اهله وعشيرته حالته تلك حاولوا تسليته عن جبهها بشتى
الوسائل والاغراء وقال في ذلك :

لقد لامني في حب ليلى اقاربي
يقولون ليلى اهل بيت عداوة
ارى اهل ليلى لا يريدون بيعها
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
قسمت الهوى نصفين بيني وبينها
فانصف لها هذا لهذا وذا ليا
الا يا حمامات العراق اعنني
يقولون ليلى بالعراق مريضة
فيا ليتني كنت الطيب المداويا
علي لئن لاقيت ليلى بخلوة
فيا رب اذ صيرت ليلى هي المنى
فاني بليتلي قد اقيت الدوايا

يلومون قيسنا بعد ما شفه الهوى
وبات يراعى النجم حيران باكيا
فيا عجبا ممن يلوم على الهوى
فتى دنفا امسى من الصبر عاريا
ينادي الذي فوق السموات عرشه
ليكشف وجدا بين جنبيه ناويا
بيت ضجيع الهم ما يعرف الكرى
ينادي الهى قد لقيت الدواهيا
ساحرة العينين كالشمس وجهها
يضىء سناها في الدجى متساميا
وقال :-

عفى الله عن ليلي وان سفكت دمي
فاني وان لم نجزني غير عاتب
عليها ولا مبد ليلي شكايتي
وقد يشتكى مثلي الى كل صاحب
يقولون تب عن ذكر ليلي وجبها
وما خلتني عن حب ليلي بتائب

(قال الوالي) ان اباه الملوحة واخوته ساروا اليه في الصحراء ليأخذوه
ويردوه الى الحي واهل بيته وذلك بعدما نحل جسمه واسود وجهه وجف
جلده على عظامه فلما وصلوا اليه وجدوه قاعدا على تل من رمل يخط فيه
باصبعه فلما دنوا منه نفر منهم فناداه ابوه : « يا قيس انا ابوك الملوحة ،
وهؤلاء اخوتك ، فطب نفسا وابشر فقد وعدني ابو ليلي ان يزوجه لك

ويردك من نفارك وينزل عند حكمك ورضاك ... « فلما سمع ذلك عاد
اليه عقله واقبل عليهم وآنس بهم فقال له ابوه : يا قيس اما تتقي الله
وتراقبه .. كم تطيع هواك وتعصيني ، فقد كنت ارجى ولدى افضلك عليهم ،
فاخلفت ظني ولم تحقق املني فيك ... فليت شعري ما تكون ليلى فما هي
ممن يوصفن بالجمال والحسن ؟ فهي فوهاء جاحظة العينين شهلة سمجة ،
فعد عن ذكرها ، ولك في قومك من هي خير لك منها . فلما سمع قوله
فيها انشد يقول :

يقول لي الواشحون ليلى قصيرة

فليت ذراعا عرض ليلى وطولها

وان بعينها لعمرك شهلة

فقلت كرام الطير سهل عيونها

وجاحظة فوهاء لا بأس انها

'منى' كبدي بل كل نفسي وسؤلها

فدق صلاب الصخر رأسك سرمدا

فانسي الى حين الممات حليلها

(وقال الوالبي) وان المجنون « قيس » لما ذهب الى بابل مع ابيه

اجتمع اليه المتطببون واقبلوا يسقونه شربة بعد شربة ويكوونه بالنار .
فلما اكثروا عليه انشد :

دعوني دعوني قد اطلتم عذايا

وأنضجتُم جلدِي بحرَّ المكاويا

دعوني أمتُ هما وغما وكربة

ايا ويح قلبي من به مثل ما بيا

دعوني بهمي وانهضوا في كلاءة
من الله قد ايقنت ان لست باقيا
وراعكم اني لقيت من الهوى
تباريح ابلت جدتي وشبابيا
برائي شوق لو برضوى لهده
ولو بشير صار رسماً وسافيا
سقى الله اطلاقاً بناحية الحمى
وان كن قد ابدن للناس ما يا
منازل لو مرت عليها جنازتي
لقال الصدى يا حاملي انزلا يا
فاشهد بالرحمن من كان مؤمناً
ومن كان يرجو الله فهم دعائيا
لحا الله اقواما يقولون اننا
وجدنا الهوى في النأي للصب سافيا
فما بال شوقي هذه الشوق والهوى
وانضج حر البين مني فؤاديا
الا ليت عيني قد رأت من رآكم
لعلّي اسلو ساعة من هياميا
وهيات ان اسلو من الحزن والهوى
وهذا قميصي من جوى البين باليا
فقلت نسيم الروح اولى تحيتي
اليها وما قد حل بي ودهانيا

فاشكره ، لا ، اني الى ذاك شائق
 فيا ليت شعري هل يكون تلاقيها
 معذبتني لولاك ما كنت هائما
 ابيت سخين العين حران باكيا
 معذبتني قد طال وجدي وشفني
 فيا للناس قل عزائيا
 معذبتني اوردتني مورد الردى
 واخلفت ظني واحترمت وصاليا
 خليلي هيا فاسعداني على البكا
 فقد جهدت نفسي ورب المانيا
 خليلي اني قد ارقت ونمتما
 لبرق يمان فاجلسا علانيا
 خليلي لو كنت الصحيح وكتما
 سقيمين لم افعل كفعلكما يا
 خليلي مدا لي فراشي وارفعها
 وسادي لعل النوم يذهب مايبا
 خليلي قد حانت وفاتي فاطلبها
 لي النعش والاكفان واستغفرا ليا
 وان مت من داء الصباية بلغا
 نتيجة ضوء الشمس مني سلاميا
 وتاملوا بجمال هذا التشبيه الرائع الذي ختم قيس فيها قصيدته
 العصماء ، اذ انه عنى ب « نتيجة ضوء الشمس » ليلاه الغالية .

ولكن « نتيجة ضوء الشمس » قد افلتت منه الى الابد ، حينما زوجها
ذووها الى غيره ، فوقع ذلك النبا عليه وقوع الصاعقة حتى كاد ان يموت
حزنا وانشد يقول :

الا ان ليلي العامرية اصبحت
تقطع الا من ثقيف جبالها
هم حبسوها محبس البدن وابتغى
بها المال اقوام اقل مالها ؟

وقال :

دعوت آلهي دعوة ما جهتها
وربي بما تخفى الصدور خير
لئن كان يهدى برد انباها العلا
لا فقير مني اني لفقير
فقد شاعت الاخبار ان قد تزوجت
فهل يأتيني بالطلاق بشير ؟

وجعل يمر بيبتها فلا ينظر اليه ولما سئل عن ذلك انشد :

ألا ايها البيت الذي لا ازوره
وان حله شخص الي حبيب
هجرتك اشفاقا وزرتك خائفا
وفيك علي الدهر منك رقيب
سأستعب الايام فيك لعلها
يوم سرور في الزمان تؤوب

وافردت افراد الطريد وباعدت
بي النفس حاجات وهن قريب

لئن حال واش دون ليلي لربما
أتى اليأس دون الأمر فهو عصيب

ومنيّتي حتى اذا ما رأيتني
على شرف للناظرين يريب

صدت وأشمتّ العدو بصرنا
اثابك يا ليلي الجزاء مшиб

ولقد كان سوء ظنه بليلى خاطئاً ، فلم تصد ولم تُشمت به الاعداء ،

بل احتفظت بحبه ، وواصلت وده حتى بعد الزواج •

ذكر ابو اسحق بن الهيثم ان رجلا مر بليلى وهي واقفة على باب
خبائها • فقالت له : اين تريد يا عبدالله ؟ ••• قال اريد بني عامر •
فزفرت زفرة شديدة وقالت :

يا ايها الراكب المزجى مطيته
عرج لانبيء عني بعض ما أجد

فما رأى الناس من وجد تضمنهم
الا ووجدي فوق الذي يجدوا

اهوى رضاه واني في مودته
وحبه آخر الأيام أجهد

وسمعت ليلي رجلا ينشد شعرا للمجنون فاستفزها الشوق ووقفت على

باب الخباء وانشدت :

إذا عثرت رجلي بدأت بذكره
واحلم في نومي به واعيش
إذا ذكر المجنون زالت بذكره
قوى النفس أو كاد الفؤاد يطيش
فوالله ما زال الفؤاد يحبه
وان كان صدري في هواه يجيش
توعدني قومي بقتلي وقتله
فقلت اقتلونني واتركوه يعيش

وفي هذا ما فيه من صادق الاخلاص للحب الشريف والوفاء للعواطف
النييلة المتأججة الخالية من الانانية والانجراف نحو البهيمية •
ولقد لام البعض قيساً على افراطه في الغزل والانحدار الى المحرمات ،
فلما سمع مقاتلهم بكى وانشد قائلاً :

الا ايها القوم الذين وشوا بنا
على غير ما تقوى الآله ولا بر
الا ينهكم عنا تهاكم فتتهوا
ام اتم اناس قد جبليتم على الكفر
تعالوا نقف صفين منا ومنكم
وندعو اله الناس في وضح الفجر
على من يقول الزور او يطلب الخنا
ومن يقذف الخود الحصان ولا يدري
حلفت بمن صلت قریش وحجرت
له بمنى يوم الافاضة والنحر
وما حلقوا من رأس كل مطهر
صيحة عشر قد مضين من الشهر

لقد اصبحت منى حصانا بريئة
مطهرة ليلي من الفحش والنكر
من الخفريات البيض لم تدر ما الخنا
ولم تلف يوما بعد هجعتها تسرى
ولا سمعوا من سائر الناس مثلها
ولا برزت في يوم اضحي ولا فطر
مرهرة كالشمس في يوم صحوها
منعمة لم تخط شبرا من الخدر
وقال :

لقد اكثر اللوام فيك ملامتي
وكانوا لما ابدوا من اللوم ألوما
وقد ارسلت ليلي الي رسولها
بان آتھا سرا اذا الليل اظلما
فجئت على خوف وكنت معوذا
احاذر ايقاظا عداة ونوما
فت وباتت لم نهم بريبة
ولم نجترم يا صاح بالله محرما
وكيف اعزى القلب عنها تجلدا
وقد اورثت في القلب داء مكتما
فلو انها تدعو الحمام اجابها
ولو كلمت ميتا اتاها وكلمها

ولو مسحت بالكف اعمى لأذهبت
منعمة تسبي الحليم بوجهها
فتلك التي من كان داء دواؤه

وهاروت منها كل سحر تعلمها
واختم بحثي بعض مقطوعاته الغزلية التي يشبب فيها ، فيصف
محاسن الجنس اللطيف وخاصة ليلاه ويصور شعوره واحاسيسه نجوهن
قيدع بتصويره ايما اداع •
فقال :

اذا نظرت نحوي تكلم طرفها
فجاوبها طرفي ونحن سكوت
ولو خلط السم الزعاف بريقها
واسقيت منه نهلة لبريت

وقال :
نفسى الفداء لذات حسن هجرها
انكى وافسد في الفؤاد وعائها
هل بعد ليلي حظوة من بعد ما
طلقت لذات النعيم ثلاثا
وقال :

يا من شغلت بهجره ووصاله
هم المنى ونسيت يوم معادي

والله ما اتقت الجفون بنظرة
الا وذكرك خاطر بفؤادي

وقال :

تقول العدا لا بارك الله في العدا
لقد كلَّ عن ليلي ورثت حائله

فلو اصبحت ليلي تدب على العصا
لكان هوى ليلي جديدا اوائله

فأي عشق هذا واى هوى لا يبلى ، ولا ينفك متجددا حتى لو بلغ العمر بليلي
عتيا واصبحت تدب على العصا • ان هذا منتهى الروعة في اظهار الاخلاص
في الحب والوفاء •

وقال في وصف محاسن النساء :

ليالي اصبو بالعشي وبالضحى
الى خرد ليست بسود ولا عصل

منعمة الاطراف هيفا بطونها
كواعب تمشى مشية الخيل في الوحل

واعناقها اعناق غزلان رملة
واعينها من اعين البقر النجل

واتلائها السفلى على ساحل الهوى
واتلائها الوسطى كتيب من الرمل

واتلائها العليا كأن فروعها
عناقيد من شهد تفوق جنى النحل

وترمى فسطاد القلوب عيونها
واطرافها ما تحسن الرمي بالنبل
زرعن الهوى في اقلب ثم سقيه
صبابات ماء الشوق من اعين نجل
ربائب اقصدن القلوب وانما
هي النبل ريشت بالفتور وبالكحل
فيم دمء العاشقين مطة
بلا قودٍ عند الحسان ولا عقل ؟
ويقتلن اناء الصباة عنوة
اما في الهوى يا رب في الحكم من عدل ؟
وقال في ليلي :

سقى الله جارات ليلي تباعدت
بهن النوى حيث احتلن المطايا
ولم يُنسني ليلي افتقار ولا غنى
ولا توبة حتى احتضنت السواريا
خليلى لا والله لا املك الذي
قضى الله في ليلي ولا ما قضى ليا
قضاها لغيرى وابتلاني بحبها
فهلا شئ غير ليلي ابتلاني

★ ★ ★

فان تمنعوا ليلي وتحموا بلادها
علي فلن تحموا علي القوافيا

فهلأ منعم اذ منعم حديثها
خيالا يوافقنا على البعد هاديا
فأشهد عند الله اني احبها
فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا
وبالشوق مني والغرام قضى ليا
أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة
وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي
واخرج من بين البيوت لعنني
أحدث عنك النفس بالليل خليا
اراني اذا صليت يَمَمْتُ نحوها
بوجهي وان كان المصلّي ورائيا
فوالله ما ادري اذا ما ذكرتها
التي صليت الضحى ام ثمانيا
وما بي اشراك ولكن جها
وعظم الجوى اعياء الطيب المداويا
أحب من الاسماء ما وافق اسمها
واشبهه او كان منه مدايا
وأختم بحثي بقصيدته الرائية التي هي من اروع ما قال :
الا زعمت ليلى بآن لا احبها
بلى والليالي العشر والشفع والوتر

بلى والذي لا يعلم الغيب غيره
بقدرته تجرى السفائن في البحر
بلى والذي نادى من الطور عبده
وعظم ايام الذبيحة والنحر
لقد فضلت ليلي على الناس مثلما
على الف شهر فضلت ليلة القدر
تداويت من ليلي بليلي من الهوى
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
اذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها
كما يتعش العصفور من بلل القطر
مُفَلَّجَة الانياب لو ان ريقها
يداوى به الموتى لقاموا من القبر
هي البدر حسنا ، والنساء كواكب
فستان ما بين الكواكب والبدر
يقولون : مجنون يهيم بذكرها
ووالله ما بي جنون ولا سحر
اذا ما نظمت الشعر في غير ذكرها
أبي ، وابيها ، ان يطاوعني شعري
فلا انعمت بعدى ولا عشت بعدها
ودامت لنا الدنيا الى منتهى الدهر
مضى لي زمان له أْخَيْرٌ بينه
وبين حياتي خالداً آخر العمر

لقلت زريني ساعة وكلاهما
على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمري
عليها سلام الله من ذي صباية
وصبّ معنّى بالوساوس والفكر

فلم يعيش قيس بعد ليلاه طويلا ..
اذ لما نعاها اليه الناعي انقبض
صدره واثارت ثأثرته واعتلجت في قلبه الهموم والحسرات ، فارتدى على
قبرها يبكي وينوح وينشد :

ايا قبر ليلى لو شهدناك اعولت
عليك نساء من فصيح ومن عجم

ويا قبر ليلى ما تضمنت قبلها
شيئا ليلي ذا عفاف وذا كرم

ويا قبر ليلى غابت اليوم امها
وخالتها والحافظون لها الذمم

ثم اطلق ساقيه للريح هائماً في الفلوات ، حتى وجدوه جثة هامدة
في واد كثير الحجارة والرمال ، وقد خط باصبعه عند رأسه البيت التالي :-

توسد احجار المهامه والقفر
ومات جريح القلب مندمل الصدر

وهكذا طويت صفحة من صفحات التاريخ المليء بالعبر وبالأمسى
وبالقدر .

المجون والحمريات في شعر أبي نوآس

الادباء وخاصة الشعراء هم في كل عصر وجيل مرآة عصرهم وبيئتهم ،
فان قلمهم كريشة فان تعكس ما هي عليه حياة عصرهم الاجتماعية والفكرية
بل والسياسية أيضا •

ولما كانت الحضارة تقتضي ان تكون الحياة معقدة التركيب متعددة
المناحي والوجهات لذا فان كل أديب أو شاعر يختص حسب اتجاهه الفكري
والعاطفي بوجهة من تلك الوجهات أو منحى من تلك المناحي فيصورها
أحسن تصوير •

فجد حياة العتب والمجون تقابلها حياة الورع والتقوى ، ونجد الحب
العذرى يقابله الغزل الخليع ، ونجد الطمع والتكالب على الحياة يقابله
الزهد والتبسك وكذلك نجد الصراع السياسي والعقائدي وتضارب الآراء
والنزعات الفكرية والفلسفية • فكان في كل جيل وخاصة في العصر العباسي
من الشعراء من يمثلون كل اتجاه من تلك الاتجاهات •

لم تكن حياة المجون مقتصرة على بلد دون آخر • فكان في البصرة
والكوفة والمدينة ودمشق وغيرها مجان ، ولكن بغداد سبقتها جميعا
بمراحل • ولذلك أسباب عديدة :

(أولها) تدفق الثروات على بغداد تدفق السيول • فكانت خزائن
بغداد تمتلئ بالاموال التي تنهال عليها من مختلف الامصار التابعة للدولة •
وكان الاستقرار قد بعث نشاطا هائلا في الاقتصاد المحلي جعل الثروة تنمو

وتزايد ازديادا مطردا • وبلغ الرخاء في بغداد مبلغا عظيما يفوق حد
التصور •

(ثانيا) موقع بغداد في منطقة زراعية غنية تتخللها الانهار والقنوات
وتنتشر فيها البساتين الغنّ والحدايق الخضر المرصعة بالازهار
والرياحين • كما كانت تحيط ببغداد القرى الريفية المحتوية على حانات
الخمير وبيوت اللهو والطرب التي كان يؤمها الخمارون ورواد اللهو
والطرب وقصاد الممذات حيث يجدون فيها الخمر المعتقة والوجوه الصباح
من جوار وغلمان فيقضون فيها ليالي حمرأ ما بين الطاس والكاس على
أنغام الموسيقى الحالمة وشدو المغنين • ومن جملة تلك القرى قطربل
وكلواذى وقطقتا وورثالا وبشورا وغيرها وكلها قرى يسكنها الآراميون من
النصارى السريان • كما قال الشاعر أبو الفرج :

كم للصباية والصبابة من منزل
ما بين كلواذى الى قطربل
جادته من ديم المدام سحابة
اغتته عن صوب الحيا المتهلل
غيث اذا ما الراح اومض برقه
فرعوده حث الثقيل الاول
نطقت مواقع صوبه بسحابة
تهمى على كرب الفؤاد فتجلى
راضعت فيه الكأس اهيى يثني
نحوي بجيد رشا وعيني مغزل
فأتى وقد نقش الشعاع بنانه
بموج من نسجها ومقبل

وكسا الخضاب بها بنانا ياله
لو انه من وقته لم ينصل
وكان في بعض تلك القرى اديرة للرهبان كدير الروم ودير حنة
وغيرهما ورد ذكرها في اشعار ابي نؤاس ، كان الشعراء يؤمنونها فيقيمون
فيها أياما وليالي يشربون فيها ويلهون ويمرحون •
وقد وصف ابو نؤاس الاديرة التي كان يغشاها لينال فيها حظه من
الخمير فقال في دير حنة :

يا ديرَ حنّه من ذات الاكيراح
من يصحّ عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظبَاءَ لا قرون لها
يلعبن منا بألبابِ وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح
من العكوفِ على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم
من العبادة نحفِ الجسم اطلاق
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا
خلاف ما خوّفوه غير اشباح
تلقى بهم كل محفوّ مفارقة
من الزهاد عليه سحق امساح
لا يدلفون الى ماء بآنية
الا اغترافاً من الغدران بالراح
(ثالثها) موقع بغداد الجغرافي المتوسط بين بلدان ذات مدنات مختلفة

وحضارات متشعبة • فكانت مؤثلاً لعناصر متعددة قصدها من مختلف البلدان • جاء إليها الفرس والترک والهنود بالإضافة إلى العرب وإلى الآراميين واليهود الذين كانوا يقطنون تلك الديار • فكانت بغداد بودقة انصهرت فيها مختلف الحضارات وتمازجت وتفاعلت فطبعت الحياة البغدادية بطابع خاص تميز بالظرف وتذوق الحياة والاستمتاع بألوانها وضروبها المختلفة •

ومن الألوان الجديدة في حياة اللهو والاستمتاع التي ظهرت في هذا العصر : [أولاً] نشاط سوق الجوّاري والغلمان • وقد بلغ الاهتمام بتثقيف الجوّاري والغلمان وتعليمهم العلوم والفنون مبلغاً عظيماً ، وكان ذلك يزيد في أثمانهم ويعود بالربح الوفير على المتجرين بهم • [ثانياً] كثرة مجالس الشرب حيث القيان الجميلات يشفن الآذان بما طاب من الشدو والنغم فيضيفين على الحياة رونقا وبهاء وحيث الرواد يستسقون من أيدي الجوّاري الفاتنات أو الغلمان الذين يكسفون البدر رواء وسناء •

ان حياة العبث والمجون لصيقة بالحياة الحضارية ، ويستفحل أمرها عندما تزدهر المدنية ويزداد الرخاء ويعم الثراء • فعندئذ ينغمس الكثيرون في بؤرة الرذيلة ويسود العبث لدى الشباب الماجن الذي يندفع وراء الشهوات • ونجد في الشعر والأدب مرآة صادقة تعكس تلك الحال • وقد عكس شعر أبي نؤاس ذلك الوجه من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي المحصور بين عهدي المهدي والأمين وهي الفترة التي تمثل العصر الذهبي حينما بلغ سلطان الخلافة ذروته ، وبلغ الرخاء والترف أقصى حدودهما ، إذ أصبحت بغداد وهي عاصمة الخلافة بيت المال الذي تنهال إليه الأموال من جميع الأقطار والأصقاع الإسلامية • فأصبح الشعراء والمغنون ذوي حظوة لدى الخلفاء ورجال الدولة الذين أخذوا يتذوقون الغناء ويطلبون إليه فأغدقوا الهبات والعطايا على أولئك المغنين والشعراء

دون حساب مما هيا لهم أسباب الترف والعيش الرغيد فانغمسوا في حياة
 اللهو والملذات حتى الذقون • هذا بالاضافة الى ما حفلت به بغداد من
 المواضع الجميلة التي كانت تتخذ مسارح للانس واللهو ومجالس للشراب
 تجمع بين جمال الطبيعة وجمال الوجوه • فعبير الشعراء بأشعارهم صادق
 التعبير عما كان يختلج بنفوسهم من مشاعر وأحاسيس وتحدثوا عما كانوا
 يستمتعون به من وسائل الاغراء والامتع • كما قال أبو نؤاس :

لا تبك رسماً بجانب السند
 ولا تجُددُ بالدموع للجرد^(١)

ولا تُعرج على معطلة
 ولا أثنافٍ خلّت ولا وتد^(٢)

وملّ الى مجلس على شرف
 بالكرخ بين الحديق معتمد^(٣)

ممهّد صفقت نمارقه
 في ظل كرم معرّش خضد^(٤)

قد لحفتك الغصون اردية
 فيومك الغضّ بالنعيم ندى^(٥)

ثم اصطحح من اميرة حُجبت
 عن كل عين بالصون والرصد^(٦)

(١) الجرد : الارض الجرداء المقفرة •

(٢) المعطلة : أرض لا نبات فيها • الاثنافى حجارة الموقد •

(٣) الشرف : المكان العالي •

(٤) النمارق : الوسائد • المعرّش : المرفوعة أغصانه على مساند

خشبية •

(٥) لحف : ألبس •

(٦) اراد بالاميرة الخمرة •

وقال :

قالوا تتسكّ بعد الحج قلت لهم
أرى وارجو واخشى طيز ناباذاً (٧)

اخشى قضيب كرم ان ينازعني
رأس القطار وان اسرعت اغذاذاً (٨)

ما ابعد النسك من قلب تقسمه
قطربل فقري بني فكلواذاً (٩)

فان سلمت وما قلبي على ثقة
من السلامة لم اسلم ببغدادا

وكان الشعر المجوني الخليع بأيدي جماعة من الشعراء أولهم بشار
ابن برد ومن بينهم والبة بن الحباب وحماد عجرد ومسلم بن الوليد وداود
ابن رزين والحسين بن الضحاك والفضل الرقاشي واسماعيل القراطيسي
وعلى رأسهم جميعاً أبو نؤاس *

أبو نؤاس هو علي الحسن بن هانيء * ولد بقرية من قرى خوزستان
من أم فارسية * ونشأ يتيماً فجاءت به أمه الى البصرة فسلمته الى عطار
ليشتغل عنده ويتعلم مهنته * فمكث عنده لا يفتر عن معاناة الشعر والتردد
على الادباء والشعراء اذ كان مولعاً بالعلم شغوفاً بالاشعار والاخبار * وقد
سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان شديد الرغبة للتعرف
اليه ولينهل من مناهل شعره * فاتفق ان مر والبة بالعطار فرأى ابا نؤاس
فتوسم فيه الفطنة والذكاء وتوقد الذهن * فقال له : « اني أرى فيك مخايل

-
- (٧) طيز ناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية مشهور بحانات خمره .
(٨) الاغذاذ : الاسراع في السير .
(٩) قطربل وقرى بني وكلواذ مواضع حول بغداد فيها حانات خمر .

أرى الا تضيعها ، وستقول الشعر ، فاصحبنى اخرجك » • فقال ابو
نؤاس : « ومن انت ؟ » قال : « انا والبة بن الجباب » • فقال له : « نعم ،
انا والله في طلبك ولقد عزمت على الخروج الى الكوفة لآخذ عنك » •
فصحب ابو نؤاس والبة الى الكوفة وبقي معه ومع ندمائه من شعراء الكوفة
وتخرج عليهم في الشعر ففاقهم جميعا • ثم قدم بغداد وقد اربى على
الثلاثين • وهناك صحب الشعراء وتلقى الدرس على العلماء حتى أصبح
من اشعر اهل عصره واغزرهم علما وألمهم اسما •

كان ابو نؤاس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ،
حاضر البديهة ، فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو
الشمائل ، كثير النوادر ، راوية للاشعار والاحبار • وكان كلامه شعر
موزون ، وله اشعار تكاد ان تسيل من رقتها وعذوبة لفظها ، وجمال
اسلوبها •

اجمع اكثر نقاد الشعر وفحول الشعراء على ان ابا نؤاس اشعر
المحدثين بعد بشار واكثرهم تفننا وارصنهم قولاً وابدعهم خيالا مع دقة
لفظ وبديع معنى • انه شاعر مطبوع ولج أبواب الشعر كلها الا انه امتاز
بخمرياته التي وصف فيها الخمر وصفا « لو سمعه الحسان (الحسن
البصري وابن سيرين) لهاجرا اليها وعكفا عليها » كما قيل • كما انه
تميز بمقطعاته المجونية التي صدق فيها بتصوير بيئته والتي نقل فيها الغزل
من اوصاف المؤنث الى المذكر مخالفا بذلك مألوف العرب وآدابهم •

قال الجاحظ فيه : « بشار وابو نؤاس معناهما واحد والعدة اثنان •
بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر ، وابو
نؤاس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بغير اذن » • وحدث
الأمدي عن المبرد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين احذق من
ابي نؤاس » • وقد نقل عن العتّابي قوله : « والله لو ادرك هذا الخبيث

الجاهلية ، لما فضلت عليه أحدا » •

ولقد قال عمر فروخ في ابي نؤاس : « هو شاعر كبير : كبير اذا
اعتبرنا ديوانه الضخم وعدد الفنون التي يتضمنها ، وهو شاعر كبير اذا
اعتبرنا التجديد الذي دخل مع ديوانه على الشعر العربي ••• ان ابا نؤاس
هو الشاعر الذي تتجمع في ديوانه جميع خصائص الشعر العباسي المحدث •
وانه أيضا شاعر كبير لانه أعطى فن الخمر في الشعر العربي صورته
الاخيرة • فلم يكن قبل ابي نؤاس ولا جاء بعد ابي نؤاس من صنع في
الخمر ما صنعه شاعرنا • من اجل ذلك لا نستغرب اذا اكتسب ابو نؤاس
على الدهر في تاريخ الادب العربي لقب شاعر الخمر » •

ان اشعار ابي نؤاس في وصف الخمر ونزغته الى المجون هي التي
تمتاز بالروعة وتميز بالقوة والرصانة وسعة الخيال • فالشاعر عندما تنطلق
نفسه في اجواء المرح وتتشى باللهو والطرب تتفتح قريحته عن شعر رائع
يتسم بالوصف الشائق والظرف الساحر فيترك التحذلق والتنطس ويرسل
عواطفه عبارات رائعة رائعة • ولقد قال أبو نؤاس عن نفسه : « لا اكاد
أقول شعرا جيدا حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال
ارتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة • وقد قلت وأنا على غير هذه الحال
أبياتا لا ارتضيها » •

لقد تزعم أبو نؤاس حركة التجديد في أسلوب الشعر العربي واعلن
ثورته على قيود الشعر القديم وتقاليد كالوقوف على الاطلال والبكاء على
الديار والآثار ووصف الناقة وهي تحث السير في الفيافي والقفار • كقوله :

دع الاطلال تسفيها الجنوب

وتبلى عهد جدتها الخطوب^(١٠)

(١٠) تسفى : تدرى التراب • الجنوب : الريح الجنوبية •

وخلُّ لراكب الوجناء ارضا
تحتُ بها النجبية والنجيب (١١)

ولا تأخذُ عن الاعراب لهواً
ولا عيشاً فعيشُهُم جديب

ذر الابلان يشربها اناس
رقيق العيش عندهم غريب

بأرض نبتها عشر وطلح
واكثر صيدها ضبع وذيب (١٢)

اذا راب الحليب فيل عليه
ولا تُحرجُ فما في ذلك حوب (١٣)

فأطيب منه صافية شمول
يطوف بكأسها ساق اريب

اقامت حبة في قعر دن
تفور وما يُحسُّ لها لهيب

كأن قراتها في الدن تحكى

قِراءة القس قابله الصليب

تمدُّ بها اليك يدا غلام

أغنّ كأنه رشاً ريب

غذته صنعة الدايات حتى

زها فزها به دلٌ وطيب

(١١) الوجناء : الناقة القوية • النجبية والنجيب : الابل •

(١٢) العشر والطلح : نبت من نباتات الصحراء •

(١٣) الحوب : الاثم •

يكاد من الدلال اذا تشى
عليك ومن تساقطه يذوب

فهذا العيش لا خيم البوادي
وهذا العيش لا اللبن الحليب

فاين البدو من ايوان كسرى
واين من الميادين الزروب^(١٤)

اعاذل اقصر عن بعض لومي
فراجي توتبي عندي يخيب

تعيرني الذنوب وأي حر
من الفتيان ليس له ذنوب

غررت بتوتبي ولججت فيها
فشق اليوم جيك لا اتوب

وقوله :

عاج الشقى على رسم يسائله
وبت اسأل عن خمارة البلد

يكي على طلل الماضين من اسد
لا در درك قل لي من بنو اسد ؟

ومن تميم ؟ ومن قيس ولفهما
ليس الاعاريب عند الله من احد

(١٤) الزروب : زرائب الغنم .

وقوله :

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلا اضاع العد سم في اللذات والخطرا
الم تر ما بنى كسرى وسابور^(١٥) لمن غبرا
منازه بين دجلة والفرات اخصها الشجرا
لارض باعد الرحمن عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها يرايعاً ولا وحر^(١٥)
ولكن حور غزلان ترعى بالملا بقرا
فذاك العيش لا سيداً بقفرتها ولا وبر^(١٦)
اذا ما كنت بالاشيا في الاعراب معتبرا
فانك ايما رجل وردت فلم تجد صدرا

اما شعره الغزلي فعلى ظرفه وعذوبته أحيانا نراه مقتقرا الى العاطفة
القلبية • انه لا يجلو غير الغرائز الحيوانية التي تنم عن تحرق شهواني نحو
العديدات من الجواري المتهتكات والغلمان الفاسدين • ولعله في الغزل
الغلماني كان اصدق عاطفة من الغزل النسائي • وانه يصف الجارية بأوصاف
الغلام والغلام بسماوات الجارية • كما قال في وصف جارية :

غلام والّا فالغلام شبيها وريحان^١ دنيا لذة للمعاق

وقال في غلام :

من كف ذي غنج حلو شمائله كأنه عند رأى العين عذراء
هذا وان ابا نؤاس لم يكن صادقا في حبه لانه تغزل في العديد من

(١٥) اليرابيع جمع يربوع : حيوان كالفأر : الوحر : دويبة سامة •

(١٦) السيد : الذئب • الوبر : حيوان بحجم القط •

النساء ولم يكن دافعه الى ذلك الا النزوات الغريزية • ولقد عرضت عليه
حسناً ليتزوجها فقال :

ولو انها في الحسن كانت كيوسف
وبلقيس أو كانت كخطـ مثال

وقالت : تزوجني على مهر درهم
لقلت اغربي عني فمهرك غال

واليكم نبذا من شعره في الغزل النسائي ، قال في دنائير :

صليتُ من جها نارين واحدة
بين الضلوع واخرى بين احشائي

وقد حميت لساني ان ابين به
فما يعبر عني غير ايمائي

يا ويح أهلي ابلى بين اعينهم
على الفراش وما يدرون ما دائي

لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في
وصلى مشيت بلا شك على الماء

وقال في جنان :

ولقد سبك منعمٌ ميسان مبتهيج ريب

خودٌ يجول وشاحها في طي مثرها كتيب

واذا تقوم لشأنها يمشي بأعلاها قضيب

فالويل لي ما حلَّ بي قد شفني حزن مذيب

بين الجوانح والمفاصل كالشرار له لهيب

وقال في منية :

ابتْ عيناى بعدك ان تماما
وكيف ينام من ضمن السقاما
بكيت من الفراق لما ألقى
وراجعت الصبابة والغراما
رجعت الى العراق برغم انفي
وفارقت الجزيرة والشاما
على شط الشام وساكنيه
سلام مسلم لقي الحماما
مذكورة مؤثثة مهتاة
اذا برزت تشبهها الغلاما

وقال في فناة اسمها حُسن :

طفلة خَوْدٌ رداح هام قلبي بهواها
قدها احسن قد فاسألوا من قد رآها
ما براهها الله الا فتنة حين براهها
تثر الدر اذا غدت علينا شفتها
وترى للعود زهوا حين تحويه يداها
ربما اغضيت عنها بصري خوف سناها
هي همّي ومنائي ليتني كنت مناهها

وقال :

اني عشقت وما بالعشق من باس
ما مر مثل الهوى شيء على راسي

مالي وللناس لم يلدوني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس

ما للعادة اذا ما زرت مالكتي
كأن اوجههم تطلى بانقاس

الله يعلم ما تركي زيارتك
الا مخافة أعدائي وحراسي

ولو قدرت على الايمان جثكم
سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس

وقد قرأت كتابًا من صحائفكم
لا يرحم الله الا راحم الناس

وقال في غزل المذكر :

غزال به فتر وفيه تأنث
واحسن مخلوق واجمل من مشي

أقول له يوما وقد مضى الهوى
اطلت عذابي فيك يا خير من نشا

فقال : أأما يأن ان ترك الصبا
ومالك يا هذا ؟ ومالي ؟ وما تشا ؟

فقلت له : اقصر عن اللوم سيدي
فمن ذا يطيق الصبر عن مشبه الرشا

ارى لك وجها فتت القلب حسنه

به ينجلي كربي وقد ينجلي الغشا

وقال :

سقى الله ظيباً مُبدي الغنج في الخطرِ
يميس كفضن البان من رقة الخضر

بعينه سحر ظاهر في جفونه
وفي نشره طيب كفاتحة العطر

هو البدر الا ان فيه ملاحه
بتفتير لحظٍ ليس للشمس والبدر

ويضحك عن ثغر مليح كأنه
'جباب' عقار او نقي من الدر

جفاني بلا جرم اليه اجترمه
وخلفني نضواً خلياً من الصبر

ولو بات والهجران يصدع قلبه
لجاء بوصلٍ دائمٍ آخر الدهر

وقال :

واهيف الخضر مهضوم الحشا غنج
يصبو اليه الذي قد صام او عبدا

في طرفه حور ووجهه قمر
كأنه غصن بان جانب الاودا

والثغر درّ وخداه ووجنته
تبرّ اضاءت عليه الشمس فاتقدا

والحاجبان فمخطوطان من حمم
كأن عطفهما نونان قد عَقدا

والله ما أن رأيت عيني لها شبيهاً
حُسناً وملحاً ونوراً جلد البدا
يا قادح النار في قلبي بمقلته
وموتقى بحبال الحب مضطهدا
لو قص عشر الذي لاقت يا أملي
على البرية ما ابقى بها احدا
سيقيا بوجهك يا من لجّ في قسم
ان لا ينول خيراً عاشقاً ابدا
اظمأت عبدك حتى ما به رمق
اما يحين له المسكين ان يردا
لولا شقاوة جدى ما شُغفت بكم
ولا مددت الى من لا ينيل يدا
ولا زرعت الى من ليس يرحمني
ولا عرفت البكا والشوق والسهدا
وقال أيضا :

الا ان من اهواه ضنّ بوده
واعقبني من بعد ذلك بصدّه
فواحزنا بعد المودة انه
ليدخل عني بالسلام ورده
دعائي اليه حسنه وجماله
وسحر بعينه وخال بخده

كَأَنَّ فَرْنِدَ الْمَرْهَفَاتِ بِخَدِهِ
وَيَخْتَالُ مَاءَ الْوَرْدِ تَحْتَ فَرْنِدِهِ (١٧)

فَلَمْ أَرِ مِثْلِي صَارَ عَبْدًا لِمِثْلِهِ
وَلَا مِثْلَهُ يَوْمًا أَضْرَّ بَعْبُدِهِ

وقال :

إِيهَا النَّاسَ أَرْحَمُونِي وَتَمَشُّوا لِي إِلَيْهِ
كَلِّمُوهُ فِي سَكُونٍ لَا تَشَقِّنَنَّ عَلَيْهِ
كَلِّمُوهُ الْيَوْمَ يَرْضَى عَنِ اسِيرٍ فِي يَدَيْهِ
لَوْ رَأَيْتُمْ حِينَ يَمْشِي وَيَكْسِرُ حَاجِيئِهِ
فِي أَزَارٍ قَدْ لَوَاهُ ثُمَّ دَلَّيْ طَرْفِيهِ
قَلِّمَ ذَا الْفَتَكِ حَقًّا لَيْسَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ

هذا وان ابا نؤاس كان يحب الجهر بالمنكر فان بالجهر به لديه
لذة أي لذة فيقول :

غَدَوْتُ إِلَى اللَّذَاتِ مُنْهَتِكَ السُّتْرِ
وَافْضَتْ بِنَاتِ السَّرِّ مَنِيَّ إِلَى الْجَهْرِ

وهان عليّ الناس فيما اريده
بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر

رَأَيْتَ اللَّيَالِيَّ مَرصِدَاتٍ لِمَدَّتِي
فَبَادَرْتُ لِدَاتِي مَبَادِرَةَ الدَّهْرِ

وقال :

لَا حَاشِرَاقَ الصَّبَاحِ فَاطْرُدِ الْهَمَّ بِرَاحِ

(١٧) الفرند : جوهر السيف ووشيه • المرهف : السيف المرقق

• حده

لستُ بالتارك لذات الندامى للصلاح
قل لمن يبغي صلاحى بعثُ رشدى بصلاحى
ظفرت كفّ اديب باع برأً بجناح
اطيب اللذات ما كان جهاراً باقتضاح
وقال :

الحمد لله انى على حداثة سنى
فقتُ المحيين طراً بعض ما شاع عنى

وقال ردّاً على ابي العتاهية الذي نصحه بالتوبة والرجوع عن غيه :

اترانى يا عتاهى تاركاً تلك الملاهى
اترانى مفسداً بالنسك بين المرد جاهى

واما شعر الخمرىات عند ابي نؤاس فانه فريد في بابه من حيث
كمه وكيفه • وكان هذا الشاعر اغزر الشعراء نظماً في الخمر واكثرهم
ابداً في وصفها ووصف مجالسها وندمائها مما لم يعرف الشعر العربي
له مثيلاً • ومما تفرّد به ابو نؤاس انه الف قصائد كاملة
في الخمر ولم يعد ذلك كما هو الشأن عند من سبقه كطرفة والاعشى
والاخطل مجرد غرض يمر به الشاعر عرضاً ، كما قال عمر فروخ في
شعر ابي نؤاس الخمرى انه « زاد على كل من تقدمه وفاق كل من جاء
بعده في وصف الخمر لانه جعل منها موضوعات تامة ذات تفاصيل ، وقصر
القصيدة على الخمر كما قصر عمر بن ابي ربيعة القصيدة على الغزل » •
ومما تميز به شعر ابي نؤاس انه اذ يتحدث عن الخمر يتحدث
عنها حديث العطوف العاشق الذي انفذها في قرارة نفسه واتخذها صفة
روحه • قال :

بادر الكأس نهارة واشرب الراح العقارا
واسقنيها مثل ما شربها كيلاً عيارا

خندريساً تنفح المسك وتحكى الجلنارا^(٨١)
 فاذا اكثرت فيها الـ ماء زادتك خمارا
 فامض في اللذات قدماً واخلعن في العذارا
 واجعل البستان بيتاً واجعل القرية دارا
 وأطر فيها حماماً واربط فيها المهاري
 واذا كان قطافاً وتوقعت العصارا
 فاطبخ الراح بشمس فكفى بالشمس نارا
 وقال أيضا :

ألا لا تلمني في العقار جليسي
 ولا تلحنني في شربها بعبوس
 لقد بسط الرحمن مني مودة
 اليها ومن قوم لديّ جلوس
 تعشقها قلبي فبغض عشقها
 الى من الاموال كلّ نفيس
 جننت على عذراء غير قوية
 شديدة بطش في الزجاج شמוש
 ترى كأسها عند الزجاج كأنها
 نرثت عليها حلّى رأس عروس
 فتهتك استار الضمير من الحشا
 وتبدي من الاسرار كل جيس

(١٨) الخندريس : الخمرة المعتقة (كلمة يونانية) • الجلنار :
 زهر الرمان (فارسية) •

وقال :

لا تحفلن° بقول الزاجر اللاحي
واشرب على الورد من مشمولة الزاح (١٩)

صهبا صافية تجديك نكهتها
تنفس المسك مطوخا بتفاح

حتى اذا سلست في قعر باطية
اغناك للأؤها عن ضوء مصباح (٢٠)

ما زلت اسقى حبيبي ثم الثمه
والليل ملتحف في نوب امساح (٢١)

حتى تغنى وقد مالت سوالفه
(يا دير حنة من ذات الاكيراح) (٢٢)

ولم يكن ابو نؤاس يكتفي بالوصف الظاهري للخمرة ، بل اودعها
قرارة نفسه ونزهها تنزيه العابد لمعبوده واغرق في ذلك ايما اغراق :
كقوله :

ان على الخمر بالائها
وسمها أحسن اسمائها

(١٩) اللاحي : اللائم • المشمولة : المبردة بريح الشمال •

(٢٠) سلست : صبت • الباطية : اناء الخمر •

(٢١) الامساح : ثوب أسود من الصوف يلبسه الراهب •

(٢٢) الاكيراح : تصغير اكراح جمع كرح : لفظة سريانية معناها
بيت الراهب • وذات الاكيراح مكان قرب بغداد فيه بيوت صغار يسكنها
الرهبان والقرب من تلك البيوت ديران ديرا ودير حنة •

لا تجعل الماء لها قاهرا
 ولا تسلطها على مائها
 كرخية" قد عتقت حبة
 حتى مضى أكثر اجزائها
 فلم يكدر يدرك خمّارها
 منها سوى آخر حوبائها (٢٣)
 دارت ، فأحيت ، غير مذمومة
 نفوس حسراها وانضائها (٢٤)
 والخمر قد يشربها معشر
 ليسوا اذا عدوا باكفائها
 وتأمل في وصفه الخمر وتشبيهه اياها بانها روح الدن وانها تضيف
 روحاً ثانية لشاربها فكان ابداعاً في الخيال ايما ابداع ، قال :
 ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف
 واستقى دمه من جوف مجروح
 حتى انثيت ولي روحان في جسدي
 والدنّ منطرح "جسماً بلا روح
 وقال في وصفه شارب الخمرة :
 ومستطيل على الصهاء باكرها
 في قية باصطباح الراح حذّاق

(٢٣) الحوباء : النفس .
 (٢٤) حسراها : المتحسرون على شربها . انضائها : المهزولون من
 وجدهم بها .

فكل شيءٍ رآه ظنه قدحاً
وكل شخصٍ رآه ظنه الساقى
ثم ينتقل الى وصف الشاربين ويصف تأثير الخمر فيهم بكل دقة
ولباقة ، قال :

فقلنا له ان المدام غداؤنا
وانا اولو عقلٍ وأهلُ بصائر
فجاء بها قد انهك العمر جسمها
واوجعها في الصيف حرَّ الهواجر
فقلت لها لما اضاء سناؤها
على صحن كأسٍ قد علا الكف زاهر :
« ابني لنا ، يا خمر ، كم لك حجة ؟ »
فقلت : « لحاك الله لست بذاكر »

شهدت ثمودا حين حل بها البلى
وادركت اياماً لعمر وبنِ عامر
وأخيراً اجمل ابو نؤاس الشروط التي يجب ان تتوفر في الندامى
لكي يكون المجلس طيباً وتكون الحفلة ممتعة :

نفس المدامة اطيب الانفاس
اهلاً بمن يحميه من انجاس

فاذا خلوت شربها في مجلس
فاكفف لسانك عن عيوب الناس

في الكأس مشغلة وفي لذاتها
فاجعل حديثك كله في الكاس

صفو التعاشر في مجانية الأذى
وعلى الليب تخيّر الجلاس
وتأملوا في المقطوعة التالية التي تتزرع الاعجاب لجمال اسلوبها ومناة
مبناها وروعة سبكها :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تُسقني سراً اذا امكن الجهر

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة
فان طال هذا عنده قصر الدهر

وما الغبن إلا أن تراني صاحباً
وما الغنم إلا أن يتعني السكر

فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى
فلا خير في اللذات من دونها ستر

ولا خير في فك غير مجانية
ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وكذلك في المقطوعة التالية بما فيها من حسن سبك ورشاقة تعبير :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد (٢٥)

كأسا اذا انحدرت في حلق شاربها
أجدته حمرتها في العين والخذ (٢٦)

فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة
في كف جارية ممشوقة القد

(٢٥) لا تطرب : لا تحزن .

(٢٦) اجدته : اعطته .

تسقيك من عينها خمراً ومن يدها
خمراً ، فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان ، وللدمان واحدة ،
شيء خصت به من بينهم وحدي (٢٧)

ولا يشرب ابو نؤاس الا من يدي رشاً مريح ، فيقول :
عاطنيها كما وصفت ، خليلي ،
من يدي شادن رخيـم الكلام
وجهه البدر ، والمدامة بدر
يا لبدرين ركباً في نظام
كلما دارت الكؤوس تغنى :

« من لقلبٍ مقيمٍ مستهام »

وما ابدع تشبيهه الخمر في المقطوعة التالية بالنور حتى التبس على
الشاربين فيما اذا كان الخمر ناراً ام النار خمراً :

وفتية نازعوا - والليل معتكر -
برقاً تلوح به ايدٍ واقداح

اذكى سراجا ، وساقى القوم يمزجها
فلاح في البيت كالمصباح مصباح

كدنا ، على علمنا بالشك ، نسأله :

« اراحنا نارنا ام نارنا الراح ؟ »

ومما ابتدعه ابو نؤاس « القصص الخمري » * فانه يصف بأسلوب
قصصي ممتاز حفلات اللهو والقصف والشراب فيصف بنت الكرم وصفا

(٢٧) الندمان : النديم على الشرب تستعمل للمفرد وللجمع *

دقيقاً ، ثم يتحدث عنها حديث الوامق العاشق ، فيصف اثرها في الشارين ،
فينتقل الى تصوير مجالس الشراب تصويراً فيه رقة وعضوبة ، وفيه رونق
وبهاء . وقد يجمع كل تلك المعاني في القصيدة الواحدة فتأتي متسلسلة
متصلة بعضها كأحسن ما يكون الاتصال . واليكم همزته المشهورة :

يا رَبِّ مجلس فتيانِ سموتُ له
والليلُ محتبسٌ في ثوبِ ظمَاءِ

لشرب صافية من صدر خابية
تغشى عيونَ ندامها بالألاءِ

كأن منظرها والماء يقرعها
دياجُ غانية أو رقمٌ وشاء

تستنّ من مرح في كف مصطبح
من خمر عانة ، او من خمر سورا

كأن قرقرة الأبريق بينهم
رجعُ المزامير أو ترجيعُ فأفاء

حتى اذا درجت في القوم وانتش
سرت همّت عيونهم منها باغفاء

سألت تاجرها كم ذا لعاصرها
فقال : قصر عن هذاك احصائي

انبئت ان ابا جدي تخيرها
من زخر آدم أو من زخر حواء

ما زال يمطل من يتاب حاتها
حتى أتني وكانت زخر موتائي

ونحن بين بسايتين فتتفحنا
 ريح البنفسج لا نشر الخنزأماء
 يسعى بها خث ، في خلقه دمث
 يستأثر العين في مستدرج الرائي
 مقرط ، وافر الورداف ذو غنج
 كأن في راحيته وسم حناء
 قد كسر الشعر واوات ونضده
 فوق الجين ، ورد الصدغ بالفاء
 عيناه تقسم داء في محاجرهما
 وربما نفعت من صولة الداء
 اني لأشرب من عينيه صافية
 صرفاً واشرب أخرى من ندامائي
 ولائم لاني جهلاً فقلت له :
 اني وعيشك مشغوف بمولائي
 وقال واصفا حفلة من الحفلات الصاخبة في ليالي السمر الملاح بين
 الطاس والكاس والخضرة والوجوه الصباح :
 تعاتبني على شرب اصطباج
 ووصل الليل من فلق الصباح (٢٨)
 وما علمت بأنني اريحي
 احب من الندامى ذا ارتياح
 قرب صحابة بيض كرام
 بهاليل غطارفة صباح (٢٩)

(٢٨) فلق الصباح : انبلاج الفجر .

(٢٩) البهاليل جمع بهلول : من جمع صفات الخير . الغطارفه جمع

غطريف : السيد الشريف . الصباح جمع صبيح : الجميل .

الى حانات خمر في كروم
معرشة ، معرجة النواحي

فاقبل ربها يسعي اليها
يهنيء بالفلاح وبالنجاح

فقلت : الخمر ! قال : نعم واني
بها لبني الكرام لذو سماح

فجاء بها تخب كماء مزن
وانشأ منشداً شعر اقتراح

« اتصحو بل فؤادك غير صاح
عشيّة همّ صحك بالرواح »

ودار بكأسنا رشاً رخيماً
لطيف الكشح مهضوم الوشاح

وقال : اتبرحون غداً فقلنا
وكيف نطيق ببعذك من رواح

فخالفنا ، فأسكرنا ، فمنا
الى ان همّ ديك بالصياح

وقال بالمعنى نفسه يصف حفلة انس وطرب :

دع الربع ، ما للربع فيك نصيب ،
وما أن سبتي زينب وكعبوب

ولكن سبتي البابلية ، انها
لمثلي في طول الزمان سلوب

جفا الماء عنها في المزاج لأنها
 خيال ، لها بين العظام ديب
 اذا ذاقها من ذاقها حلقت به ،
 فليس له عقل يعد ، اريب
 وليلة دجن قد سرّيت بقتية
 تنازعها نحو المدام قلوب (٣٠)
 الى بيت خمار ودون محلته
 قصور "منيفات" لنا ، ودروب
 ففزّع من ادلاجنا بعد هجعة
 وليس سوى ذى الكبرياء رقيب (٣١)
 تتاوم خوفاً ان تكون سعاية
 وعاوده بعد الرقاد وجيب (٣٢)
 ولما دعونا باسمه طار ذعره
 وايقن ان الرجل منه خصيب
 وبادر نحو الباب سعياً ملياً
 له طرب بالزائرين عجيب
 فاطلق عن نابيه ، وانكبّ ساجداً
 لنا ، وهو فيما قد يظن مصيب (٣٣)

-
- (٣٠) ليلة دجن : ليلة غيم مطبق ومطر .
 (٣١) ادلاجنا : سيرنا في الليل . الهجعة : النومه الخفيفة . ذو
 الكبرياء : الله تعالى .
 (٣٢) الوجيب : خفقان القلب من الهلع .
 (٣٣) اطلق عن نابيه : كناية عن الضحك أو التبسم .

وقال : ادخلوا ، حَيِّتُمْ من عصابة
فمنزلكم سهلٌ لديّ رحيبٌ

وجاء بمصباح له ، فأناره ،
وكلّ الذي يبغى لديه قريب

فقلنا : ارحنا ! هات ان كنت بائعاً
فانّ الدجى عن ملكه سيغيب

فابدى لنا صهباءً ، تمّ شبابها ،
لها هرجٌ في كأسها ووئوب

فلما اجتلاها للندامى بدا لها
نسيمٌ غيرٍ ساطعٍ ولهيب

فجاء بها تحدو بها ذاتٌ مزهريـ
يتوق اليها الناظرون ، ريب (٤٣)

كئيبٌ ، علاه غصنٌ بان ، اذا مشى
تكاد له صمّ الجبال تيب (٣٥)

واقبل محمودُ الجمال ، مقرّطقٌ
الى كأسها ، لا عيب فيه اريب (٣٦)

يشم الندامى الورد من وجناته ،
فليس به غيرٌ الملاحه طيب

• المزهري : العود (٣٤)

• تنيب : تخشع (٣٥)

(٣٦) المقرطق : اللابس القرطق وهو ضرب من الثياب • الاريب :

• المهذب العاقل

فما زال يسقينا بكأسٍ مجدَّةٍ
تُوَلَّى ، وأخرى بعد ذلك تؤوب

وغنَّى لنا صوتاً بحسن ترجع
« سرى البرق غربياً فحنَّ غريب »

فمن كان منا عاشقاً فاض دمعته
وعاوده من بعد السرور نجيب

فمن بين مسرور ، وبك من الهوى
وقد لاح من ثوب الظلام غيوب

وقد غابت الشعري العبور واقبلت
نجوم الثريا بالصباح تشوب

واليكم وصفا للخمرة ابدع فيه ابو نؤاس ايما ابداع حتى ليشبهها
بالنور للطافتها ورقتها ، وبالذواء الشافي الذي لو مسَّه حجر مسته سراء !

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها
لو مسَّها حجر مسته سراء

من كف ذات حير في زي ذي ذكر
لها مجبان لوطي وزنء

قامت بابريقها ، والليل معتكر
فلاح من وجهها في البيت لألاء

فأرسلت من فم الابريق صافية
كأنما اخذها بالعين اغفاء

رَقَّتْ عن الماء حتى ما يلائمها
لطافةً ، وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجتَ بها نوراً لمازجها
حتى تولدُ أنوار واضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ،
فما يصيهمُ إلا بما شاؤوا
لتلك أبكي ، ولا أبكي لمنزلة
كانت تحلُّ بها هند واسماء
حاشا لدرّة ان تُبنى الخيام لها
وان تروحَ عليها الابلُ والشاء
فقل لمن يدعى بالعلم فلسفة
حفظتَ شيئاً وغابت عنك اشياء
لا تحظرُ العفو ان كنت امرؤاً حرجاً
فان حظرَكه في الدين ازراء

اجل لقد كان ابو نؤاس مرآة عصره التي تعكس حياة اللهو والمجون
في المجتمع والبيئة اللذين عاش فيهما * لذا فقد افتنن باشعاره معاصروه
وطربوا اليها حتى لقد قيل فيه : « لم يكن شاعر في عصره الا وحسده
لميل الناس اليه وشهوتهم معاشرته * وتقرن هذه الخفة الروحية بجمال
فني يستهوى القارئ ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب » * كيف لا
وهو القائل في وصف الكأس :

ودارِ ندامي عطلوها وأدلجوا
بها اثرٌ منهم جديدٌ ودارس (٣٧)

(٣٧) ادلج : سار في آخر الليل * الدارس : الممحو والعافي *

مساحب من جرّ الزقاق على الثرى
 واضغاث ریحانٍ جنیّ ویابس (٣٨)
 حبست بها صحبی فجددتُ عهدهم
 وانی علی امثال تلك لحابس
 ولم ادر منهم غیر ما شهدتُ به
 بشرقی ساباطٍ الدیار البسابس (٣٩)
 اقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً
 ويوماً له يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عسجدية
 جنبها بأنواع التصاوير فارس (٤٠)
 قرارتها كسرى ، وفي جنباتها
 مهیّ تدريها بالقسيّ الفوارس (٤١)
 فللخمر ما زرتُ عليه جيوبها
 وللماء ما دارت عليه القلانس (٤٢)

(٣٨) اضغاث جمع ضغث : قبضة حشيش يختلط فيها الرطب
 باليابس .

(٣٩) ساباط : بلد بمداين كسرى . البسابس جمع بسبس :
 القفار .

(٤٠) عسجدية : منسوبة الى العسجد ، الذهب . أي اناء مصنوع
 من الذهب .

(٤١) قرارتها : قعرها . المها : الغزال . تدريها : تخاتلها .

(٤٢) الجيب : طوق القميص . القلانس جمع قلنسوة : ما يلبسه

الفرسان على رؤوسهم .

الزهد في شعر أبي القاسم

كان الشر في الانسان اصيلا ، وكان الخير فيه دخيلا • الشر مصدره الانانية وحب الذات الاصيلين في الطبيعة البشرية ، والخير منبعه الروح الاجتماعية والشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع • لذا فان الشر يسبق الخير في طبيعة الانسان • وان عالمنا الارضي مليء بالآثام والعدو والعدوان وسفك الدماء •

فالعمل الآثم هو العمل الذي يستهدف تحقيق فائدة ما لشخص ما على حساب مصلحة مجتمعه ، أو تحقيق فائدة ما لمجتمع ما على حساب مصلحة المجموعة الانسانية بان يسبب ضررا الى المجموع •

فهناك تضارب في الحياة البشرية والاجتماعية بين مصالح الافراد وبين مصالح المجتمع • ومن هنا نستنتج ان الشر كامن في تحقيق مصلحة ما للفرد بجلب الضرر للمجتمع ، والخير هو في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع • انه في الحد من حرية الفرد عن اتيان الاعمال التي تضر بالآخرين أو بالمجموع في سبيل حفظ نظام المجتمع وصيانة حريات الافراد الآخرين •

لذا فقد كان الشر والخير صنوين متلازمين منذ ان كان الانسان على وجه الغبراء • فقد كان في مختلف العصور الاشرار والى جانبهم الاخيار ، كان المفسدون والصالحون ، المعتدون والمسالمون ، الفجار والزهاد المتسكون •

ولقد كان أصحاب الرذيلة في مختلف حقب التاريخ هم الاكثرية
وأصحاب الفضيلة قليلون لان الفضيلة نابعة من المعرفة وأصحاب المعرفة
قليل عديدهم ولكنهم مع قلتهم كانوا دوماً يمسكون بزمام الموقف ويوجهون
الجماهير نحو الحياة الصالحة والسلوك الفاضل • فكانوا هم قادة الفكر
في كل زمان ومكان • فكان منهم الحكماء ، وكان منهم الفلاسفة ، وكان
منهم رجال الدين والقديسون • وكانوا جميعاً يبشرون بالخير والصلاح
وينذرون عن الشر والفساد • لذا فان التراث الفكري والادبي لجميع
الشعوب يزخر بالوعظ والارشاد وتنبيه الغافلين على سوء مغبة اعمال الشر
والضلال •

فأدب الزهد هو رد فعل لما تعانيه الامم من آفات الشرور والآثام ،
لذا نجد فيه الكثير من المبالغة والتطرف في التزهيد عن الحياة والتذكير
بالموت •

ولم يكن الادب العربي أقل شأنًا من غيره في هذا المضمار • فقد
زخر بأدب الوعظ والدعوة الى الزهد منذ الجاهلية الاولى • وحسبنا ان
نذكر أسماء امية بن ابي الصلت وورقة بن نوفل وزهير بن ابي سلمى
وزيد بن عمرو • وكلهم جالوا جولات واسعات في ميدان الوعظ والارشاد
والدعوة الى الزهد والتسك والتقوى •

قال ورقة بن نوفل شعراً يتضمن عقيدته الدينية وفيه امتداح للنسك
والتزهد :

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلت لهم
انا النذير فلا يغروكمُ أحد
لا تعبدن آلهاء غير خالقكم
فان دعوتهم فقولوا بيننا حدد

سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به
وقبل قد سبح الجودي والجمد
مُسَخَّرٌ كل ما تحت السماء له
لا ينبغي ان يناوى ملكه احد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ دان الشعوب له
والجن والانس تجري بينها البرد
وقال امية بن ابي الصلت :
وحالات دنيا لا تدوم لاهلها
وبينا الفتى فيها مهيب مُسَوِّد
اذا انقلبت عنه وزال نعيمها
واصبح من ترب القبور يُوسِّد
فكن خائفًا للموت والبعث بعده
ولا تك ممن غره اليوم او غد
فانك في دنيا غرور لاهلها
وفيها عدو كاشح الصدر يوقد
وشيه بهذا قول زهير بن ابي سلمى :
الا لا ارى على الحوادث باقيا
ولا خالدًا الا الجبال الرواسيا

الم تر ان الله اهلك تبعا
واهلك لقمان بن عاد وعاديا
الا لا ارى ذا امة اصبحت به
فتركه الايام وهي كما هيا
الم تر للنعمان كان بنجوة
من العيش لو ان امرأ كان ناجيا
فاين الذي قد كان يعطى جواده
بارسانهن والحسان الحواليا
رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم
منيته لما رأوا أنها هيا

ولقد ظهر الزهد في العصر الاسلامي منذ ايامه الاولى وقد كانت في
حياة الرسول الاكرم والخلفاء الراشدين قدوة * واشتدت الحركة الزهدية
في العصر الاموي وذلك بتأثير عاملين أساسيين - كما يرى غولد زيهر -
وهما : المبالغة في الشعور بالاثم والخوف من عقاب الله وعذاب الآخرة *
وكان على رأس هذه الحركة الزهدية الحسن البصري الورع التقي الذي
عده الصوفية واحدا منهم * ملأ الدنيا وعظا وارشادا ، تزهدا في الدنيا
وترغيبا في الآخرة ، تشويقا الى الجنة وترهيبا من النار * قال : « يا ابن
آدم بع دنيا بأخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما
جميعا * يا ابن آدم ، اذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم
في الشر فلا تغبطهم به * الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل * *
فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء * * * » *

وكانت تلك النزعة الزهدية ردة فعل لحياة البذخ والترف واللهو
والمجون والغزل الاباحي الذي كان سائدا في المدن آنذاك ، كما جاء في

كتاب « شهيدة العشق الألهي » : « هناك مجلس الحسن البصري تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي مواعظه الضاربة في فيافي الزهد فيستدر الدمع من مآقي الحاضرين ، أو يستحيل الى مجلس ذكر تتردد فيه الاذكار الصافية والادعية الناضرة ... فاذا ما جن الليل وسكن الاحياء وجست خلال المدينة ترامت الى مسامعك انغام اللهو العنيف في نفس الوقت الذي يقرع اذنيك فيه تضرعات المتهجدين القاتنين • هنا اللاهون بمخرون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون يعزفون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون يستلهمون الموت والقبر افكارا وموضوعات للتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا » •

اما العصر العباسي فكان اولى من غيره بظهور الزهاد المتقين لما انتشر فيه من لهو وفسق ومجون ومن ترف وبذخ فائقين • فقد تحقق الاستقرار في هذا العصر بعد عناء الفتوح فعم الرخاء وانتشر الترف • فكانت بغداد عاصمة لدولة متسعة الرقعة متباعدة الاطراف ، تجبى الاموال لها من جميع الاصقاع • فكانت المبالغ الطائلة من الثروات ترد الى خزائن الخلفاء فتملؤها تبرا ولجينا ... وكان شطر كبير من تلك الثروات يوزع على المحظوظين من الشعراء والادباء والوزراء وكبار رجال الدولة الذين يلقون حظوة لدى صاحب العرش والتاج أو من معتمديه •

فازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة • فحفرت الانهار والترع وشيدت الجسور وبنيت السفن التي كانت تنقل التجار واموالهم الى اقاصى الارض ، وان من التجار من كانت قيمة بضاعته تبلغ الملايين من الدراهم • فلا غرو ان كانت الثروات الطائلة تتدفق على الدولة وعلى الافراد فينتشر الرخاء وتعم الرفاهية •

ف قيل ان المنصور خلف اكثر من اربعة عشر مليون دينار ، والرشد

تسعمائة مليون درهم • ومنح خالد البرمكي بشار بن برد الف درهم لكل بيت من قصيدته التي مدحه بها ، ووهب يحيى بن خالد اسحق الموصلي مائة الف درهم ، ووهب المهدي المغني ابن دحمان مائة الف دينار • وكانت توزع الجواهر والاموال في حفلات الزواج دون حساب • هذا بينما كان الكثيرون يئنون من الفقر ويبيتون على الطوى •

ولقد حملت الفتوح الاسلامية فيما حملت الرقيق من جوار وغلمان • فشاعت تجارته ، وتنافس الناس على اقتناء الجوارى والغلمان ، وتفنن النخاسون في جمع الرقيق من كلا الجنسين وغالى الناس في دفع اثمانهم • وقيل ان الرشيد بذل ثلاثين الف درهم في مغنية اسمها عنان ، وان الامين اشترى جارية بملء حراقة ذهباً أي ما يعادل عشرين مليون درهم • فاقضى الاغنياء اثر الملوك فقد كان لابراهيم الموصلي عدد من الجوارى بلغ ثمن احدهن ثلاثين الف دينار •

فاسبغت هؤلاء الجوارى على الحياة الاجتماعية مسحة الظرف والمجون وانتشرت مجالس اللهو والطرب ، وكان لتلك المجالس آدابها وظرفاؤها • فافتتن الناس بالجوارى واغرموا بالغناء واندفعوا وراء بنت الحان يكرعون منها الكؤوس مترعة • فعمت العصر موجة من التهتك والخلاعة وتماخر الناس باتيان المعاصي •

كل هذا حمل في ثناياه طلائع الردة الروحية التي تمثلت في حركة الزهد • فبادر بعض العقلاء والصالحين لبذل الجهد في سبيل صد هذا التيار الجارف بالدعوة الى التقى والتزهد بملذات الدنيا الاثيمة •

وكان على رأس هؤلاء اسماعيل بن القاسم المكنى بأبي العتاهية •

نشأ في عصر صراع حاد بين القوميات وبين المعتقدات وبين الآراء المتضاربة والفلسفات وبين سلوك أفراد المجتمع الصالحين والطلالحين • ففي

الوقت الذي كان بشار بن برد وابو نؤاس واضرابهما منغمسين في الملدات
والفسوق حتى الذقون نجد امثال ابراهيم بن ادهم والفضل بن عياض
ورابعة العدوية وغيرهم من دعاة الزهد والورع يملأون الدنيا صلاحا
ورشادا *

ولما كان القول في الغزل عاما في تلك الايام بين الشعراء لم يفت
شاعرنا ان ينظم في الغزل * حيث انه هوى احدى جواري المهدي واسمها
عتبة فآكثر من التغزل بها :

يا عَتْبُ سِيدَتِي اِما لَكَ دِين
حَتى مَتى قَلْبِي لَدَيْكَ رَهين
وَانا الذَّلُولُ لِكُلِّ ما حَمَلتَنِي
وَانا الشَّقِي البائِسُ المَسْكِين
وَانا الغَداءُ لِكُلِّ باكَ مَسْعَد
وَلِكُلِّ حَبِّ صَاحِبِ وِخْدِين
لا بَأْسَ اِنْ لَذاكَ عِنْدِي رَاحَةٌ
لِلصَّبِّ اِنْ يَلقَى الحَزِينِ حَزِينِ
يا عَتْبُ اِنْ اَفْرَمَنِكَ اَميرَتِي
وَعَلَى حَصَنِ مَن هِواكَ حَصِينِ

وقال في وصفها :

عِينِي عَلى عَتْبَةٍ مَنهَلَةٌ
بِدمعِها المَنسُكِ السَّائِلِ
كَأَنَّها مَن حَسَنها دَرَةٌ
اَخْرَجَها اليَمِّ الى السَّاحِلِ

كأن في فيها وفي طرفها
سواحر أقبلن من بابل
سقطت كفي نحوكم سائلا
ماذا تردون على السائل
ان لم تيلوه فقولوا له
قولا جميلا بدل النائل
لم يبق من جها ما خلا
حشاشة في بدن ناحل
يا من رأى قلبي قتيلا بكى
من شدة الوجد على القاتل

ولكن تغيرت أخلاق الشاعر عند ولاية الهادي بعد وفاة أبيه ، فلها
عن ذكر عتبة واخذ بالترهد وانغمر بدراسة المتكلمين وفلسفة اليونان
وأقوال الحكماء •

ولم يأت عصر الرشيد حتى اضرب عن كل قول عدا الزهد فقصر
شعره على النسك والتزهيد في الدنيا والتذكير بالموت • وفي ذلك قال
أبو العلاء المعري :

الله ينقل من شاة رتبة بعد رتبة
ابدى العتاهي نسكا وتاب عن عب عتبة

كان أبو العتاهية فصيح اللسان مطبوعا على الشعر حيث كان يقوله
على سجيته من غير تصنع أو اجهاد • قال الجاحظ : « سمعت ابا العتاهية
يقول : لو شئت ان يكون حديثي كله شعرا موزونا لفعلت » •

اما اسلوبه الشعري فكان يتصف بسهولة اللفظ ورشاقة التعبير •

ولقد اعجب به الكثيرون من النقاد والأدباء • ولقد وصف الخطيب
البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) شعر ابي العتاهية فقال : « وكان سهل
القول ، قريب المأخذ ، بعيدا عن التكلف ، متقدما في الطبع » • وقال
ابن الاثير في كتابه (المثل السائر) واصفا شعر ابي العتاهية : « وهذا
أبو العتاهية كان في عز الدولة العباسية ، وشعراء العرب اذ ذلك موجودون
كثيرا • واذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة الفاظ ولطافة سبك
وليس بركيك ولا واه » •

ولقد فتح ابو العتاهية بابا جديدا في الشعر العربي هو باب الزهد
لم يلجحه الا القلائل من الشعراء الذين سبقوه ، فصالح فيه صولة شاعر
قدير • فغرف الشعراء بعده من معينه الذي لا ينضب ، وكان له فضل
الاسبقية في هذا المضمار •

اما المعاني التي حام حولها أبو العتاهية فهي عبارة عن المسائل
الاخلاقية ، فيها الوعظ والارشاد ، وفيها الترغيب بالعمل الصالح ، وفيها
التنديد بالشرور والاثام واكتناز المال من حلال وحرام ، وفيها الحث على
الزهد في الدنيا والتذكير بالموت والترهيب من عواقب عدم اطاعة الله •

فحظى هذا الاتجاه بالقبول في نفوس الخاصة من الناس فاكبروا
الشاعر من اجله واجلوه واحلوه في مرتبة سامية بين اقرانه من الشعراء
الذين عاصروه •

يشعر القارئ اشعاره كأنه امام منبر واعظ يرشد الى سبل الخير
والصلاح بأسلوب شاعري رشيق يثير الاعجاب ويدخل الطمأنينة الى
النفوس بالرغم مما فيه من وعظ دائم التطرق الى بحث الموت ووصف
القبور •

واليكم بيتين من أبيات ابي العتاهية يتطرق فيهما الى التزهيد بالمال

والتنديد بمطامع الانسان وابطيل الحياة :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلّكم يصير الى تباب

لمن نبني ونحن الى تراب
نصير كما خلقنا من تراب

وقال :

اذا المرء لم يعتقد من المال نفسه
تملكه المال الذي هو مالكة

الا انما مالي الذي انا منفق
وليس لي المال الذي انا تاركه

اذا كنت ذا مال فبادر به الذي
يحق والا استهلكته مهالكه

وقال في التزهيد في الدنيا وغرورها :

الم تر ريب الدهر في كل ساعة
له عارض فيه النية تلمع

ايا باني الدنيا لغيرك تبتي
ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

ارى المرء وثابا على كل فرحة
وللمرء يوما لا محالة مصرع

تبارك من لا يملك الملك غيره
متى تنقضى حاجات من ليس يشبع

واي امرىء في غاية ليس نفسه
الى غاية اخرى سواها تطلع

وقال :

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء
كفأك بدار الموت دار فناء
فلا تعشق الدنيا أخي فانما
يرى عاشق الدنيا بجهنم بلاء

حلاوتها ممزوجة بمسرة
وراحتها ممزوجة بعناء

فلا تمش يوما في ثياب مخيلة
فانك من طين خلقت وماء

لعلك تلقى امر ربك شاكرا
وقل امرؤ يرضى له بقضاء
وقال يصف الدنيا بانها سراب زائل والتكالب عليها امر ياطل :

طلما حلا معاشي وطابا
طلما سحبت خلفي الثيابا

طلما طاعت جهلي ولعبي
طلما ناهزت صجلي الشرابا

طلما كنت احب التصابي
فرماني سهمه واصحابا

ايها الباني قصورا ظوولا
اين تبغي هنل تريد السحابا

انما انت بوادي المنايا
ان رماك الموت فيها اصابا
ايها الباني لهدم الليالي
ابن ما شئت ستلقى خرابا
أأمنت الموت والموت يأبى
بك والايام الا انقلابا
لو ترى الدنيا بعين بصير
انما الدنيا تحاكي السرابا
انما الدنيا كفىء تولى
وكما عاينت فيه الضبابا
وقال في ذم الدنيا :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها
تفارق ما قد غرَّها واذلها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذا
من الارض لو أصبحت املك كلها
فهل هي الا شبعة بعد جوعه
والا مني قد حان لي ان أملها
أرى لك نفسا تبتغي ان تعزها
ولست تعز النفس حتى تذللها
وقال في القناعة :

سأفنع ما بقيت بقوت يوم
ولا ابغى مكاترة بمال

تعالى الله يا سلم بن عمرو
اذل الحرص اغتاق الرجال

فما ترجو لشيء ليس يبقى
وشيكاً ما تغيره الليالي
وقال موجها اللوم الى نفسه ومحذرا اياها عن مغبة اطماعها :

حتى متى يستفزني الطمع
اليس لي بالكفاف متسع

ما افضل الصبر والقناعة
للناس جميعا لو أنهم قنعوا

واخذع الليل والنهار لاقوام
اراهم في الغنى قد رتعوا

لله در الدني فقد لعبت
قلمي بقوم فما ترى صنعوا

اثروا فلم يدخلوا قبورهم
شيئا من الثروة التي جمعوا

وكان ما قدموا لانفسهم
اعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الغنى في كل وجه فلم اجد
سبيل القنى الا سبيل التعفف

خليلي ما اكفى السير من الذي
نحاول ان كنا بما عف نكتفي

وما اكرم العبد الحريص على الندى
واشرف نفس الصابر المتعفف
ومن قول ابي العتاهية في التبرم من الناس واستئناسه بالوحدة :
بزمت بالناس واخلاقهم نصرت استأنس بالوحدة
ما اكثر الناس لعمرى وما اقلهم في حاصل العدة
ومن أقواله في التذكير بالموت ، فتراه يصور الموت الرهيب بصورة
صديق مؤاس ينقذ الناس من تقلب الزمان :

الا يا موت لم ار منك بدا
اتيت وما تحيف وما تحابى
كانك قد هجمت على مشيبي
كما هجم المشيب على الشباب
وانك يا زمان لذو صروف
وانك يا زمان لذو انقلاب
اراك وان طليت بكل وجه
كحللم النوم أو ظل السحاب
ولقد استشهده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده :

انساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا
اوثقت بالدنيا وان ت ترى جماعتها شتاتا
وعزمت منك على الحيا ة وطولها عزماتا
يا من رأى ابويه في من قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة ام خلت ان لك انفلاتا
ومن ذا الذي طلب النفا ت من منيته ففاتا

كل تصحبه المنية اذ تيته بياتا
وقال وهو يتعجب ممن لا يهتم بأخرته :
سبحان ربك ما اراك تتوب
والرأس منك بشيه مخضوب

سبحان ربك ذي الجلال اما ترى
نوب الزمان عليك كيف تتوب

سبحان ربك كيف يغلبك الهوى
سبحانه ان الهوى لغلوب

سبحان ربك ما تزال وفيك عن
اصلاح نفسك فترة ونكوب

سبحان ربك كيف يلتذ امرؤ
بالعيش وهو بنفسه مطلبوب

وقال منددا باولئك الذين لم تزددهم السنون عظة وعبرة ولم ينضج
التقدم في العمر الباهم :

خليلي كم من ميت قد حضرته
ولكنني لم اتفح بحضوري

ومن لم يزدده السن ما عاش عبرة
فذاك الذي لا يستتير بنور

اصبت من الايام لين اعنة
فاجريتها ركضا ، ولين ظهور

متى دام للدنيا سرور لاهلها
فاصبح منها واثقا بسرور

وقال :

ركنا الى الدنيا الدنيئة ضلّة
وكشفت الاطماع منا المساويا
وانا لترمى كل بعيرة
نراها فما تزداد الا تماديا
تُسْرُ بدار اورثنا تضاغبا
عليها ودار اورثنا تعاديا
اذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وان كان كاسيا
اخي كن على يأس من الناس كلهم
جميعا وكن ما عشت لله راجيا

وانشد ابو العتاهية في معرض الوعظ والارشاد :

ما احسن الدنيا واقبالها اذا أطاع الله من نالها
من لم يؤاس الناس من فضلها عَرَضَ للادبار اقبالها
وقال داعيا لعمل المعروف واصطناع الخير :

خير أيام الفتى يوم نفع
واصطناع الخير ابقى ما صنع
ونظير المرء في معروفه
شافع مَتَّ اليه فشفع
ما ينال الخير بالشر ولا
يحصد الزارع الا ما زرع

خذ من الدنيا الذي درت به
واسأل عما بان منها وانقطع

انما الدنيا متاع زائل
فاقتصد فيه وخذ منه ودع

وارض للناس بما ترضى به
واتبع الحق فتعم المتبّع

وابغ ما اسطعت عن الناس الغنى
فمن احتاج الى الناس ضرع

قد بلونا الناس في اخلاقهم
فرايتاهم لذي المال تبع

وقال داعيا للزهد والتقوى :

دعني من ذكر اب وجد
ونسب يعليك سور المجد

ما الفخر الا في التقى والزهد
وطاعة تعطى جنان الخلد

وقال بهذا المعنى :

الا انما التقوى هي العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد تقى نقيصة
اذا صحح التقوى وان حاك أو حجم

وقال يدعو الى خوف الله واطاعته :

ليس يرجو الله الا خائف
من رجا خاف ومن خاف رجا
قلما ينجو امرؤ من فتنة
عجا ممن نجا كيف نجا
ترغب النفس اذا رغبها
واذا زجيت بالشيء زجا

ولأبي العتاهية ارجوزة تعد من روائع الشعر قيل انها جمعت اربعة
آلاف مثل ، فقدت اكثر ابياتها ولم يصلنا الا النزر القليل • منها قوله :

حسبك مما تبقيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفا
من اتقى الله رجا وخافا

هي المقادير فلمني أو فذر
ان كنت اخطأت فما اخطا القدر
لكل ما يؤذى وان قل ألم
ما اطول الليل على من لم ينم

ما انتفع المرء بمثل عقله
وخير ذخره المرء حسن فعله
ان الفساد ضده الصلاح
ورب جيد جره المزاح
ان الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء أي مفسده

ما تطلع الشمس ولا تغيب
الا لأمر شأنه عجيب

لكل شيء معدن وجوهر
واوسط واصغر واكبر

وكل شيء لاحق بجوهره
اصغره متصل بأكبره

ما زالت الدنيا لنا دار اذى
ممزوجة الصفو بألوان القذى

ومن اشعاره قصيدة يذكر فيها الانسان ان مصيره الزوال وان الناس
يسونونه حالما يستودعونه الارض ويوارونه التراب . قال :

فاذا ما استودعوه الارض رهنا تركوه
خلفوه تحت رسم او قروه ، اقلوه
ابعدوه ، اسحقوه اوحده ، افردوه
ودعوه ، فارقوه اسلموه ، خلفوه
واتنوا عنه وخلو . كأن لم يعرفوه

وقيل ان هارون الرشيد كان مما يعجبه غناء الملاحين في الزلات اذا
ركبها . الا انه كان يتألم من فساد كلامهم ولحنهم . فطلب ان يوعز لبعض
الشعراء نظم شعر يغنيه الملاحون . ف قيل : ليس احد اقدر على هذا من
ابي العتاهية . فوجه الرشيد اليه - وكان في السجن - طلبا لان ينظم
شعرا يشدو به الملاحون ، ولم يأمر باطلاق سراحه ، فغاضه ذلك وقال :
والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يُيسرُ به . ولما ركب الرشيد الحراقة سَمِعَ
الملاحين يغنون ما يلي وهو الشعر الذي نظمه أبو العتاهية :

خاتك الطرف الطموح	ايها القلب الجموح
لدواعي الخير والش	ر دُنُوٌّ ونزوح
هل لمطلوب بذب	توبة منه نصوح
كيف اصلاح قلوب	انما هن قروح
احسن الله بنا	ان الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا	بين ثوبه فضوح
كم رأينا من عزيز	طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل	صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الار	ض على قوم فتوح
سيصير المرء يوماً	جسدا ما فيه روح
بين عيني كل حي	علم الموت يلوح
كلنا في غفلة وال	موت يغدو ويروح
لبنى الدنيا من الذر	يا غبوق وصبوح
رحن في الوشى وأقبل	من عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر	ر له يوماً نطوح
نح على نفسك يا مس	كين ان كنت تتوح
لست بالباقي وان عم	رت ما عمّر نوح

فلما سمع الرشيد ذلك أخذ يبكي ويتحب ، وكان الرشيد من اغزر
الناس دمعا في وقت الموعظة • ولما رأى وزيره الفضل بن الربيع كثرة
بكائه اوماً الى الملاحين ان يسكتوا •••

واليكم مقطوعة شعرية كتبها الى هارون الرشيد الذي كان قد نوانى
في اخراجه من السجن وفيها ما فيها من النصيح والارشاد والتذكير بالموت
والتوجيه الى العمل الصالح :

أما والله إن الظلم لُومُ
وما زال المسىء هو الظلوم
إلى دَيَّان يوم الدين نمضى
وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالي
وأمر ما تُولَّيت النجوم
تموت غدا وانت قرير عين
من الغفلات في لجج تعوم
تمام ولم تتم عنك المنايا
تنبه للمنيّة يا نؤوم
سل الأيام عن أمم تقضت
ستخبرك المعالم والرسوم
تروم الخلد في دار المنايا
وكم قد رام غيرك ما تروم

هذا ونهي بحشنا بمقطوعة شعرية جمع فيها أبو العتاهية فلسفته
في الحياة :

رغيف خبز يابس	تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد	تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة	نفسك فيها خاليه
او مسجد بمعزل	عن الورى في ناحيه
تدرس فيها دفتر	مستندا بساريه

معتبراً بمن مضى من القرون الخالية
خير من الساعات في فيء القصور العاليه
تعقبها عقوبة تصلى بنا حاميها
فهذه وصيتي مخبرة بما ليه
طوبى لمن يسمعها تلك لعمري كافيه
فاسمع نصيح مشفق يدعى ابا الغاويه

الفلسفة في شعر العربي

تفرد هذا الشاعر العملاق من بين الشعراء القدامى ونسج على منوال آخر يختلف عما افه اولئك من طرائق ومذاهب • فهو نسيج وحده بين القدماء وسابق لاوانه دون سائر الشعراء ، فوجه شعره وجهة تباين ما افه الشعراء قبل من مدح وفخر وتزلف وهجاء • • فلم يكن شعره يدور حول نفسه لاشباع مطامعه كما كان شعر الآخرين بل تسامى الى مراقبي العظمة النفسية ، فزهده في الدنيا ولم تستهوه مفاتها أو يخلب له لألأوها • واعتكف مجيلا النظر الى ما حوله ، باحثا عن سر الوجود ، محللا الروح البشرية ، ومنتقدا سوءات المجتمع ، وموجها الانسان الى الخير والصلاح • لقد انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحر الى الكون والى المجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد وعلى الاوهام وسخر بكل ما افه الناس من بدع وترهات وهو القائل :

كأن حواء التي زوجها
آدم لم تلقح بشخص اريب

قد كثرت في الارض جهائنا
والعاقل الحازم فينا غريب

لقد تميز شعر العربي بالاغراب والتكلف شأنه شأن المدرسة التي تضم فيما تضم من الشعراء ابا تمام والمتنبي وغيرهما ، وهو يأتي في المكان

الأول من حيث وضوح الشعور وصفائه وقوته كما امتاز ادبه ، في شعره
ونثره ، بأسلوبه الساخر اللاذع هذا ولما رأى المعري الجنس البشري
في كيانه الفردي وكيانه الاجتماعي على غير ما اراده ان يكون صار ينظر
الى الوجود الانساني بمنظار قاتم من التشاؤم . فاتجه تفكيره الى نزعة
التقد ، والى تجريد الواقع ، والى تعرية الحقيقة من كل ملاساتها . فلم
تسلم حتى نفسه من القدح والتقريع في بعض ثوراته النفسية حيث قال :

دُعيتُ ابا العلاء وذاك ميسن

ولكن الصحيح أبو النزول

اما الصفة السائدة في شعر ابي العلاء فهي تأملاته الفلسفية ، فكان
دوماً معنياً في تقصي الحقائق عن حياة الانسان بوجه خاص ؛ فكان يتجه
اليها بنفسه وعقله ، ويبدل لها الحظ الاوفر من عواطفه وتأملاته . . . لم
خلق الانسان ؟ وكيف يواجه الحياة ؟ وما هي المؤثرات التي تؤثر في
سلوكه ؟ والى اين مصيره ؟ . . . انها مشاكل عالجهما الفلاسفة بقولهم
فاشبعوها بحثاً وتمحيصاً بصورة منظمة دسمة ترضى العقل والمنطق .
ولكنها في تأملات ابي العلاء صدى لانسانيته فيتحدث عنها بعقله وروحه
وقلبه معا . . .

هذا ولما كان المعري مشغول الفؤاد بمشاكل الفلسفة ومعضلات
الوجود فلا ريب انه اصطدم اول ما اصطدم بمشكلة « المعرفة » والوسائل
المؤدية اليها . ولقد جاء بكتاب ابي العلاء في الفصول والغايات ما يلي :
« يدرك العلم بثلاثة أشياء : بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر
المتواتر . . » أي ان التوصل الى المعرفة يجري بطرق ثلاث : (١) العقل
(٢) الحس (٣) النقل . .

لقد كان ايمان المعري بالعقل وبقدرته على التوصل الى الحقائق وحل

المشاكل ايمانا شديدا • فالبح في الدعوة الى الائتمام به والاهتداء بهديه •
فالعقل هو المرشد ، وهو الهادي ، وهو السبيل الحق الى المعرفة ، وهو
الاداة لحل طلاس هذا الكون واجلاء اسراره •• قال :-

فكروا في الامور يكشف لكم
بعض الذي تجهلون بالتفكير
وقال :-

ولم يتناول درة الحق غائص
من الناس الا بالروية والفكر
وقال محذرا من نبذ العقل وعدم الاهتداء بهديه :-

فاحذر ولا تضع الامور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر
وقال :-

تركت مصباح عقل ما اهتديت به
والله اعطاك من نور الحجا قسبا
وقال :-

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه
شيئا ، ومنه بنو الايام تغترف
وقال :-

كذب الناس لا امام سوى العف
ل مشيرا في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحم
ة عند المسير والارساء

وأما الحسن والنقل فقد جعلهما المعري في المرتبة الثانية إذ جعلهما
مقيسين على العقل • فما أقره العقل فهو مقبول ، ومرفوض ما أنكره العقل •
قال :-

وما تريكمرائي العين صادقة
فاجعل لنفسك مرآة من الفكر
وقال :-

جاءت أحاديث ان صحَّتْ فان لها
شأنا ، ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا
فالعقل خير مشير ضمه النادي

ولقد قاد المعري اعتماده على العقل الى الاعتقاد بان الخير انما هو
وليد المعرفة كما قال ذلك افلاطون من قبله • ارتأى افلاطون ان المعرفة
تقود الى الخير ، ولما كانت المعرفة وليدة العقل الرشيد والفكر السديد ،
ففي رأيه ان العقل اذن لا بد مؤد الى الخير والصلاح ، وان الاثم والخطيئة
ان هما الا وليدا العقول السقيمة التي لا تنفذ الى حقائق الاشياء •

استطاع ابو العلاء بثاقب بصيرته ان يدرك عيوب المجتمع في جملتها
وتفصيلها ، ويعالج ظواهرها • وانغمر في النفس الانسانية في دقة وتحليل
فوصل الى دخائلها • • وكان سبب نجاحه ان الامور الاجتماعية والاخلاقية
التي فقدتها في صميم اختصاص العقل • • فالعقل اداة صالحة لربط
الاسباب بالمسببات • والامور الاجتماعية والاخلاقية هي سلسلة من تجاريب
وتأثيراتها • • فالحكام ان ظلموا ساءت أحوال الرعية ، وان هم عدلوا
صلحت أحوالها • •

ولما كان العالم حافلا بألوان الشر والأذى فقد أفاض أبو العلاء في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه • وأصبح مغرقاً في الشاؤم ، دقيق الحس لما في العالم من شر واذى ، صادق الحزن لما يصيب المخلوقات من ضر والم • قال في اللزوميات :-

ارى دنياك خالطها قذاها
وأعيت أن يهذبها مصفَى
وقال :-

في كل ارض صروف غير هازلة
يلعبن بالناس افرادا وازواجا
ورأى شاعرنا في هذا العالم اصنافا من الشر عديدة عجز عن تأويلها
ووقف امامها حائرا يجهل الحكمة في خلقها فقال :-

والله يقدر ان يفنى بريته
من غير سقم ، ولكن جنده العلل
وقال :-

لييب القوم تألفه الرزايا
ويأمر بالرشاد فلا يطاع
فلا تأمل من الدنيا صلاحا
فذاك هو الذي لا يستطيع
وقال وهو حائر في الحكمة من الحرب وسفك الدماء :-

والله اذا خلق المعادن عالم
أن الحداد البيض منها تجعل (١)

(١) الحداد البيض : السيوف •

سفك الدماء بها رجال اعصموا
بالخيل تلجم بالحديد وتعل
وقال أيضا وهو ممتعض من رؤيته الارزاق تُغْدَق على البعض دون
حساب ، ويحرم منها الكثيرون من المحتاجين :-

وقد يرزق المجدود أوقات امة
ويحرم قوتا واحد وهو احوج

وثارت ثائرة نفس المعري وهو يرى المظالم الاجتماعية التي ترك
الكفاءات والصفات العالية والالباب الرشيدة في قلة من رزقهم وتغدق
العطاءات على كل مغمور طائش احمق ، فقال :-

وما زالت الاقدار تترك ذا النهى
عديما ، وتعطي منية النفس غمرها

ولقد اعلى المعري شأن العقل كما ذكرنا فاستخدمه بنقد العادات
والتقاليد والنظم الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره ، فقال :-

مُلَّ المقام فكم اعاشر امة
أمرت بغير صلاحها امرأؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وقال بنفس المعنى :-

اذا ما تبينا الامور تكشفت
لنا وامير القوم للقوم خادم
فاتقد اولئك الحكام الذين يصدرن الاوامر التي لا تتفق مع احكام

العدالة والانصاف ، فينفذون اوامرهم بقوة النار والحديد وبحد الحسام •
فاذا ما نفذت اوامرهم قيل ما اجودهم سياسة! ••• فقال :-

يسوسون الامور بغير عقل
فينفذ امرهم ويقال سياسة

فأف من الحياة وأف مني
ومن زمن رئاسته خسارة

ولقد زاد في الم المعري ان يرى الحكام المسيطرين الذين نقصتهم
الحكمة ، واعوزهم العدل والذين هم شياطين في ثياب ولاة لا يهمهم جوع
الناس ومسغبة الرعية ما دامت بطونهم ملاءى ورؤوسهم منتشية ، فقال :-

ساس الانام شياطين مُسَلَّطَة
في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خص الناس كلهم
ان بات يشرب خمرا وهو مبطان

وكان مما اثار حفيظة شاعرنا الانساني ان يرى حول اولئك الولاة
بطانة جمدت عواطفهم فأصبحت كأنها حجارة او اشد قسوة ، لا يرحمون
مظلوما ولا يستجيبون لصرخة مستغيث ، فقال :-

يجوز فينفى الملك عن مستحقه
فتسكب اسراب العيون الدوامع

ومن حوله قوم كأن وجوههم
صفا لم يُلَيَّنْ بالغيوث الهوامع

ولقد انغمز المعري في ميدان الحرب الضروس القائمة بين القائلين

بان الشر كالخير من خلق الله ودليلهم على ذلك ان عكسه يحد من قدرة الخالق ، وبين اولئك الذين يدعون ان الشر هو من صنع الانسان ولا شأن للخالق به ودليلهم على ذلك تنزيههم للباري من صنع الشر .

ولقد ايد المعري المنحى الاول ، مذهب الجبرية ، فقال :-

والله اختار البقاء وطوله
الا لشر عباده ابليا

وقال :-

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها
فان شد منا صالح فهو نادر

وما فسدت اخلاقنا باختيارنا
ولكن بأمر سببته المقادر

وقال :-

ولست بفاتح للرزق بابا
اذا أيدي الحوادث اغلقته

ومن يظفر بأمر يتغيه
فاقضية المهيمن وقتته

فليس لبني الانسان تخير في حياتهم وسلوكهم ومماتهم . فكلها مقدره منذ الازل . وليس للانسان القدرة الا ان يقدر غير ان الفلك المسخر دائر فتضحك الاقدار . قال المعري :-

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى
ولا حياتى ، فهل لى بعد تخير

وقال :-

تبارك رب الناس ليس لما أبى
أمريد^(١) ، ولا دون الذي شاء حابس

وقال :-

ما حرَّكتَ قدم ولا بسطت يد
الا لها سبب من المقدار

وقال :-

لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل
اذا قضى مالك الافلاك أنضاني^(٢)

وان كهمت^(٣) فأمر الله اكهنني
وان مضيت فأمر الله امضاني^(٣)

وقال أيضا :-

تقفون والفلك المسخر دائر
وتقدرون فتضحك الاقدار

هذا وان اعتقاد المعري بمذهب الجبرية قاده الى الشك بامر الثواب
والعقاب ، لان من كان مجبرا على فعل شيء فمن الظلم ان يعاقب على
فعله ، كما قال :-

ان كان من فعل الكبائر مجبرا
فمقابه ظلم على ما يفعل

(٢) انضاني : هزلني ، بلاني .

(٣) كهمت : جبن وخاف . مضى : أقدم .

والله ، اذ خلق المعادن ، عالم
أن الحداد البيض منها تجعل
سَفَكََ الدماء بها رجالٌ اعصموا
بالخيل تلجم بالحديد وتعمل
لا تسمى في نار الضمير فراشة
فضغائن الصدر الحريق المشعل

ولقد غالى أبو العلاء في جبريته حتى لقد اقتنع ان نفس الانسان
مجبولة على الشر الذي هو غريزة قوية من غرائزه • فالانسان والحالة
هذه مغلوب على امره ولا يملك الخير لنفسه • قال في اللزوميات :-

جسمي انجاس فما سرني
أني بمسك القول ضُمَّخْتُ

من وسخ صاغ الفتى ربه
فلا يقولنَّ توسخت

وقال :-

والشر في الجسد القديم غريزة
في كل نفس منه عرق ضارب

وقال :-

فكيف لا تخبت النفس التي جعلت
من جسمها ، في وعاء كله دنس

وقال :-

ان الضلالة كالغريزة فيكم
ياوى اليها كهلكم وفتاكم

وقال :-

فلا تغدنا ، كلنا ابن لئيمة
وهل تغذب الاثمار ان لؤم الغرس

وقال :-

مهجتي ضدٌ يحاربني انا مني كيف احترس

وقال :-

نهائى عقلي عن امور كثيرة
وطبعي اليها بالغريزة جاذب
ولقد افرط المعري في مغالاته في شرور النفس البشرية وعزاها الى
قوى قاهرة لا سبيل الى مقاومتها ، فقال :-

واذا غدوت على القضاء مغالبا
أذناك تستمري وانفك يرغم

وقال :-

ارتاحت النفس بتطهيرها وربها قاض بتدنيها
وقال :-

لم يقدر الله تهديبا لعالمنا
فلا ترومنَّ للاقوام تهديبا

وقال :-

قضى الله فينا بالذي هو كائن
فم وضاعت حكمة الحكماء

وهل يابق الانسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسماء^(٤)

(٤) أبق : فر وهرب .

وقد جنح الى القسوة في تأنيب المذنبين من بني آدم وتقريرهم ،
فقال :-

ارى الناس شراً من زمان حواهمُ
فهل وُجِدَتْ للعالمين حقائق
فقد كذبوا عن ساعة ودقيقة
وما كذبت ساعاتهم والدقائق
وقال :-

هل يغسلُ الناسَ عن وجه الثرى مطرٌ
فما بقوا ، لم يبارح وجههم دنس
والارض ليس بمرجوةً طهارتها
الا اذا زال عن آفاقها الأانس
ولقد ضاق المعرى بالناس واعتكف عنهم وتحاشى قربهم وزاد في
تعنيفهم مستكراً ما يقترفون من آثام ، اذ قال :

اذا حضرت عندي الجماعة اوحشتُ
فما وحدتي الا صحيفةً ايناسي
طهارةً مثلي في التباعد عنكم
وقربكم يجنى همومي وادناسي
وقال :-

فؤادك خفّاق ، وبرقك خافق
واحيائك في الدنيا خليل موافق
تخيّر ، فأماً وحدةً مثل مية
وأماً جليس في الحياة منافق

وقال :-

فأوسع بنى حواء هجرأ فانهم
يسيرون في نهج من الغدر لاجب

اذا ما أشار العقل بالرشد جرهم
الى الغي طبع أخذه غير صاحب

وقال :-

وماذا يتغى الجلساء مني
ارادوا منطقي وارتد صمتي

ولقد اشتد تشاؤمه من الحياة ، وازداد تبرمه من المجتمعات
البشرية وهو يشاهد ما فيها من ظلم وعدوان ، ومن فقر ومرض وآلام فاخذ
يلوم الدهر الخؤون ، فقال :-

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البرية أن يكوا

تحطّنا الايام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعادله سبك

وقال :-

خسئت يا أمنا الدنيا فأف لنا
بنو الخميسة ، اوباش اخساء

بموج يحرك والأهواء غالبه
لراكيبه فهل للسفن ارساء ؟

واشتدت مرارته من الحياة وظهر في اشعاره انين مكبوت ، وتبرم

من الحياة ، سائلا القدر ان يعجل بورود الاجل ، فلقد سئم المقام في دنيا
مرهقة مملوءة بالموبقات والآثام ، فقال :-

ربّ متى أرحل عن هذه الد
نيا فاني قد اطلت المقام

لم ادري ما نجمي ولكنه
في النحس مذ كان ، جرى واستقام

فلا صديقي يترجى يدي
ولا عدوى يتخشى انتقام

والعيش سقم" للفتى منصب
والموت يأتي بشفاء السقام

وقال :-

رغبنا في الحياة لفرط جهل
وفقد حياتنا حظاً رغب

وقال :-

تعب كلها الحياة فما اع
جب الا من راغب في ازدياد

ان حزنأ في ساعة الموت اضعا
ف سرور في ساعة الميلاد

وقال :-

ضجعة الموت رقدة" يستريح ال
جسم فيها والعيش مثل السهاد

★ ★ ★

لقد كان المعري ، الفيلسوف الشاعر ، يمثل العقلية الفلسفية احسن تمثيل وذلك باعتماده على العقل واتباعه سنة التشكك في سبيل التوصل الى اليقين ، وباخلاصه للحقيقة وتفانيه في سبيل اكتشافها ؛ فالحقيقة غاية كل مفكر حكيم ..

ولا غرو ان من كانت له عقلية المعري واتجاهه الفكري الذي يعتمد على العقل اعتمادا كلياً ويعتبره نبياً لا يأتيه الباطل من خلفه او من بين يديه كما قال :-

ايها الغرُّ ان خُصِّصْتَ بعقل
فاسألنهُ فكل عقل نبي

لا بد ان يتخذ الشك مفتاحاً لليقين ، فيبدأ بالشك في كل شيء املاً في ان يصل بصيرته الى الحق اليقين .

ولكن هناك شيئ لم يتسرب اليهما الشك في نظر المعري وهما (١) الله ، الخلاق الحكيم ، جوهر الكون وروحه الازلية . (٢) مصير الانسان وكل كائن حي الى الموت والفاء .

فقال في الله تعالى :-

بوحداينة العلام ديني
فذرني اقطع الايام وحدي

سألت عن الحقائق كل يوم
فما أقيت الا حرف جحد

سوى أنني ازول بغير شك
ففي اي البلاد يكون لحدي

وقال :-

وان سألوا عن مذهبي ، فهو خشية
من الله ، لا طوقاً ابث ولا جيرا
وقال :-

لما تينت طول الدهر طال به
فكري فاشعر هذى النفس اقصارا
يا لهف كم مدن املك غدون فلا
فيه ، وكم فلوات عدن امصارا
والله اكبر لا يدنو القياس له
ولا يجوز عليه كان اوصارا
وقال في الحمام الذي يسبح الله :-

عيان قيناتنا من تحت ارجلها
وعود قيتكم في حجرها باتنا
وماحكين النصارى في لباسهم
ولابغين ، كأهل السبت ، اسباتنا
لكنهن ضيفات بمزعمنا
ذكرتنا الله تمجيذا واحتاتنا
يثبتن رباً قديراً لاخفاء له
وما عمدن لغير الله اثباتنا
وقال في الموت الذي هو المصير المؤكد لكل انسان :-

يدوم القديم آله السماء
ويبقى باقداره ما حدث

وما أرغب المرء في عيشه
ولكن قصاراه سكنى الجذث

وقال شارحا رأيه في ان مصير الانسان الى البلى والفناء :-

إذا الحيُّ ألبسَ أكفانه
فقد فنى اللبس واللابس

ويبلى المحيّا فلا ضاحكٌ
إذا سرَّ دهرٌ ولا عابس

ويحبس في جذثٍ ضيقٌ
وليس بمطلقه الحابس

يجاور قوماً اجادوا العظات
وما فيهم احد نابس

وقال بروحه التشاؤمية واصفاً سوءات اتصال الروح بالجسد :-

فبعُدًا لهذا الجسم ، يا روح ، مسلّكًا
وبُعُدًا لهذى الروح ، يا جسم ، سالكا

تواصلتما فاستحدث الوصلُ منكما
عجائبَ ، كانت للرجال مهالكا

* * *

وفيما عدا ذلك فلم تسكن نفسه الى ايمان ، ولم يسترح اليه عقله ،
وانما كان مضطربا في امره اشد الاضطراب ، ومعذبا دائما اشد العذاب .
ولقد درس المعرى مختلف الاديان ، كما درس كتب الفلاسفة واطلع على
آرائهم ونظرياتهم . فكان الاختلاف بين تلك الاديان والآراء الفلسفية قد

غذى شكوكه • فظل في حيرة بامر ماهية الروح والبعث والنبوة كما بقى
حائرا امام معميات الطبيعة والغاز الحياة •

فما هي الحياة ؟ وما هي تلك القوة الحياتية التي اذا ما حلت بالمادة
الجامدة تجعل منها كائنا حيا ، وعندما تزول يعود الكائن الحي الى كتلة
جامدة لا اثر فيها للحياة ؟

والذي حارت البرية فيه
حيوان " مستحدث " من جماد
وقال :-

خَفَّفَ الوطاء ما اظنُّ اديم الـ
أرض الآ من هذه الاجساد
وقال :-

عمل " كلا عمل ووقت " فائت
ويد " اذا ملكت رمت ما تملك
وشخص ' أقوام تلوح ، فامة
قدمت مجددة ، وأخرى تهلك
اما الجسوم ' فلتتراب مآلها
وعيت ' بالارواح أننى تسلك
ولقد اشتدت بفيلسوف المعرة الحيرة فيما عسى ان يكون بعد الموت
وما يحدث للروح وللجسد بعد ان يهال على الميت التراب ••
قال :-

والروح ' شيء لطيف " ليس يُدركه
عقل ويسكن من جسم الفتى حرجا

سبحان ربك هل يبقى الرشاد له
وهل يحسّر بما يلقى اذا خرجا
قالت معاشر يبقى عند جثته
وقال أناس : اذا لاقى الردى عرجا
وقال :-

ان يصحب الروح عقلي بعد مظعنها
للموت ، عني ، فأجدر أن ترى عجبا
وان مضت في الهواء الرحب هالكة
هالك جسمي في تربي فواشجبا
وقال :-

والروح ارضية في رأى طائفة
وعند قوم ترقي في السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذي سكنت
فيه ، الى دارِ نعمي أو شقاوات
وقال :-

سنؤوب في عقبى الحياة مساكنا
لا علم لي بالامر بعد ما بها
وقال :-

سأرحل عن وشك ولست بعالم
على اي امر ، لا ابالك ، أفدم
وقال :-

بنون كآباء ، وكم برح الردى
بضب على علاته وبنون

دفنهم في الارض دفن تيقن
ولا علم بالارواح غير ضنون

وقال :-

اذا حرق الهندي بالنار نفسه
فلم يبق لحم للتراب ولا عظم

فهل هو خاش من نكير ومنكر

وضغطة قبر لا يقوم له نظم

وفي هذا الموقف الحائر لم يستطع ابو العلاء ان يطمئن الى شيء ،

وود لو ان مخبر صدق ينقذه من حيرته وينبئه بالخبر اليقين •• قال :-

لو جاء من اهل البلى مخبر

سألت عن قوم وأرخت

هل فاز بالجنة عمالها

وهل ثوى في النار نوبخت

وقال :-

لو كان ينطق ميّت لسأته

ماذا أحسن وما رأى لما قدم

وقال :-

يا ساكني الارض كم ركب سألتهم

عما فعلتم ، فلم أعرف لكم خبرا

وقال :-

وقفت على اجداثهم وسألتهم

فما رجعوا قولا ولا سألوكا

وكان المعري متشككا في البعث وما يرافقه من ثواب وعقاب • فله

اشعار تشير الى اعتقاده بالبعث :

وقدرة الله حق ليس يعجزها
حشر لخلق ولا بعث لاموات
وقال :-

ما أقدر الله ان يدعى بريقه
من تربهم فيعودوا كالذى كانوا
وتودع الناس في بطن الثرى نوب
خفض ورفع وتحريك واسكان

ان كان رضوى وقدس غير دائمة
فهل تدوم لهذا الشخص اركان ؟

ما احسن الارض لو كانت بغير اذى
ونحن فيها لذكر الله سكان
قد يمكن البعث ان نادى المليك به
وليس منا لدفع الشر امكان
وقال :-

قال المنجم والطيب كلاهما
لا تحشر الاجساد قلت اليكما

ان صح قولكما فليست بخاسر
اوصح قولي فالخسار عليكمما
كما ان له اشعارا يشم منها نفيه للبعث ، اذ قال :-
اذهني طال عهدك بالصقال

وماج الناس في قيل وقال

ستطلقني المية عن قريب
فاني في أسار واعتقال

إذا انتقلت^ه عن الأوصال نفسي
فما للجسم علم^ه بانتقال

اسير فلا اعود وما رجوعي
وقد كان الرحيل رحيل^ه قال

امور يلتبس^ن على البرايا
كأن العقل منها في عقل

وقال :-

سأرحل عن وشك^ه ولست^ه بعالم
على أي^ه أمر^ه ، لا ابالك ، اقدم

وقال :-

دولاتكم شمعات يستضاء بها
فبادروها الى ان تطفأ^ه الشمع

والنفس تفتى بانفاس مكررة
وساطع النار تخبي^ه نوره اللمع

وقال :-

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة^ه
وحق^ه لسكان البرية ان يبكوا

تحطمتنا الايام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد له سبك

* * *

وان عدم ايمان المعري بالنبوات مصدر حيرته وبلبلته .. والشك
في امر اذا لم يعقبه يقين يكون مصدر قلق وشقاء مستديمين .. قال :-

مر الزمان فاضحى في الثرى جسد
فهل تملى رجال بالملاوات
والروح ارضية في رأى طائفة
وعند قوم ترقى في السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذي سكنت
فيه الى دار نعمى او شقاوات
ولا تطيعنّ قوما ما دياتهم
الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حملَ التوراة قارئها
كسبُ الفوائد لا رجبُ التلاوات
ان الشرائع القت بيننا احنأ
وأودعتنا أفانين العداوات
وهل أبيضت نساء الروم عن عرض
للعرب الا بأحكام النبوات
وقال :

ومتى ركبت الى الديانة غالها
فكر على حسن الضمير دسائس
والعقل يعجبُ والشرائع كلها
خيرٌ يُقلدُ لم يقسه قانس
تمجسون ومسلمون ومعشر
متنصرون وهائدون رسائس

ويوت نيران تزارُ تبعُدًا
ومساجد معمورة وكنائس
والصائبون يعظمون كواكبا
وطباعُ كلِّ في الشرور جبايس
أنى ينال أخو الديانة سؤددا
ومأرب الرجل الشريف خسائس
وإذا الرئاسة لم تُعَنَّ سياسة
عقلية خطيء الصواب السائس
وقال :

هفت الحيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجوس مُضَلَّه

اثنان أهل الارض : ذو عقل بلا
دين وآخرُ دينٌ لا عقل له
وقال :

دينٌ وكفر وأنباءُ تُقَصُّ وفر
قان ينص وتوراة وانجيل

في كل جيلٍ اباطيلٌ يُدانُ بها
فهل تفرَّدَ يوماً بالهدى جيل ؟
وقال :

افيقوا افيقوا يا غبوة فانما
دياناتكم مكرٌ من القدماء
ارادوا بها جمع الحطام فادرکوا
وبادوا وماتت سنة اللؤماء

يقولون ان الدهر قد حان موته
ولم يبق في الايام غير ذمائه
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء
وقال :

فقد طال العناء فكم تعاني
سطورا عاد كاتبها بطمس^(٥)
دعا موسى وزال وقام عيسى
وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دين "غير" هذا
فاودى الناس بين غد وامس
اذا قلت المحال رفعت صوتي
وان قلت اليقين اطلت همسي

ففي نظر المعري ان الصوت لا يرفع الا بالمحال ، اما اليقين فلا يذكر
الا همسا ، لان الحقيقة ضائعة ما بين ادعاء هذا وادعاء ذلك ، قال :-

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كل يعظم دينه ياليت شعري ما الصحيح
* * *

ولقد كانت حيرة المعري عنيفة في امر الاديان وكيف ان الغالبية
العظمى من معتقي الاديان لم يهتدوا اليها بتفكيرهم ، انما نشأوا عليها
مجبرين غير مخيرين ، حيث ان الاطفال يشبون عادة على دين ذويهم ،
كما قال :-

(٥) طمس : الزوال والاستئصال .

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عودته أبوه

وما دان الفتى بحجى ولكن
يعلمه التدين اقربوه (٦)

وطفل الفارسي له ولاة
بأفعال التمجس دربه

ولقد ظل المعري في هذا الشك المرهق والموقف الحائر يدور في
دوامة بين الشك واليقين وبين النفي والاثبات •• قال :-

القدس لم يُفرض عليك مزاره
فاسجد لربك في الحياة مقدسا

اصبحت في يومي أسائل عن غدى
متخبّرا عن حاله متدسا

اما اليقين فلا يقين ، وانما
اقصى اجتهادي ان اظن واحدا

لقد خلص ابو العلاء في تأملاته الى الاعتماد كليا على العقل المؤدى
الى الخير والصلاح • وكان هدفه اقامة العدل بين الناس •

دعا الى تحكيم العقل في شؤون الدين والدنيا ، والخير والشر ،
والصحيح والفساد ، والمعقول والمنقول • فالعقل في نظره هو القادر على

التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ، وهو المرشد الى طريق
الصواب •

وقد آلمه ان يرى بعض اولى المنابر وقد حادوا عن سواء السبيل
واخذوا لا يذكرون الخير الا همسا ، قال :-

(٦) بحجى : بعقل وبصيرة •

والخير يهمس بينهم ويقام للسوءات منبر

وحز في نفسه ان يرى العلاقات الاجتماعية مبنية على أساس من
الظلم الاجتماعي • فذو العقل يشقى بعقله ، واخو الجهالة ينعم بجهله •
ولقد كبر عليه ان يرى كل تلك المآسي والآثام التي تزخر بها المجتمعات ،
وصعب عليه التوفيق بين وجودها وبين حكمة الخلق •• فخرجت من بين
جنباته صرخة حرى تظهر مدى حيرته :-

تباركت يا رب العلاء أنت صغتها
فليتك في ارزائها لم تبارك

وقال :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه
وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الالباب حائرة
وصير العالم التحرير زنديقا
وقال أيضا :-

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل
وترزق مجنونا وترزق احمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء
رأى منك ما لا يشتهي فترندقا

ولقد وصف المعري الدين بانه ترك الشر وعمل الخير وانصاف الناس
واتباع الحق والعدالة أكثر منه تأدية الطقوس والعبادات • قال :

الدين انصافك الاقوام كلهم
واى دين لآبى الحق ان وجبا

والمرء يعيه قود النفس مصحبة
للخير وهو يقود العسكر اللجبا

وقال :

ما الخير صوم" يذوب الصائمون له
ولا صلاة" ولا صوف" على الجسد

وانما هو ترك' الشر' مطرّحاً
ونفضك الصدر' من غل' ومن حسد

وهنا نصطدم بالمعضلة التي كثيراً ما اختلف بشأنها النقاد ، وهي هل
المعري شاعر أو فيلسوف • فقد انكر البعض شاعريته بحجة انه شد عن
بقية الشعراء بأسلوبه واغراضه والتصدي للمسائل العقلية والامور الجدية
في شعره ولما اتصف به شعره من وفرة المعاني وازدحامها فيه • وقد انكر
البعض الآخر عليه فلسفته باعتباره انه لم يكون له نظرية فلسفية مرتبة ترتيباً
منهجياً منطقياً لها مقدمات وقضايا وتساؤلات • كما انكروا عليه ازدحام
التناقضات في شعره فهو يؤمن تارة وينكر اخرى ، يثبت ايمانه بالبعث آناً
وينكر آناً آخر ويؤمن بالجبرية احياناً ويرتد عن ذلك حيناً كما قال :-

لا تعش مجبراً ولا قدرياً
واجتهد في توسط بين بينا

وكما قال :-

وان سألوا عن مذهبي فهو خشية"
من الله لا طوقاً ابث' ولا جبراً

وهنا يقصد بالطوق حرية الاختيار ••

اما انكار فلسفته فغير وارد • وهو وان لم يكون نظرية فلسفية جامعة

شاملة الا انه تطرق في شعره ونشره الى النقاط الرئيسية التي تطرق اليها الفلاسفة • تطرق اليها بأسلوبه الخاص : اسلوب الشاعر الفنان • فهو لم يسر بتأملاته بخطوات بطيئة وبمراحل متسلسلة ، بل ان عقله ، عقل المفكر الشاعر ، كان يتصيد الآراء العميقة ويعرضها بأسلوبه الشعري دون ان يشير الى الطريق الذي اتبعه لتصيد تلك الآراء •

ولو درسنا اشعار الامم الاخرى لوجدنا فيها الكثير من تلك التي تعالج الافكار الفلسفية والمسائل العقلية • ولقد ايد ذلك پول فاليري ، احد شعراء فرنسا الافذاذ ، بقوله ان الفكرة الفلسفية لا تعالج بالشعر فقط بل تعالج بأي فن آخر من الفنون الجميلة •

وان شعر المعري لا يعاب لوجود بعض الآراء المتنافرة فيه ، لان ظاهرة التشكك والحيرة والقلق من صفات العقول المفكرة ذات الفعاليات العنيفة وهي الصفة التي يتصف بها الفلاسفة عادة • لان البحث الدائب عن الحق وعن الحقيقة ديدنهم ولا عبرة في ان يخطئوا أو ان يبلغوا الصواب • واما ما يتعلق بانكار شاعريته فغير وارد أيضا • لاننا اذا أخذنا تحديد الشعر انه « قول موزون مقفى يدل على معنى » كما عرفه بذلك ابن رشيق وقدامة بن جعفر فانه ينطبق على شعر المعري كل الانطباق • واذا أضفنا الى التحديد السابق الشعور فان شعره يأتي في المكان الاول من حيث وضوح الشعور وصفائه • وكان أبو العلاء شاعرا دقيق الحس مرهف العواطف ذا فكر ثاقب جوال وبصيرة قوية نفاذة • وقلما نجد شاعرا في العربية استطاع ان يظهر مكنونات نفسه بدقة وصراحة وان يعرض آراء عويصة بجمل قليلة كما فعل أبو العلاء •

ولقد قال فيه الدكتور طه حسين : « شعره يمثل شخصه تمثيلا صحيحا • ومصدر ذلك ان غير ابى العلاء من الشعراء قلما يفكرون في انفسهم أو يعترفون بها • فهم يفنونها فيما يحاولون ان ينظموا الشعر فيه •

فاذا مدحوا فنيت قوتهم في المدوح • اما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه ، كثير التفكير فيها ، لا ينزل عنها ليتقن مدحا أو يحسن وصفا » •

هذا وان للمعري اشعارا في مختلف الاغراض الشعرية المتداولة آنثذ نظمها في عهد شبابه وجمعت في ديوانه « سقط الزند » كالمقطوعة التالية :-

وقد سارَ ذكرى في البلادِ فَمَنْ لهم
باخفاءِ شمسِ ضوءها متكامل

يهمُّ الليالي بعضَ ما انا مضر
ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

واني وان كنت الاخيرَ زمانه
لأتِ بما لم تستطعه الاوائل

ينافس يومي فيَّ امسى تشرقاً
وتحسد اسحاري عليَّ الاوائل

وطال اعترافي بالزمان وصرفه
فلمستُ أبالي من تقول الغوائل (٧)

فلو بان عضدي ما تأسَّف منكبي
ولو مات زندي ما بكته الانامل

وفيما يلي مقطوعة شعرية يتشكى فيها المعري من مطاولة السفهاء الخاملين لاصحاب الرفعة النابهين فيتمنى الموت لان الدهر أصبح هازلا :

(٧) يقول : يهلك •

إذا وصف الطائي بالبخل مادر^(٨)
وعيرَ قسّاً بالفهامة باقل

وقال السهّي للشمس أنت خفيّة^(٩)
وقال الدجى للصبح لونك حائل^(٨)

وطاولت الارض السماء سفاهة^(٩)
وفاخرت الشهب الحصى والجنادل^(٩)

فيا موت زر إن الحياة ذميمة^(٩)
ويا نفس جدّي إن دهرك هازل

ان اشعار ابي العلاء الفلسفية قيلت بعد كهولته وجمعت في ديوانه
« لزوم ما لا يلزم » وهي من نتاج قريحته الوقادة بعد ان نضج عقله واتسعت
مداركه وتركز تفكيره في الامور العليا والمسائل السامية • وان الفلسفة
هي الصفة السائدة التي يتسم بها شعر المعري • فاذا ما ذكر شعره فأول
ما يتبادر الى الاذهان شعره الفلسفي • فهو فيلسوف الشعراء بلا منازع ،
وحامل لواء الفكر الحر في تاريخ الادب العربي •

(٨) السهّي : نجم خافت من بنات نعش الصغرى •
(٩) الجنادل جمع جندل : وهو الصخر الكبير •

الفوز والكبرياء في شعر المتنبي

• قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبي من الشهرة وذيوع الصيت •
فلطالما تحدث عنه الناس وصوروه بما يليق بمكانته السامية ومنزلته العالية
في عالم الشعر والادب • ولطالما استهوتهم تلك الصورة الخلافة التي اظهرها
عن نفسه في طيات اشعاره • فلقد امتاز شعره بسمو الخيال ، وابتكار
المعاني ، واختراع الصور التي تهتز لها النفوس اعجابا • لقد كان شعره
شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقرى فيذكرى في القلوب الحماسة والنبالة
ويمتع الالباب بألوان من الفن الرفيع يتناول اليها الناس دون ان يبلغوها •
لقد رضع المتنبي شعره بآيات من الحكم البليغة والفلسفة الرائعة والتوجيه
الامثل • وما زالت روايت آياته ترن في اذن الدهر بالرغم من مرور الف
عام ونيف على عهده ، ولقد زاداها القدم جلالا وجدة وبهاء ، وهو القائل :

تمرّستُ بالآفات حتى تركتها
تقولُ أمات الموت ام ذُعرِ الذعر؟

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبنَّ المجدَ زقاَ وقينةَ
فما المجد الا السيفُ والفتكةُ البكر

وتركك في الدنيا دويّا كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

لقد شب المتبىء وهو عالي الهممة معتد بنفسه فخور بذاته طموح الى
ابعد ما يكون الطموح • ولقد كان يشعر برفعة نفسه وتساميتها حتى لم
يعد جسده أو محيطه يسعان تلك العظمة وذلك الطموح • فقال في صباه :

أَمْطُ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَانَتْهُ
فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

كما قال موجها الخطاب الى سيف الدولة :

سِنَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا
بَأَنِّي خَيْرٌ مِنْ تَسَعَى بِهِ قَدَم

انا الذي نَظَرَ الاعْمَى الى ادبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

الى ان قال :

الخيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْيَدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ

ولقد كان المتبىء يمثل العظمة في معرض مدحه للامراء فلم يكن
يتذلل حقه في مواقف المدح ، ولم ينزل الى مدح كل طامع في قصيده •
فكان ينشدهم الشعر وهو جالس ، وكان يشترط عليهم بان لا يكلف بتقيل
الارض عند دخوله عليهم ؛ بل كان من اولئك الامراء من يتخلى له عن
سريره ليجلسه عليه فيجلس بين يديه كما فعل طاهر العلوي •

والمتبىء تفرد بنزعة غير نزعة الشاعر الفنان ، اذ كان يحسب انه
ارفع من الشعراء منزلة ، وان الشعر مطيته الى الملك والسلطان • فكان
يشعر في قرارة نفسه ان روحه ملك ولو كان بلسان شاعر • وهو
القائل :

فارم بي ما أردت مني فاني
اسدىُ القلب آدمى الرداء

وفؤادي من الملوك وان كا
ن لساني يُرى من الشعراء

فزع نفسه في اتون الحياة الملتهب تحدوه شهوة المجد اللامتناهية ، وتدفعه
تلك النزعات الصلبة القوية التي امتزجت بدمه واعصابه • وكان الشعر
وسيلته للوصول الى غايته • فكان اذا مدح عرج الى نفسه فاشاد بقوته
ونباهته وأدبه واشاد الى مطامحه وصرح انه ليس كغيره ممن يكتفون
بالتافه اليسير :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة
ومركوبه رجلاه والثوب جلد

ولكن قلباً بين جنبى ماله
مدى ينتهى بي من مراد احده

وهو القائل أيضا :-

يقولون لي ما أنتَ في كلِّ بلدة
وما تبغى ؟ ابغى جلا ان يُسمى

اذا قلَّ عزمي عن مدى خوف بعده
فأبعدُ شيءٍ ممكنٍ لم يجد عزمًا

واني لمن قومٍ كأنَّ نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وهذا الوصف البليغ خاصة ما جاء في البيت الاخير يصور منتهى
الشعور بالسمو والرفعة وعظمة الذات حتى لتأنف نفسه الجبارة ان تسكن

اللحم والعظم اللذين يتكون منهما جسده المحدود •
لهذا فقد كان يشعر بالمرارة عندما يجد الظروف القاهرة تضطره
لان يمدح هذا وذاك من الامراء والحكام الذين هم أقل منه فهما ونباهة
واحط منه قدرا • وانه كان يتبغي ان يكون مشكورا لا شاكرا لذوي
الدسوت والجاه ••

اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ولقد اضفت عظمة نفسه على شعره ذلك الجلال وتلك الروعة التي تركت
في الدنيا دويًا ••• فلا عجب ان تشتهر قصائده وهي من وحي البطولة
والسمو والفن الرفيع •••

ان اكن معجبا فعجب عجب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهكذا فلقد افراط في الاعجاب بذاته حتى لم يعد يرى من يفوقه
رفعة وقدرا ، ولم يعد يجد المحل اللائق به أو الشخص الذي يستحق
ان يتيه •• كما قال :

اي محلاً ارتقي أي عظيم اتقي
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقراً في همّي كسعرة في مفرقي

ووصل به الاعتداد بالذات بحيث انه جعل نفسه مصدر الشرف لقومه
بالرغم من انهم فخر العرب حيث قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسى فخرت لا بجودوي

وبهم فخرٌ كلٌّ من نطق الضا

د وعوزُ الجاني وغوثُ الطريد

كما فخر شعره الذي لا يجاريه فيه مجار ، اذ الدهر من رواة
قصائده ، حيث قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي

إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمراً

وغنى به من لا يغنى مغرداً

وقد كان شعور المتنبىء بتفوق شعره على شعر خصومه عظيماً حتى
لقد قاده هذا الشعور الى ان يقول فيهم أبياتاً تنطوي على السخرية والازدراء
كمثل البيت التالي :-

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر^(١)

ضعيف يقاويني ، قصير^(١) يطاول^(١)

★ ★ ★

ان مما جعل شعر المتنبىء خالداً خلود الدهر هو انه كان يعكس
نبضات قلبه التي شاركه فيها الكثيرون في مختلف العصور والازمان •
كما وانه كان يعكس احوال المجتمعات السائدة في عهده التي تشابهها احوال
في كل العهود والعصور • فالتاريخ يكرر نفسه • وهنالك في كل جيل
العديدون الذين لهم طموح المتنبىء والذين جابهتهم ووقفت امامهم العراقيل
كما وقفت امام المتنبىء • وهناك في كل زمان اولو الحل والعقد الذين بلغت
بهم الاستهانة بالكرامات ، وعدم الشعور بالمسؤوليات ، واقتراف المظالم
بعدم ايداع القوس باربيها أو اعطاء كل ذي حق حقه ، والجنوح الى تقديم

(١) الضبن : بين الكشح والابط •

الجهلاء والفاستدين واقصاء المخلصين من اصحاب الكفاءات . . . فنقم على
الزمان . . . الا تبا للزمان الذي حرمة الجاه والسلطان ولم يحرمه النفس
العزيزة المترفة المتسامية . . . ونقم على الناس الذين ، لو عقلوا ، لثاروا
ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء وملكوا عليهم خيارهم ، ولعله
عنى بذلك نفسه ؟ ولكنهم خانعون للظلم مستسلمون للذل وغير آنفين من
العار . . . كما قال :-

اما في هذه الدنيا كريم
تزل به عن القلب الهموم

اما في هذه الدنيا مكان
يسر بأهله الجار المقيم

تشابهت البهائم والعييد
علينا والموالي والصميم

وما أدري اذا داء حديث
اصاب الناس أم داء قديم

ولقد ادت به ثورته النفسية العارمة الى ان يتبنى فلسفة القوة . لذا
فقد تجلت القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته . . . فهو قوي في شعره ،
قوي في اسلوبه ، قوي في تعابيره ، قوي في اعتداده بنفسه ، قوي في طموحه
نحو المعالي ، قوي في سخطه على الناس وعلى الزمان . . .

ان ترمني نكبات الدهر عن كتب
ترم امرأاً غير رعيدي ولا نكس^(٢)

وهو قوي في احتقاره للملذات الوضيعة . . .

(٢) كتب : قرب . رعيدي : جبان . النكس : الضعيف الدنى الذي
لا خير فيه .

وإذا كانت النفوس كباراً
تعبت في مرادها الاجسامُ

وهو قوي في استهاته بكل الصعوبات في سبيل المجد ..

فموتي في الوغى عيشٌ لأنّي
رأيتُ العيشَ في أربِ النفوس

وكذلك :-

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
فيما النفوس تراه غاية الالم

وهو قوي في امتعاضه واشمئزازه من اناس كان النفاق رائدهم :

إذا ما الناس جرّبهم ليبٌ
فاني قد أكلتهم وذاقنا

فلم أرَ ودّهم إلا خداعاً
ولم أرَ دينهم إلا نفاقاً

وهو قوي في احتقاره اولئك الارانب المستأسدين :-

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثٌ ضخام

ارانبٌ غيرَ أنّهم ملوك
مفتحة عيونهم ، نيام

وشبه الشيء منجذب اليه
واشبهنا بديانا الطعام (٣)

(٣) الطعام : الاوغاد .

وما انا منهمُ بالعيش فيهم
ولكن معدنُ الذهب الرغام^(٤)

وهو قوي في وصفه لهذا الزمان المسوخ الذي ضاعت فيه المقاييس
الصحيحة :

اذم الى هذا الزمان اهيله
فأعلمهم فدم^١ ، واحزمهم وغد
واكرمهم كلب ، وابصرهم عم^٢
واسهدهم فهد^٣ ، واشجعهم قرد

★ ★ ★

هذا ولما ان وقفت دون طموح المتنبئ السدود واقامت دون حصوله
على اهدافه وغاياته العثرات من اناس لم يبلغوا قلامة ظفر من مجده وكماله
ورجاحة عقله اخذ يحس بانه غريب في وطنه ودياره ، شاذ بين قومه
وعشيرته ... فقال :

ما مقامي بأرض « نخلة » الا
كمقام « المسيح » بين اليهود

انا تريبُ الندى وربُّ القوافي
سِمامُ العدا وغيظُ الحسود

انا في امةٍ تداركها الله
غريب^٤ « كصالح » في ثمود

ولا ريب ان من كان هذا شعوره لا يجد مسوغاً لان يعيش بين قوم
لا يشعرون بشعوره أو يقدرونه حق قدره ... فقال عند مفارقتة سيف
الدولة :-

(٤) الرغام : التراب .

إذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا
ألاَّ تفارقهم فالراحلون هم
وقال عند تركه كافور الاخشيدي قصيدته المشهورة التي هجا فيها
هذا الاخير :-

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيد
بما مضى أمْ لامرٍ فيك تجديد

أما الاجبةُ فالبيداءُ دونهم
فليتَ دونك بيداً دونها بيد

ولا غرو ان من كان له قلب كقلب المتنبى الذي قال فيه :-

ولكن قلباً بين جنبيّ ماله

مدى ينتهى بي في مراد احده

ان يتصف بالشجاعة وان يستوى عنده طول الحياة أو قصرها ، ان يموت
على فراشٍ وثير أو على سهوة جواده في سوح الوغى ، لانه يرى ان الحياة
لا تؤخذ الا غلابا ، ولا ينتصر فيها الا الجلد الصبور الذي لا تزغزه
الهزاهز والذي يخاطر بالمهجة والروح في سبيل الفوز في ما يصبو اليه
ويبتغيه • قال :-

ايا عبدَ الاله معاذ اني

خفي عنك في الهيجا مقامي

ذكرت جسيم ما طلبي وانا

نخاطر فيه بالمهج الجسم

امثلي تأخذ النكبات منه

ويجزع من ملاقاته الحمام

ولو برز الزمان اليّ شخصاً
لخضب شعراً مفرقهِ حسامي
وما بلغتْ مشيئَتَها الليالي
ولا سارت وفي يدها زمامي
اذا امتلأتْ عيون الخيل مني
فويلٌ في التيقظ والمنام
وقال :-

فلموت أعذرُ لي ، والصبرُ أجملُ بي ،
والبرُّ أوسع ، والدنيا لمن غلبا

★ ★ ★

كانت غاية المتنبى بلوغ المجد ، او كرع جام الحمام • فسعى بكل
طاقته لبلوغ امنيته ، فما كَلَّتْ عزيمته ، ولا وهنت ارادته ، ولا فترت
همته • ناضل وكافح في سبيل غايته حتى وصل الى بعض ما كان يصبو اليه
من سؤدد ، وجاه عريض ، وثراء عظيم ، مما اثار حفيظة الحساد
والكائدين • فلم يضعف من عزمه ، او يخضد من شوكته عدو مهما بلغ
بأسه ، وعظم مراسه • فكان للمتنبى سيف بتار يقطع الرقاب ، ولسان
ناري يقصم الظهور ، وعزم جبار يصغر لديه عظام الامور • وكانت روحه
الوثابة تأبى الذل ولو كان دون العز خرط القتاد ، كما قال :-

واحتمالُ الاذى ورؤيةُ جانبه
غذاءٌ تضوى به الاجسام

ذُلٌّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ
رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحمام

من يَهْنُ يسهل الهوانُ عليه
ما لجرحٍ بميِّتِ ايلام
وقال :-

وما منزل اللذات عندي بمنزل
اذا لم ابجِّلْ عنده واكرِّم
سجية نفس ما تزال مليحة
من الضيم مرمياً بها كل محزم
وقال :-

والآتمتْ تحت السيوف مكرِّمًا
تمتْ وتقاسي الذل غير مكرم
فثبَّ واثقاً بالله وثبةً ماجد
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
وقال :-

انما انفس الانيس سباع
يتفارسن جهرةً واغتيالاً
منْ أطاق التماسَ شيء غلاباً
واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجة يتمنى
ان يكون الغضنفر الرئبالاً^(٥)
وقال في تعظيم الشجاعة والاقدام وتحقير العجز والجبن :-

(٥) الغضنفر : الاسد . الرئبال : الذئب ويطلق على الاسد احياناً .

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرَّومٍ
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعمُ الموتِ في امرٍ حقيرٍ
كطعمِ الموتِ في امرٍ عظيمٍ
يرى الجبناءُ أنَّ العجزَ عقلٌ
وتلك خديعةُ الطبعِ اللثيمِ
وكل شجاعةٍ في المرءِ تفتى
ولا مثلَ الشجاعةِ في الحكيمِ
وقال :-

ذريني أنلُ ما لا يُنالُ من العلا
فصعبُ العلا في الصعبِ والسهلُ بالسهلِ
تريدين ادراكَ المعالي رخيصةً
ولا بدَّ دونَ الشهدِ من إبرِ النحلِ
وقال :-

عشٌ عزيزاً أو متٌ وانت كريمٌ
بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغي
ظِ واشفَى لغيرِ صدرِ الحقودِ
لا كما قد حيتَ غيرَ حميدٍ
وإذا مُتَّ متٌ غيرَ فقيدٍ
فاطلب العز في لظىٍ ودع الذل
ل ولو كان في جنانِ الخلودِ

بقى علينا ان نعرف اين ترعرعت ملكته الشعرية ونضجت ، وكيف
نمت لديه صفة الطموح والكبرياء ، ولا يمكننا معرفة ذلك ما لم نتبع
حياته ونحللها تحليلا دقيقا •

ولد ابو الطيب المتنبى في حي كندة من احياء الكوفة حيث كان يسكن
اولئك الذين هم من اصل يمني • وقد جاء ذكر ذلك الحي في شعر المتنبى
حيث قال :-

أمنسى السكون وحضرموتا
ووالدتي وكندة والسبيعا

والسبيع هو حي آخر من احياء الكوفة آنذاك •
كان اسمه أحمد بن الحسين ، وكانت مهنة ابيه السقى ، فهو سقاء •
ارسله ابوه وهو في ريعان الصبا الى البادية ، فشب على اخلاق
البادية وما تتمثل به من فروسية وحرب وطعان ، وميل الى الحرية
والاعتزاز بالذات • كانت البادية اول مدرسة درس فيها المتنبى فكان لها
تأثير عظيم على ملكته الشعرية وعلى خياله الذي درج من افق البادية ، وفي
جو البادية نما • لذا نجد شعره لا يتخلو من آثار صهيل الخيل ، وقعقة
السيوف ، وصرير العوالى • فلم تفارقه صور البادية حتى عندما كان
يجالس الملوك والامراء والوزراء في بيئة حضارية لها مشاهد رائعة وصفات
خلاقة تختلف عما تعكسه صور البادية • كما جاء في قصيدة يمدح بها
علي بن ابراهيم التنوخي ، وقد تصدى لوصف بحيرة طبرية :-

لولاك لم اترك البحيرة والـ
غور وفيء وماؤها شيم^(٦)
والموج مثل الفحول مزبدة
تهدر فيها وما بها قطم

(٦) شيم : بارد •

والطير فوق الجباب تحسبها
فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها
جيشا وغي : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر
حف بها من جناها ظلم

فهو اذا اراد تشبيه الموج شبهه بهدير الفحول ، ولما اراد ان يشبه
الطير وهي فوق الجباب شبهها بفرسان خيل بلق ، ولما اراد تشبيه الرياح
وهي تضرب الطير شبهها بجيش وغي . وهذه كلها صور ومفاهيم بدوية
لاشك في ذلك .

ولم تفارقه شنشته في التغنى بصور البداوة ومفاهيمها حتى عندما
كان في افياء الترف والنعيم في مجالس سيف الدولة ، وكافور الاخشيدي ،
وعضد الدولة ، وابن العميد .

ولقد جهد المتنبىء نفسه في شبابه في طلب الادب وعلوم اللغة
وكان كثير الدراسة والتتبع فألم الماما واسعا بشعر ابي تمام الذي سماه
(استاذ كل من قال الشعر بعده) والبحتري وابن الرومي ومسلم بن الوليد
وبشار بن برد وابي نؤاس وابن المعتز وامرئ القيس والاعشى وعمرو بن
كلثوم والفرزدق وغيرهم . فشب المتنبىء شاعرا مطبوعا واسع الخيال غزير
العلم وافر الاطلاع .

قال ابو الحسن محمد بن يحيى العلوي : « كان ابو الطيب محبا للمعلم
والادب ، فصحب الاعراب في البادية ، وجاءنا بعد سنين بدويا قحا ، وكان
تعلم القراءة والكتابة فلزم اهل العلم والادب واكثر من ملازمة الوراقين
فكان علمه من دفاترهم » .

وقال الثعالبي : « ذكرت الرواة ان اباہ سافر به الى بلاد الشام ، فلم
يزل ينقله من ياديتها الى حضرها ، ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه من
المكاتب ، ويردده في القبائل ، ومخايلة نواطق الحسنى عنه وضوا من
النجح فيه ، حتى توفي ابوه ، وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع » •

وقال ابن خلكان : « واشتغل ب فنون الادب ومهر فيها وكان من
المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشياها ولا يسأل عن شيء
الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل ان الشيخ ابا
على الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال يوما : كم لنا من الجموع على
وزن فعلى ؟ فقال المتنبى في الحال : حجلي ، وظريبي • قال الشيخ ابو علي :
فطالعت الكتب ثلاث ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثا فلم اجد » •

★ ★ ★

هذا ولما كانت العvisية القبلية ما تزال في عهد المتنبى قوية ، والمفاخرة
بالنسب عنيفة ، فلا غرو ان نرى المتنبى يشيد بمفاخر قومه من اليمانيين ،
حيث قال :-

واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها انف ان تسكن اللحم والعظما
وقال في صباه :

ومجدى يدلُّ بنى خندف
على أن كلَّ كريم يمان

وان من يفاخر بمجد قومه الى حد قوله ان كل كريم ما هو الا يمانى
لا ريب ان يبلغ به الاعتزاز بنفسه والتفاخر بذاته المبلغ الذى قال فيه
المتنبى :-

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسى فخرت لا بجدودي

وبهم فخرٌ كلٌّ من نطق الضاد
وعوذُ الجاني وغوث الطريد

فانه اعتقد انه ورث المجد كابرا عن كابر •
ولعل ما يسمى بمركب النقص من العقد النفسية قد دفعته الى المغالاة
في التكبر والاستعلاء • فان مهنة ابيه من جهة ، وطموحه البعيد المدى من
الجهة الاخرى جعلاه ينغمر بتحصيل العلم ، والتبحر بالادب ، واكتساب
الثقافة الواسعة ، وتنمية الملكة الشعرية • ولما بز اقرانه في قول الشعر ،
حتى لقد صار لقصيده دوى رددت صدها جنبات الجزيرة العربية وغيرها
من بلاد العرب ، واخذت تسير بذكره الركبان ، ويخشى شر لسانه الامراء
والوزراء ، شعر بفضل نفسه ، وعلو مكاتته ، حتى لقد غطى فضله على فضل
قومه وجدوده ، كما قال :-

ولست بقانع من كل فضل
بان اعزى الى جد همام
وقال :-

انا ابن منْ بعضه يفوق ابا البا
حث والنجل بعض من نجله

انما يذكر الجدود لهم من
نفره وانفدوا حيله

★ ★ ★

ولقد ادى اعتداده المفرط بذاته ، وطموحه الذي لا حدود له
الى ادعائه النبوة في حدائه ببادية السماوة ونواحيها فاجتمع حوله خلق
من قبائل العرب ، فخرج اليه لؤلؤ امير حمص فقاتله واسره ، وشرذ اتباعه
واعوانه ، وحبسه في السجن دهرا طويلا حتى كاد يتلف ، فسئل في
امره ، فاستتابه واطلقه •

وان تاريخ حياة النبيء تنبىء ان نفسه وسوست له ان تجعل النبوة
سبيلا الى الملك ، وعلى الخصوص بعد ان اجتمع له الشيء الكثير من اسباب
التأثير في عقول الاعراب من جملتها خبرته بالارض ، وفصاحته ، وحسن
بيانه .

ولما سدت امامه باب النبوة اخذ يشد الرحال ويضرب في مناكب
الارض جائلا في الآفاق التماسا للرزق ، لما كان يكابد من خشونة في العيش
ورقة من حال . فاخذ يمدح هذا وذاك في دمشق وطرسوس وانطاكيه
وحمص وبعلبك وغيرها من بلاد الشام فلم يحصل على ما كان يرجوه من
جوائز وهبات . وكان دائم الشكوى من سوء الحال :-

الى اي حين انت في زىء محرم
وحتى متى في شقوة والى كم

وقال :-

لله حالٌ أرجيها وتخلفني
واقضى كونها دهرى ويمطني^(٧)

وقال :-

ضاق صدري في طلب الـ
رزقٍ قيامي وقلٌ عنه قعودى
ابداً اقطعُ البلادَ ونجمي
في نحوسٍ وهمتي في صعود
ولعلنى مؤملاً بعض ما ابلغ
باللطف من عزيز حميد
لسرى لباسه خشن القطن
ومروي مروى لبس القروء

(٧) يمطل : يسوف .

فكان سوق شعره في بادىء امره في كساد ، فلم يحظ ممن مدحهم الا النزر
القليل من الثواب ، ولعله لم يكن يحسن اختيار ممدوحيه • فقال :-

الى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمدادى في التمدادى

وشغل النفس عن طلب المعالي
بيع الشعر في سوق الكساد

وفوق هذا وذاك لم يكن يخلو من حسد الحاسدين وشماتة الشامتين الذين
قضوا به ضجعه ، واقلقوا راحته ، قال :-

فلو اني حسدت على نقيس
لجذت به لذى الجد العثور

ولكنني حسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرور

★ ★ ★

بقى المتنبي على حالته تلك حتى لجأ الى كنف سيف الدولة وتقياً
بظلاله ، وعندئذ تغيرت احواله ، وكثرت امواله ، وانتهالت عليه الهبات
والجوائز والخلع والجوارى والاقطاعات والعييد ، واخذ يظهر بمظهر
الامراء الموسرين ، اصحاب الخدم والحشم والعييد •

الا ان تقريب سيف الدولة المتنبي ، واعجابه به ، قد خلق له حسادا
وكائدين ، نصبوا له شبك مكائدهم في مجلس سيف الدولة ، وكان
اهمهم ابو فراس الحمداني •

بالغ هؤلاء في الوقيعة بالمتنبي ، حتى غيروا قلب سيف الدولة نحوه ،
فاعرض عنه ، فنظم القصيدة التي مطلعها :-

واحرّ قلباه ممن قلبه شميم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
حتى قال :-

ما لي اكنتم حبا قد برى جسدي
وتدعى حبا سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حبا لغرته
فليت انا بقدر الحب نققسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة
وقد نظرت اليه والسيوف دم

.....
.....

يا اعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
.....
.....

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا
بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى أدبي
واسمعت كلماتي من به صمم
الخيال والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

الى ان قال :-
ان كان سرّكم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا أرضاكم ألم

ولم يغفل المتنبىء عن شكوى الحسد الموجه ضده ، قال
لسيف الدولة :-

ازل حسد الحساد عني بكتبهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
ومن قوله :-

اعادى على ما يوجب الحب للفتى
واهداً والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فانه
اذا حل في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة
وان كنت تبديها له وتبيل

وأخيراً نجح كيد الكائدين ، وتمت الوقعة بين سيف الدولة والمتنبىء ،
وانصرم جبل الالفه بينهما ، وما وسع ابا الطيب الا مفارقة سيف الدولة
بعد ما لازمه لمدة تسع سنين .

وهنا قال قصيدته التي تعرض بها من سيف الدولة :-

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن
الى ان قال موجها الكلام الى سيف الدولة :-
رأيتكم لا يصون العريض جاركم
ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل
وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفقكم
حتى يعاقبه التنغيص والمنن
* * *

ثم شد المتنبىء الرحال الى دمشق بعد قطيعته مع سيف الدولة ، ثم
سار الى الرملة ، وهناك كتب كافور الاخشيدى حاكم مصر في طلبه •
ولما قدم ابو الطيب على كافور امر له بمنزل ، ووكل به جماعة ، وطالبه
بمدحه • وكانت اولى قصائده في مدح كافور تلك التي اولها :-

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً
وحسب المنايا ان يكن امانيا
ولقد افرغ المتنبىء ما في جعبته من طموح في هذه القصيدة حيث
قال :-

وغير كثير ان يزورك راجل
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

حيبتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غدرأً فكن انت وافيا
وأعلم أن الين يشكيك بعده
فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين غدر بربها
اذا كن اثر الغادرين جواريا
اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

وللنفس اخلاق تدل على الفتى
أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا

اخذت نفس المتنبىء تسامى الى افق ابعد من افق المال ، وامتدت
رغبات نفسه الى المفاخر والجاه العريض حيث قال :-

وما رغبتني في عسجد استقيده
ولكنها في مفخر استجده
وصارح كافورا بما كان يختلج طي ضلوعه من امانني وآمال :-
اذا لم تتط بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب
وطالبه بانجاز وعوده :-

أرى لي بقربي منك عيناً قريبة
وان كان قرباً بالبعاد يشاب
وهل نفعي ان ترفع الحجب بيننا
ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

ولكن كافورا لم ينجز ما وعد لانه خاف المتنبىء لما رأى من تعاليه
واعتداده بنفسه ، فعوتب فيه ، فقال : « يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد
صلى الله عليه وسلم ، اما يدعى المملكة مع كافور ، فحسبكم » *
ولم يخل المتنبىء ممن كانوا يبغضونه ويكيدون له أثناء اقامته في
مصر ، ومن جملتهم ابن مرابة وزير كافور * وكان هؤلاء يوغرون صدر
كافور عليه * ولم يستطع المتنبىء بعد كل هذا ان يطيل الإقامة في مصر ،
فعزم على الرحيل * فشد الرحال الى الكوفة بعد ان اقام في مصر مدة تقارب
الخمس سنوات *
وليس من العجب ان ينفجر المتنبىء بسيل من الاهداجي المقذعة في
كافور ، كما قال :-

أَمِينًا وَاخْلَافًا وَغَدْرًا وَخَسَّةً
وَجَبْنًا، أَشْخَصًا لُحَّتْ لِي أَمْخَازِيَا (٨)

(٨) المين : الكذب .

وقال :-

من علّمَ الاسودَ المخضَى مكرمةً
أقومه البيضُ أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولَى اللثام كوفيرٌ بمعذرة
في كلِّ لؤمٍ وبعض العذر تفنيد
وذاك أنَّ الفحولَ البيضَ عاجزةً
عن الجميلِ ، فكيفَ الخصيةُ السود

★ ★ ★

وكانت آخر مراحل المتبىء لدى عضد الدولة في شيراز • فحط
رحاله هناك ، واستطاب الإقامة بظل عضد الدولة ، فربحت تجارته
بحضرتة ، ووصل اليه من صلاته الشيء الكثير • ثم استأذنه في الرحيل
فأذن له وأمر بان تخلع عليه الخلع الخاصة ، فسافر ومعه ابنه المحسد
وغلامه ، ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والكتب
الشمينة والآلات • فتعرض له فاتك على رأس عشرين رجلا من بني عمه
فقتلوه وابنه محسدا وغلامه • وهكذا انطفأت تلك النار المستعرة ، وخبث
شعلة تلك النفس المضطربة التي ملأت الدنيا وشغلت الناس ، وسكت ذلك
القلب الذي لم يكن له مدى محدود في طموحه وعلائه ، كما قال :-

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلدُه
ولكن قلباً بين جنبيّ ماله
مدى ينتهى بي في مرادٍ أحدُه

المدح

في شعر ابن هاني الأندلسي

فن المديح في الشعر هو وليد عاطفة الإعجاب التي تنير في نفس المداح
الانفعالات التي تدفعه الى نظم الشعر في اظهار صادق شعوره نحو المدوح
سواء أكان ذلك المدوح فرداً أم كانوا جماعة •

المديح اظهار للمزايا الفاضلة وتعداد للشمائل الكريمة والصفات
الطيبة التي تتوفر لدى المدوح وتعداد للاعمال الجليلة التي يقوم بها
العظماء من الناس •

ويعتبر المديح ابرز الفنون الشعرية عند العرب منذ ان بدأ الشعر
العربي ولم يطرأ عليه أي ضعف أو وهن ولقد امتلأت الدواوين الشعرية
بهذا الفن منذ العصر الجاهلي اذ ان طبيعة الحياة الاجتماعية والنظم
المعيشية التي كانت سائدة آنذاك ساعدت على انتشار هذا الفن وشيوعه •
ويمكن ان يعتبر فن المديح مدرسة اخلاقية لما يحتويه من ذكر
للفضيلة وتمجيد للبطولة وتعداد لمحاسن الاخلاق •

ولقد كان لهذا الفن بين فنون الشعر القدح المعلى في التراث العربي
منذ ان جاء الشعر سليقة على لسان العرب في جاهليتهم حتى يومنا هذا •
فلقد اطنب الشعراء بمدح رؤساء قبائلهم وملوكهم وعظمائهم وخلدوا
اسماءهم بقصائد عصماء ستبقى خالدة خلود الفرقدين •
ولم يكن من بين شعراء العربية من اختص شعره بالمدح ، فكان
هذا الغرض مادة شعره وعموده الفقري كابن هاني الأندلسي •

ومما يمتاز به شعر ابن هانئ انه صادر من القلب ونابع من الروح والوجدان • فشعره شعر ايمان وعقيدة وليس شعر تكسب واستجداء كما كان شأن غيره من الشعراء • ولقد تأثر شعره بالعقيدة الاسماعيلية التي جاءته ارثا من ابيه • اذ كان ابوه هانئ داعيا من دعاة الاسماعيلية ، بالاضافة الى كونه شاعرا واديباً • فانتقل من المهديّة في افريقيا وهي معقل الدعوة الاسماعيلية الى الاندلس ليجعلها مركز دعوته الى العقيدة التي كان يعتنقها وفي اشبيلية ولد له ولد سماه محمد بن هانئ ، وهو شاعرنا موضوع البحث • فنشأ ابن هانئ في اشبيلية ثم تأدب بدار العلم في قرطبة • وكان مع مهارته في الشعر ، حاذقا بالفلسفة والتاريخ والفلك وعلم الهيئة وملما بفك (المعنى) وكان ذلك ما يطلب ممن يريد ان ينتظم في سلك الدعاة الاسماعيليين •

فاتصل ابن هانئ بصاحب اشبيلية الذي اعزه واكرمه فصار ذا حظوة لديه ومكانة ممتازة في كنفه • الا ان اعلان تشييعه ودعوته الى امامة الفاطميين قد اثار نقمة اهل اشبيلية عليه مما ادى باميرها الى التخلي عنه ، فاشار اليه بوجوب الابتعاد خوفا من الجمهور الغاضب • فترك ابن هانئ الاندلس قاصدا المغرب • وبهذا يقول :

وما نقموا الا قديم تشييعي

فنجأ هزبرا شده المتدارك

وفي المغرب لقي ابن هانئ جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية الكبير فامتدحه ثم امتدح جعفر بن فلاح وجعفر بن علي ، وظل بالقرب من هذا الاخير حتى سمع باشعاره المعز لدين الله الفاطمي فاستدعاه وعينه شاعرا لبلاطه • فنظم الدرر عقودا في مدح المعز وشدا بذكره والاطراء عليه في قصائد خالدة وروائع تصح ان تكون دررا في جبين الشعر العربي • وانها وان كانت تتصف بالغلو مما يجعلها تظهر بمظهر الكفر احيانا ،

الا انها كانت تتمشى مع عقيدة الشاعر الاسماعيلية التي تؤمن بمذهب
 الحلول و قدسية الامامة • فالامام ، في نظر الاسماعيليين هو « علة
 المخترعات ، و حياة الكل ، و به ترتب الخلق والدين ، تأنس بواحد
 للوجود ، وهو موجود غير مفقود ، لا يدركه الزمان ، ولا يدخل تحت
 حوادث الايام » وانه « الموجود للانام ، لا يخلو منه مكان ، ولا يحوزه
 مكان ، لانه آلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يتأنس بالحدود والصفات
 لما كان للخلق الى معرفته وصول ، فهو شمس فلك الدين ، و آية الله في
 السموات والارضين ، و به صلاح العالم بأسره ، وهو قلب هذا العالم ومدبره
 وممهده • فبمعرفته وطاعته والتخلى عن ضده صلاح المؤمنين ، وهو فرد
 الحقيقة ، ومرتب الدوام ، وموجد النظام وهو القائل عن نفسه : ظاهرنا
 امامة ، وباطننا غيب لا يدرك^(١) » وان النفس الكلية والعقل الكلي يحلان
 في نفس الامام فيصبح مشاركا في تدبير هذا العالم وان روح الامام « تعود
 الى ما يجانسها فتصبح نفس الامام عقلا من العقول المدبرة للعالم ، فلا
 تناسخ ولا تلاشي »^(٢) •

فليس اذن غلو في نظر الشاعر اذا ما قال في المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار

فالحكم فانت الواحد القهار

اذ ليس في هذا القول معارضة للعقيدة التي يعتنقها ويؤمن بها في صميم
 قلبه وفي قرارة نفسه - العقيدة الاسماعيلية الباطنية •

وان ما اتصف به ابن هانيء من صفات حميدة تجعله فوق مصاف
 الشعراء الآخرين - حتى المتنبىء - الذين كانوا يتكسبون في مديحهم
 ويستجدون الاكف • فلقد تحلى بالصدق كما قال :

(١) عارف ثامر : اربع رسائل اسماعيلية •

(٢) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية •

وما غاظ حسادي سوى الصدق وحده

وما من سجايا مثلي الأفك والحبوب
كما تحلى بالعفة التي تجعله اسمي من ان ينظم القريرض ليضرع به الى
ممدوحه كي ينال هبة او يعفو عنه عن ذنب اقترفه كما قال :
وما قصد مثلي في القصيد ضراعة

وما من خلالي فيه حرص وترغيب
فالمديح عند ابن هانيء نابع من عقيدة اعتنقها مختاراً فجاء مديحه
تقياً نقاء الماء الزلال الذي يجري نميراً وصافياً صفاء السماء المشرقة التي
لا تكدرها سحب او غيوم . اذ قال عن نفسه :
لي صارم وهو شيعي كحامله

يكاد يسبق كراتي الى البطل
اذا المعز معز الدين سلطه

لم يرتقب بالمنايا مدة الاجل
وقد استعمل صارمه ولسانه الذرب وقريحته الوقادة للدفاع عن
الفاطميين والدعوة الى عقيدتهم والتغني بامجاد خلفائهم والمفاخرة باعمالهم
والمناظرة بينهم وبين اعدائهم من امويين وعباسيين معتصبي الخلافة الاسلامية
من اصحابها الشرعيين آل محمد الابرار . فقال في الامويين مذكراً الناس
بفاجعة الحسين وسبى النساء وتعذيب الشيوخ والاطفال وهو يرسم لتلك
الواقعة لوحة يثير بها سخظ الناس على الامويين وكرهيتهم :-

ألا ان يوماً هاشمياً أظلمهم
يطير فراش الهام عن كل مجثم
كيوم يزيد والسبايا طريدة

على كل موآر الملاط عشم^(١)

(١) الموآر : المتحرك . الملاط : الجانب (اراد به الجمل السريع
السير) . العشم : الجمل الشديد الطول .

وقد غصت البيداء بالعيس فوقها
 كرائم' أبناء النبي' المكرم
 ذُعرن بأبناء الضباب وأعوج
 فأبكين أبناء الجدِيل وشدقم^(٢)
 يشلونها في كل غارب دوسر
 عليه الولايا بالخشاش مخزم^(٣)
 فما في حريمٍ بعدها من تحرُّج
 ولا هتك' سترٍ بعدها بمحرَّم
 وقال في العباسيين - وهو ينسبهم الى نَتيلة جدتهم التي كانت أمة -
 مفاخرًا بالعلويين الذين هم اشرف نسبا :-
 أفي ابن أبي السبطين ام في طليقم
 تنزلت الآيات والسور الغر'^(٤)
 بني تلة ما اورث الله تلة
 وما نسلت هل يستوى العبد والحر'^(٥)
 واني بهذا وهي أعدت برقها
 أباكم فاياكم ودعوى هي الكفر

(٢) الضباب : اسم فرس سهيرة • أبناء الجدِيل وشدقم : الأبل
 نسبة الى فحلين مشهورين •
 (٣) الدوسر : الجمل الضخم • الولايا : اكسية وثياب • المخزم :
 المتحلي بالخزامة •

(٤) ابن ابي السبطين : ابن علي بن أبي طالب • الطليق : عباس
 ابن عبدالمطلب جد العباسيين •
 (٥) بني تلة : الاصل نتيلة وهي أم عباس بنت جناب بن كليب •

ذروا الناس ردوهم الى من يسوسهم
فما لكم في الامر عُرْفٌ ولا نكر

وهكذا نرى ان ابن هانئ كان لسان المعز الفاطمي يذود عن حياضه
ويدعو لطاعته ويمجد فضائله وشمائله وبطولاته ويدافع عن العقيدة
الاسماعيلية داعيا الناس الى نصرة آل علي وطاعتهم ؛ فطاعتهم فيها
النجاة ومعصيتهم هي الخسران المين • فقال مخاطبا العباسيين :-

لستم كأبناء الطليق المرتدى
بالكفر حتى عضّ فيه أسار

ابناء تلة ما لكم ولمعشر
هم دوحه الله الذي يختار

ردوا اليهم حقهم وتكبوا
وتحملوا فقد استحمّ بوار (٦)

ودعوا الطريق لفضلهم فهم الألى
لهم بمجيلة الطريق منار

ولقد تعالى صوته في مدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وفي عظماء
الرجال الذين ادوا خدمات جلى الى الدولة الفاطمية والى العقيدة الاسماعيلية •
فقد مدح ابا الفرج محمد عمر الشيباني • وقال فيه :

فتى كل سعى من مساعيه قبله
يصلّى اليها كل مجدٍ ونائل

وفي كل يوم فيه للشعر مذهب
على أنه لم يُبق قولاً لقائل

(٦) تنكبوا : تجنبوا • تحملوا : رحلوا • استحمّ : بمعنى حمّ أي
قضى الامر •

وقال فيه ايضا :

حلفت بالسابغات البيض واليلب
وبالاسنة والهنديّة القضب (٧)

لأنت ذا الجيش ثمّ الجيش نافلة
وما سواك فلفو غير محتسب

ولو أشرت الى مصر بسوطك لم
تحوجك مصر الى ركض ولا خب

ولو ثبت الى أرض الشام يداً
ألقت اليك بايدي الذلّ من كتب

انت السبيل الى مصر وطاعتها
ونصرة الدين والاسلام في حلب

واين عنك بأرض سبستها زمناً
وازدان باسمك فيها منبر الخطب

ألست صاحب أعمال الصعيد بها
قدماً وقائد اهل الخيم والطنب ؟

وان مدائح ابن هاني في جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله
جليلة اظهر فيها عظمة هذا القائد الذي كان عاملاً قويا في بناء صرح الدولة
الفاطمية وتوطيد اركانها وفرض هيبتها بفتوحاته العديدة وانتصاراته
الباهرة . قال فيه :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع
وقد راغني يوم من الحشر اروع

(٧) السابغات : الدروع الطويلة . اليلب : الترس أو الدرع
المصنوع من الجلد .

غداة كأن الأفق سداً بمثله
فعداد غروب الشمس من حيث تطلع
فقد زرعت منه الرواسي لما رأت
فكيف قلوب الأوس والأنس أضرع
فلا عسكر من قبل عسكرِ جوهرِ
تخب المطايا فيه عشراً وتوضع
تسير الجبال الجامدات بسيره
وتسجد من أدنى الحفيف وتركع^(٨)
إذا حلَّ في أرضٍ بناها مدائناً
وان سار عن أرض ثوت وهي بلقع^(٩)
فسر أيها الملك المطاع مؤيداً
فللدين والدينا اليك تطلّع
وقال في مدح الاميرين طاهر والحسين اخوى المعز كيف لا وهما
من الاسرة الفاطمية وينحدران من الدوحة النبوية ، فهما السيدان اللذان
انقاد لهما الدهر العنيد وطأ رأسه لها اجلالا واكبارا وهما اللذان خلقهما
الله وجعلهما اميين على حوض الكوثر يوردان من مائه من شاء ويصدان
عنه من شاء ، فقال :
امسحوا عن ناظري كحل السهاد
وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد^(١٠)

(٨) الحفيف : الصوت الخفيف .

(٩) البلقع : الخالي .

(١٠) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر .

اوخذوا مني ما ابقيتم
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد

هل تجيرون مجباً من هوى
او تفكون أسيراً من صفاذ^(١١)

بكما انقاد لنا الدهر على
بعد عهد الدهر منا بانقياد

اهل حوض الله يجرى سلسلاً
بالظهور العذب والصفو المراد

أسواهم ابتغى يوم الندى
أم سواهم ارتجى يوم المعاد

هم أباحوا كل ممنوع الحمى
واذلوا كل جبار الغناد

تطلع الاقمار من تيجانهم
وعليهم سابعات كالمداد

هم أماتوا حاتمياً في طييء
ميتة الدهر وكعباً في اياد

لهم الجود وان جاد الورى
ما بحار مترعات من ثماد ؟

هذا ولقد وصل ابن هانئ الذروة في مدائحه للمعز لدين الله الفاطمي
فشدا بمدحه واطراء شمائله وغنى بطيب ارومته وعصره • فهو في نظر
ابن هانئ لوقورن بالدنيا والبحر لكان البحر نقشة من نقشات جوده ، والدنيا

(١١) الصفاذ : القيد •

كالغناء الذي يجيء به السيل ، كما قال :
 وطفقت اسأل عن اغرٍ محجّل
 فاذا الانام جبلة دهماً (١٢)
 حتى دفعت الى المعز خليفة
 فعلمت ان المطلب الخلفاء
 جود كأن اليم فيه نفاثة
 وكأنما الدنيا عليه غناء (١٣)

فالعز هو علة الدنيا ، ولقد خلقت السموات والارض وكل ما هو حي
 وجامد لاجله ، وان وجوده نابع من ماء الوحي الصافي ومن شجرة الخلد
 الوارفة الظلال التي تفتت ثمراتها للاوفياء ، ومن شعلة النار المقدسة التي
 انارت الطريق للنبي موسى :

ملك اذا نطقت علاه بمدحه
 خرس الوفود وأفحم الخطباء
 هو علة الدنيا ومن خلقت له
 ولعلة ما كانت الاشياء
 من صفو ماء الوحي وهو مجاجة
 من حوضه ينبوع وهو شفاء (١٤)
 من ايكة الفردوس حيث تفتت
 ثمراتها وتقياً الأفياء

(١٢) الاغر المحجّل : كناية عن الرجل الجواد الكريم .
 (١٣) النفاثة : النفخ الذي يخرج معه الريق من الشفتين . الغناء :
 ما يحمله السيل من الزبد والوسخ .
 (١٤) المجاجة : الريق . الحوض : مجتمع الماء . ينبوع : عين ماء
 متدفقة .

من شعلة القبس التي عرضت على
موسى وقد حارت بها الظلماء (١٥)

من معدنِ التقديس وهو سلالة
من جواهر الملكوت وهو ضياء

من حيث يُقْتَبَسُ 'النهار' لمبصر
وتشفُّ عن مكنونها الأبناء (١٦)

فان لطلعته سناء يعشى عين الشمس الساطعة ، ولقد اجمع الناس على
اجلاله وتفضيله • فهو شفيعهم لانه امين الله على خلقه :

والشمس 'ترجع عن سناء جفونها
فكانها مطروفة' مرهاء (١٧)

لناس اجماع' على تفضيله
حتى استوى اللؤماء والكرماء

هذا الشفيع' لامة' يأتى بها
وجودوده لجودوها شفعاء

هذا امين' الله بين عباده
وبلاده ان عُدَّت الامناء

وعلى محياه نور رباني يضي عليه بهاء ، ويجعل سيماء يظهر
كسيماء النبي محمد • وان من كانت هذه فضائله وصفاته فلا ريب يمد
الله بنصر من عنده ، وتنزل الملائكة لنصرته ، ويطيعه الصباح والمساء
والسفن التي تمخر عباب البحار والديار والايام والخضراء والغبراء •

(١٥) القبس : شعلة نار •

(١٦) اقتبس : اخذ شعلة • المكنون : المستور •

(١٧) المرهاء : المصابة بالمره وهو مرض يصيب العين •

فعلية من سيما النبي دلالة
 وعليه من نور الآله بهاء
 نزلت ملائكة السماء بنصره
 واطاعه الاصباح والامساء
 والفلك والفلك المدار وسعده
 والغزو في الدماء والدماء (١٨)
 والدهر والايام في تريفها
 والناس والخضراء والغبراء (١٩)
 فالزمان رهن يديه يتحكم فيه كيفما اراد ، فاين المفر لمن يناسب المعز
 العداء وله البسيطان الثرى والماء :
 لا تسألن عن الزمان فانه
 في راحتك يدور كيف تشاء
 اين المفر ولا مفر لهارب
 ولك البسيطان الثرى والماء
 وقال في مدح المعز :

خابت امية منه بالذى طلبت
 كما يخيب برأس الأقرع المشط
 وحاولوا من حضيض الأرض اذ غضبوا
 كواكباً ، عن مرامي شأوها شحطوا (٢٠)

- (١٨) الفلك السفينة • الدماء : البحر
 (١٩) الخضراء : السماء • الغبراء : الارض
 (٢٠) شحطوا : بعدوا

هذا ، وقد فرّق الفرقان بينكما
بحيث يفترق الرضوان والسخط
الناس غيركم ، العرقوب في شرف
واتم ، حيث حلّ التاج والقرط
ولست اشكو لنفسي في مودتكم
لأنكم في فؤادي جيرة خلط (٢١)
يا افضل الناس ، من عرب ومن عجم
وآل احمد ، ان شبّوا وان شمطوا (٢٢)
ليهنك الفتح ، لا أني سمعت به
ولا على الله ، فيما شاء ، اشترط
لكن تفاءلت ، والاقدار غالبه
والله يبسط آمالاً ، فتبسط
ولست اسأل الا حاجةً بلغت
سؤل الامام بها الركاضة النشط (٢٣)
من فوق أدهم لا يجتاز غايته
نجم من الأفق الشمسي منخرط
يحتثه راكب ضاقت مذاهبه ،
بادى التشعب ، في عنونه شحط (٢٤)

(٢١) جيرة خلط : جيران مخلصون .

(٢٢) شمطوا : خالطهم الشيب .

(٢٣) الركاضة النشط : الرسل المرعون .

(٢٤) التشعب : اصفرار الوجه . العثنون اللحية . الشمط :

الشيب .

ان الملوك اذا قيسوا اليك معاً
فأنت ، من كثرةٍ ، بحرٍ وهم نقط
ولقد جعل ابن هانيء ممدوحه المعز في مرتبة لم يبلغها غيره من
الرجال الا اذا ذاب ان الشمس ادنى درجة منه فتراها خاشعة ضارعة
لعظمته ، اذ قال :

وما بلغ الاسكندرُ الرتبةَ التي
بلغتَ ولا كسرى الملوك وتبّع

سموتَ من العليا الى الذروة التي
تُرى الشمسُ فيها تحت قدرك تضرعُ
الى غاية ما بعدها لك غايةٌ
وهل خلف افلاكِ السماوات مَطْلَع

الى اين تبغى ليس خلفك مذهب
ولا لجوادٍ في لحاقتك مطمع
ولقد شهدت السماء بمفاخر المعز وتضمن القرآن بطياته مديحا
له ، وانه لو لم تطلق عليه صفة الخلافة فانه يستحق ان يدعى بعد
المسيح مسيحا :

شهدتُ بمفخرِك السماواتِ العلى
وتنزّلُ القرآنُ فيك مديحا

اقسمت لولا أن دُعيتَ خليفة
لدُعيت من بعد المسيح مسيحا
ولقد ارتبط الدين بالامام المعز ، ففي عصيانه الخسر وفي طاعته
الفوز المبين . وان هذا الامام قد تملك هدى الملائكة التي هي افضل من
هدى الانبياء :

امام" رأيت الدين مرتبطاً به
فطاعته فوز" وعصيانه خسر
فيا مالكا هدى' الملائك هديه
ولكن نجراً الانبياء له نجر
وان المعز هو ضمير الكون والسر المكنون الذي قدرت المقدورات
وتكونت الاكوان من اجله • وانه النور الاوحد الذي هو فوق كل شيء ،
وكل شيء دونه في القدر والكرامة :

هذا ضمير' النشأة الاولى التي
بدأ الآله وغيها المكنون (٢٥)

هذا معد' والخلاق كلها
هذا المعز' متوجاً والدين
من اجل هذا قدر المقدر في
أم الكتاب وكوّن التكوين
وبذا تلقى آدم' من ربه

عفواً وفاء ليوّنس اليقطين (٢٦)
النور' أنت وكل' نور ظلمة"
والفوق' أنت وكل' فوق دون
لو كان رأيك شائعاً في امة
علموا بما سيكون قبل يكون
أو كان شرك في شعاع الشمس لم
يكسف لها عند الشروق جبين

(٢٥) النشأة الاولى : الدنيا •

(٢٦) اليقطين : الحوت •

الله يقبل نسكنا عنا بما
يرضيك من هدى و انت معين

فرضان من صومٍ وشكرٍ خليفة
هذا بهذا عندنا مقرون

فارزق عبادك منك فضل شفاعه
واقرب بهم زلفى فانت مكين

وانه الدليل لمعرفة الله ؟ وكل هداية دونه تضليل :

والله مدلول عليه صنعه
فينا و انت على الدليل دليل

من يهتدى دون المعزّ خليفة
ان الهداية دونه تضليل

فافخر ، فمن انسابك الفردوس ان
عدت ومن احسابك التنزيل

شهد البرية كلها لك بالعلى
ان البرية شاهد مقبول

هذا وان المعز كان عالما بمكنونات الله وباسرار الكون وبعلم الغيب ،
وانه لولا كونه مصدرا للشفاعة وسبباً للنجاة لم يغن الناس ايمانهم ،
فالايان المستمد عن مصدرٍ غيره انما هو ايمان ناقص مبتور :

وعلمت من مكنون علم الله ما
لم يؤت جبريلاً وميكائيلاً

لله فيك سريرة لو اعلنت
أحيا بذكرك قتال مقتولا

لو كان اعطى الخلق ما اوتيته
لم يَخْلُق التشبيهَ والتمثيلاً
لولا حجابِ دون علمك حاجز
وجدوا الى علم الغيوب سيلاً
لولاك لم يكن التفكير واعظاً ،
والعقل رشداً ، والقياس دليلاً
لو لم تكن سببَ النجاة لأهلها
لم يُغْنِ ايمانُ العباد قتيلاً
لو لم تعرّفنا بذات نفوسنا
كانت لدينا عالماً مجهولاً

وان المعز ما هو الا نور في جسم آدمي ، فهو روح هدى في جسم
نور ، يمدّه شعاع من الاعلى لا ينقطع ، فهو عليم بسر الله علماً ذاتياً غير
مكتسب ، لذا غدا الناس ناكسي الابصار امام هيئته وجليل قدره :

غَدَوْا ناكسي ابصارهم عن خليفة
عليمٍ بسرِّ الله غيرِ مُعلِّمٍ

وروح هدى في جسم نور يمدّه
شعاعٌ من الاعلى الذي لم يجسّم

ومتصل بين الآله وبينه
ممرٌ من الاسبابِ لم يتصرّم (٢٧)

اذا انت لم تعلم حقيقةَ فضله
فسائلٌ به الوحيَ المنزّل تعلم

(٢٧) الممر : المحكم الفتل • الاسباب : الحبال •

فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه
عن الله لم يعقل ولم يتوهم
ومدّره غيب لا معنّى تجارب
ولا بس حلم لا معار تحلّم

هذا ونختم بحثنا هذا برأيته التي نظمها في سنواته الاخيرة يوم كان
المعز يتأهب للرحيل الى مصر بعد ان فتحها جيوشه • وقد وصل بها ذروة
الغلو الاسماعيلي اذ اسبغ على المعز صفات الالوهية ، وهذه مقتطفات منها :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار
فاحكم فأت الواحد القهار

وكأنما انت النبي محمد
وكأنما انصارك الانصار

انت الذي كانت تبشرنا به
في كتبها الاجبار والابخار

هذا امام المتقين ، ومن به
قد دوخ الطغيان والكفار

هذا الذي تُرجى النجاة بجه
وبه يُحط الأُسر والاوزار

هذا الذي تجدى شفاعته غداً
حقاً ، وتخدم أن تراه النار (٢٨)

ابناء فاطم هل لنا في حشرنا
لجاً سواكم عاصم ومُجار (٢٩)

(٢٨) النار : جهنم •

(٢٩) المجار : الملجأ والمعاذ •

انتم أحبباءُ الآله وآله
 خلفاؤه في أرضه الابرار
 اهل النبوة والرسالة والهدى
 في الينيات وسادة اطهار
 والوحي والتأويل والتحريم والت
 حليل لا خُلفٌ ولا انكار
 ان قيل مَنْ خَيْرُ البرية لم يكن
 الاكْمُ خلقٌ اليه يشار
 لو تلمسون الصخر لانجست به
 وتفجرت وتدفقت أنهار
 أو كان منكم للرفات مخاطبٌ
 لبُوا وظنُّوا أنه انشار (٣٠)
 امعزَ دين الله ! ان زماننا
 بك فيه بأو جل واستكبار (٣١)
 عطرت بك الافواه اذ عذبت لك ال
 أمواه حين صفت لك الاكدار
 جلَّت صفاتك أن تُحدَّ بمقول
 ما يصنع المصداق والمكثار (٣٢)

(٣٠) انشار : احياء بعد الممات ، النشور .

(٣١) بأو : فخر .

(٣٢) المقول : اللسان .

والله خصَّكَ بالقران وفضله
واخجلتني ! ما تبلُغُ الاشعار (٣٣)

هذا وان شعر ابن هانيء الاندلسي يتميز بسلامة التفكير ، وسلاسة
التعبير ، ورشاقة الاسلوب ، ومثانة التركيب ، ومعالجة الكثير من الحكم
واحوال الاجتماع وخلجات النفس • ولكنه مملوء بالمفردات الصعبة
والالفاظ الغريبة ، كقوله :

ملاؤا البلادَ رغائباً وكتائباً
وقواضباً وشوازيباً ان ساروا (٣٤)

وعواطفاً وعوارفاً وقواصفاً
وخوانفاً يشتاقيها المضمار (٣٥)

وجداولاً وأجادلاً ومقاولاً
وعواملاً وذوابلاً واختاروا (٣٦)

عكسوا الزمانَ عوائتاً ودواخناً
فالصبحُ ليلٌ والظلامُ نهارٌ (٣٧)

ولقد فضل الكثير من النقاد ومؤرخي الادب ابن هانيء الاندلسي على
شعراء المغرب على الاطلاق •

(٣٣) القران : مسهل القرآن •
(٣٤) الرغائب : العطاء الكثير • القواضب : السيوف • الشوازب :
الخيول الضوامر •

(٣٥) العواطف : النوق ذات الاولاد • العوارف : النوق الصبورة •
القواصف : النوق الشديدة الصوت • الخوانف : النوق التي تميل برأسها
الى راكبها • المضمار : الموضع الذي تضمير فيه الخيل والدواب •

(٣٦) الجدول : النهر الصغير • الاجادل : الصقور • المقاول :
الملك • العوامل : صدور الرماح • الذوابل : الرماح •

(٣٧) العوائن : الدخان • الدواخن : جمع دخان •

فقد قال عنه ياقوت الحموي في كتابه « معجم الادباء » :
« ابو القاسم الازدي الاندلسي اديب شاعر مفلق ، اشعر المتقدمين والمتأخرين
من المغاربة ، وهو عندهم كالمثبيء عند اهل الشرق » •

وقال ابن خلكان عنه : « وليس في المغاربة من هو في طبقة ، لا من
متقدميهم ولا من متأخريهم ، بل هو اشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم
كالمثبيء عند المشارقة » •

وقال كذلك عن ديوان ابن هانئ : « لولا ما فيه من الغلو في المدح
والافراط المفضي الى الكفر لكان ديوانه من احسن الدواوين » •

الحكم والأعمال في شعر الطغرائي

الطغرائي هو أبو اسماعيل بن الحسين عميد الشعر العربي في عهد الدولة السلجوقية امتاز شعره بالفخر والحكم والامثال وكان معجبا بالمتنبي وبشعر المتنبي حتى لقد حذا حذوه في اسلوبه ومعانيه • وان شعره يتسم بجزالته ومثانة قافيته وبديع الفاظه • وله نثر يجارى شعره في احكام الصنعة وحرصاته الاسلوب • لذا فقد اختاره السلاطين السلجوقيون لرئاسة ديوان الطغراء الذي يشمل ديوان الرسائل والانشاء • ويتولى صاحب هذا المنصب شؤون الوزارة في الصيد • ولقد وصف انه « لم يكن للدولتين السلجوقية والامامية من يضاھيه في الترسل والانشاء » •

ولد الطغرائي في مدينة اصبهان عام ٤٥٣ هجرية وهي من امهات المدن الاسلامية في ذلك الزمان مشهورة بجمال طبيعتها وبعذوبة مائها واعتدال مناخها وكثرة مساتينها وفاكهتها حتى لقد تغنى الشعراء بها واكثروا من وصفها وابرار محاسنها • فقال شاعر :

يا بقعة هي دار الخلد او خلقت

انموذجا لنعيم دائم فيها

وقيل فيها أيضا :

فمن حل جياً ليس يشئ رحالها

وانسى حاجات باخري انتظامها

لتشرب مياه الزندرود اذا اشتكت

من السقم نفس - كي يخف سقامها

و (جي) التي ورد ذكرها في الشعر اجمل بقعة في اصفهان ،
و (الزندرود) النهر الذي يخترق تلك المدينة الجميلة •

ولد الشاعر من اسرة عريقة ، قيل انها فارسية وقيل انها عربية تنتمي
الى ابي الاسود الدؤلي • فتتقف واخذ العلم والادب من اجود مناهله ،
فألم بكل فنون ومعارف عصره ، وقال الشعر واجاد فيه ، وذاع صيته •
كان فاضلا واسع الاطلاع ، وكان طموحاً معتدا بنفسه يشعر بالاعتزاز
بذاته طامعاً بتسلق مراقبي المجد بحصوله على مناصب عليا في الدولة • وهو
يشبه المتسبي بهذا كما يشبهه بمجايبته لكثير من الحساد والمناوئين الذين
دبروا له المكائد والديسائس حتى تمكنوا أخيرا من رميه بالسحر تارة
وبالاحاد أخرى كذبا وبهتاناً وعملوا على قتله ، فذهب الى مقره الاخير
شهيدا وقد جاوز الستين من عمره •

ولقد وصف الطغرائي انه كان « ذا فضل غزير وأدب كثير •• »
وكان « اذا انشأ تروى بطيا وتفكر مليا وغاص في بحر خاطره ، ثم اتي
بالمعاني البديعة والاستعارة الغريبة » •

وكان طموح الطغرائي يدفعه الى عدم القناعة والاكتفاء بمنصبه في
ديوان الطغراء ، بل كان يطمع بالوزارة • ولكن دسائس طغمة الفت
المكائد واستساعت الكذب والباطيل كانت واقفة له بالمرصاد حتى تمكنت
من ابعاده عن منصبه في عدة مناسبات ، وهذا دعاء الى نظم قصائد رنانة
متهجما فيها على اولئك الكائدين الذين ناصبوه العدا والذين كانوا دونه
كفاءة واصالة ، فقال :

ما كنت اوتر ان يمتدَّ بي زمني

حتى ارى دولة الاوغاد والسفَل

تقدمتني اناس" كان شوطهم'
وراء خطوى اذ امشي على مهل
وقال :-

تكاد ترى من لا يقاس نجاده
بشسعي اذا ما ضمنا صدر مشهد

(والشسع) زمام للنعل بين الاصبع الوسطى والتي تليها •

ومن اشعاره التي قالها في الفخر قصيدته التي مطلعها :

ابي الله ان اسمو بغير فضائي
اذا ما سما بالمال كل مسود

وان كرمتم قبلي اوائل اسرتي
فاني بحمد الله مبدأ سؤدي

يذم لأجلي المهر ان يكب مرة
بجدي وان ينهض بجدي يحمد

وما منصب الا وقدري فوقه
ولو حظ رحلي بين سر وفرقد

اذا شرفت نفس الفتى زاد قدره
على كل اسنى منه ذكرا وامجد

وكانت تلك القصيدة نفثة حارة للتنفيس عما كانت تصطرع في نفسه
من رغبات وما كان يقاسيه من شدائد واحن وظروف قاسية عصبية •
وأخيرا حلت المصيبة الدهماء التي كان يخشاها فعزل الطغرائي من
منصبه عندما كان في بغداد • فنظم قصيدته العصاوين الرائعتين وهما بآيته
التي مطلعها :

اهاب به داعي الهوى فأجابا
وعاوده نكس الصبا فتصابي
والتي تضمنت ثورته على العراق واهله :

مللت ثوائي بالعراق وملّني
رفاقي وكانوا بالعراق طرابا

اما القصيدة الثانية فهي لاميته الشهيرة بلامية العجم والتي مطلعها :

اصالةُ الرأي صانتني عن الخطل
وحليةُ الحلم زانتني لدى العطل

وهذه القصيدة اثن من درة في ديوان الطغرائي • طالما اعجب بها
المعجبون ، وشرحها الشارحون وعلى رأسهم الصفدي ، وطالما عارضها
الشعراء المعجبون بها امثال الصفدي بقصيدته :

الجد في الجد والحرمان في الكسل

فانصبَّ تُصبُّ عن قريب غاية الامل

والبارودي بقصيدته :

قلدت جيد المعالي حلية الغزل

وقلت في الجد ما اغنى عن الهزل

★ ★ ★

نظم الطغرائي لاميته في عام ٥٠٥ في بغداد بعد عزله من منصبه فاودعها
كل ما كان يخامرهم من مشاعر وأفكار ، اودعها روحه وعقله واحاسيسه
فظهرت آية من آيات الروعة والجلال • وهي بالاضافة الى ذلك تسم
بفصاحة اللفظ وبديع المعنى وفخامة التركيب •

والقصيدة تبدأ بمقطع يعبر عن الفخر والكبرياء اللذان كانا يعمران
قلب الشاعر :

اصالة الرأي صانتني عن الخطلِ
وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ^(١)

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع^(٢)
والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفل^(٣)

وهو يعبر عن شعوره بالاعتداد بذاته فيقول ان فكره السليم صانه
عن المنطق الفاسد ، وان ما تحلت به نفسه من فضل وخلق قويم زانه
واظهراه بالمظهر اللائق المحترم عندما فقد منصبه ، اذ الاخلاق ، وليس
المنصب ، تظهر قدر الانسان . ثم يقول ان مجده قبل تعطله عن وظيفته
وبعده سواء ، حاله في ذلك كحال الشمس التي لا تتغير سواء كانت عند
شروقها أو عند الغروب .

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناء عن الاهل صفر الكف مفرد
كالسيف عرّي متناه عن الخلل^(٣)

فلا صديق اليه مشتكي حزني
ولا انيس اليه منتهى جذلي

-
- (١) الخطل : المنطق الفاسد . العطل : البعد عن المناصب الحساسة .
(٢) شرع : سواء . رآد الضحى : طلوع الشمس . الطفل : غروب
الشمس .
(٣) الخلل : بطائن كانت تغطي بها اجفان السيوف منقوشة
بالذهب .

وهنا يثور الشاعر على بغداد فتحدثه نفسه بتركها لما اصابه فيها من
خيبة أمل ، واصيب بأعز ما يملك وهي عزته وكبرياؤه • « فيم الإقامة
بالزوراء » تم عن مدى شعوره بالاسى المرير والالم الممض من مكوثه في
بلد لم يعرف قدره حيث لا أهل يسكن اليهم فيها ولا مال أو نسب ،
وحيدا ، بعيداً عن الأهل والأصحاب ، خالي الوفاض شأنه شأن المهند
الخالى من الحلبي والزينة •

طال اغترابي حتى حنّ راحلتي
ورحلها وقرى العسالة الذبل^(٤)

وضيح من لغب نضوى وعيج لما
يلقى ركابي ، ولجّ الركب في عدلى^(٥)

وهنا تملكه الحنين الى وطنه واهله واجبائه حتى حنت ناقته وحنّت
رماحه الى حيث الدعة والاستقرار • ثم عاد يشتكي مما يقلق نفسه من
آلام مصدرها دسائس العذال والحاسدين •

أريد بسطة كفّ أستعين بها
على قضاء حقوق للعلى قبلي^(٦)
والدهر يعكس آمالي ويقتعني
من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل^(٧)

ان ما كان يشغل باله طموحه نحو المعالي وورغبته الجامحة لتسلق
مراقي المجد صعدا وان سعة الحال هي الوسيلة لتحقيق ما كان يصبو اليه

-
- (٤) الراحلة : الناقة • قرى العسالة : أعالي الرماح • الذبل :
الخفيفة الدقيقة وهي صفة حسنة من صفات الرماح •
(٥) النضو : البعير المهزول •
(٦) بسطة كف : سعة في المال •
(٧) الكد : الجد • القفل : الرجوع والخيبة •

أذ المال بيد الفاضل أداة خير وصلاح ووسيلة للوصول الى العلا • ولكن
الدهر الخؤون كان يعكس آماله ويوصلد بوجهه أبواب النجاح ويقنعه
من الغنيمة بعد الجد بالنكوص على الاعقاب •

ثم يتبع ذلك مقطع في الغزل وكأنه يتغزل فيه بالمجد وليس بربات
الحجال • وتنتهي القصيدة بمقاطع تكاد لا تعثر في أبياتها على بيت يخلو
من مثل سائر أو حكمة رائعة • وهذه المقاطع تبدأ بالآيات التالية :

حبُ السلامة يَشْتِي همَّ صاحبه
عن المعالي ويُغري المرء بالكسل

فان جنحتَ اليه فاتَّخذْ نفقاً
في الارض أو سلماً في الجو فاعتزل

ودعْ غمارَ العلا للمقدمين على
ركوبها ، واقتنع منهنَّ بالبلل

رضى الذليل بخفض العيش مسكنةً
والعزُّ عند رسيم الاينق الذُّلُّ (٨)

فادراً بها في نحور اليد جافلةً
معارضاتٍ مثاني اللُّجم بالجُدُل (٩)

ان العلا حدَّتني وهي صادقة
فيما تحدت أن العز في النقل

لو ان في شرف الماوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

(٨) الرسيم : ضرب من سير الابل • الاينق : النوق (جمع ناقة)

(٩) فادراً : فادفع • جافلة : مسرعة • الجدل جمع جديل : وهو

زمام الناقة المجدول •

ففي هذه الأبيات يدعو الشاعر الى الأقدام والمغامرة في الحياة لان
حب السلامة يميئ العزائم ويصد الانسان عن بلوغ المعالي • ومن جنح
اليه فليتخذ له نفقا في الارض أو سلما في الجو فيعتزل الناس ، لان طبيعة
الحياة تستوجب الحركة والسعي والاجتهاد ، ومن لم يجار سنة الطبيعة
تسحقه عجلة الحياة ويداس تحت الأقدام • وان القناعة بخفض العيش
انما هي ذل ومسكنة ، والعز عند ذلك الذي يبحث عن المعالي فيتصيداها
حتى لو كانت في الجوزاء • ولو كان في الكسل والسكون بلوغ الاماني
لما واصلت الشمس حركتها ومسيرها بلا انقطاع •

ثم يعود الشاعر الى ذاته فيلعن حظه العاثر ، ويعلل نفسه آملا ان
يتنبه الحظ لفضله يوماً ما فيسعهف السعود ، قال :

اهبتُ بالحظِّ لو ناديت مستمعاً

والحظُّ عني بالجهال في شغل

لعله ان بدا فضلي ونقصهم

لعينه ، نام عنهم او تنبّه لي

أعلل النفس بالآمال أرقبها

ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

لم ارتض العيش والايام مقبلة

فكيف ارضى بها وقد ولت على عجل

غالى بنفسي عرفاني بقيمتها

فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

وعادة النصل أن يزهي بجوهره

وليس يعمل الا في يدي بطل

واقبل على نفسه يشيد بفضلها ويفخر بقيمتها حيث انه قد صانها عن
رخيص القدر مبتذل ، وان شأنها شأن النصل الذي يزهي بجوهره
لا بمظهره • وعاد الى الشكوى من زمان قدم السفلة والاوغاد ، ثم اخذ
يسلّي نفسه بان لا عجب ، فله اسوة بانحطاط الشمس المنيرة عن زحل •
فقال :

ما كنت 'أوتر' أن يمتدّ بي زمني
حتى أرى دولة الاوغاد والسفل

تقدّمتي اناس' كان شوطهم'
وراء خطوى' اذ' أمشي على مهل

هذا جزاء' امرئ' اقرانه' درجوا
من قبله فتمني' فسحة' الاجل

وان علاني' من' دوني فلا عجب'
لي اسوة' بانحطاط الشمس عن زحل

فاصبر لها غير محتمل ولا ضجر'
في حادث الدهر ما يغني عن الحيل

ثم ينتقل الشاعر الى سبر غور النفس الانسانية وتحليل اخلاق الناس
فيقول :

اعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل^(١٠)

وانما رجل' الدنيا وواحدتها
من لا يعوّل في الدنيا على رجل

(١٠) الدخل : المكر والخديعة والمداهنة •

وحسنُ ظنِّك بالايامِ معجزةٌ

فظنُّ شراً وكن منها على وجل

غاض الوفاء ، وفاض الغدر وانفرجت

مسافةُ الخلف بين القول والعمل

وشان صدقك عند الناس كذبهم

وهل يطابق معوجٌ بمعتدل

ان كان ينبجع شيء في ثباتهم

على العهود فسبقُ السيف للعذل

ينصح الشاعر ان يأخذ كل فرد حذره من الناس ، وان يصحبهم

بالخدیعة والمكر ، وان لا يثق باحد حتى لو كان اقرب المقربين اليه لان

« اعدى عدوك ادنى من وثقت به » • وان الرجل الماجد الحصيف هو

الذي لا يتكل الا على نفسه ، والذي لا يحسن الظن بالايام وبالناس ،

حيث ان الوفاء قد انعدم ، والغدر قد استفحل امره ، والكذب قد راج

شوقه ، (وهل يطابق معوج بمعتدل ؟) ، وهل يمكن ان يعيش امرؤ

صادق مستقيم بين قوم شيمتهم الكذب واللؤم والغدر ؟ •

وأخيراً انحدر الطغرائي الى حالة من اليأس والقناعة واخذ يعاتب

نفسه قائلاً :

يا وارداً سُورَ عيشٍ كلُّه كدرٌ

أنفقت صفوَك في ايامك الاول

فيم اقتحامك لِح البحر تركبه

وانت يكفيك منه مصّة الوشل

ملك القناعة لا يخشى عليه ولا
يحتاج فيه الى الانصار والخول^(١١)
ترجو البقاء بدارٍ لا ثبات لها
فهل سمعت بظلٍ غير منتقل
ويا خيراً على الاسرار مطلقاً
اصمت ففي الصمت منجاة من الزلزل
قد رشحوك لامر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل^(١٢)

فانتهى الشاعر بحالة من اليأس المطبق ، وقال مخاطباً نفسه ان العيش
كله كدر ، وان ايام الصفو قد ولت وزالت ، فعلام اقتحام لجج البحار في
الوقت الذي يكفى منه مصة الوشل • وان ملك القناعة لا يخشى عليه
ولا يحتاج للدفاع عنه الى الانصار والعييد • واخذ يحذر نفسه من أعدائه
الذين يضمرون له شراً ويسعون الى هلاكه ، وينصحها بالتزام الصمت ،
ففي الصمت منجاة من الزلزل • كما اخذ يعزى نفسه بان فقد المال والمنصب
اهون من فقد الحياة ؛ ولما كانت الحياة ليس لها قرار أو ثبات ، فقدت المال
أو المنصب يظهر تافهاً أمام الموت الي هو بانتظار كل انسان •••

هذا وان عظمة هذه القصيدة اللامية تكمن في فخامتها وروعيتها ،
بقدر ما تكمن فيما تضمنته من امثال وحكم تداولتها الالسن وتناقلتها الافواه
في مختلف العصور والاجيال •

(١١) الخول : الحشم والعييد •

(١٢) الهمل : الابل بلا راع •

الوصف

في شعر ابن خفاجه

كان الوصف ملازماً للآداب الإنسانية لأنه ملازم لطبيعة النفس البشرية منذ الحياة البدائية حتى حياة التحضر والمدنية •

فكان الإنسان وما يزال يتعنى بما يشاهده من جمال الطبيعة المحيطة به فيعبر عن روعتها وعمما تختلج في نفسه من احساس تجاهها •

وصف الشعراء ، واطنبوا في وصفهم ، محاسن الطبيعة من حدائق وبساتين وزهور وسفن ماخرة عباب البحور ومن مدائن ومباني وقصور ومجالس للطرب والشراب حيث تدار الخمور على أنغام الموسيقى التي تهز الشعور والجان المغردات الشاديات اللائي يملأن القلوب بهجة وجورا • وفي قمة ما احتوته الطبيعة من روائع المخلوقات تسنم المرأة عرش القلوب لذا نجد في الآداب الإنسانية وخاصة في الادب العربي غزارة في وصف المرأة وابداء محاسنها والتفنن في التعبير عن خلجات النفوس تجاهها • كما جاء في وصف دوقلة المنبجي حبيبته دعد في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

هل في الطلول لسائل رد ام هل لها بتكلم عهد

والتي جاء فيها :

لهفي على دعد وما خلقت
الا لجر تلهفي دعد

بيضاء قد لبس الاديم بها
ء الحسن فهو لجلدها جلد
ويزين فوديهما اذا حسرت
ضافي الغدائر فاحم جمع
فالوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد
وجينها صلت ، وحاجبها
شخت المخط اذج ممتد
وكأنها وسنى اذا نظرت
أو مدنف لما يقق بعد
وتريك عريناً يزيته
شمم وخذاً لونه الورد
وتجيل مسواك الاراك على
رتل كأن رضابه الشهد
والجيد منها جيد جارية
تعطو اذا ما طالها المرد
وامتد من اعضدها قصب
فعم تلته مرافق دزد
والمعصمان فما يرى لهما
من نعمة وبضاضة زند

ولها بنان لو اردت له
عقداً بكفك أمكن العقد

وكانما سقيت ترائبها
والنحر ماءً الورد اذ تبدو

وبصدرها حقان خلتها
كافورتين علاهما ندى

والبطن مطوى كما طويت
بيض الرياط يصونها الملد

ويخصرها هيف يزيئنه
فاذا تنوء يكاد ينقد

والنف فخذها وفوقهما
كفل يجاذب خصرها نهد

فقيامها مثنى اذا نهضت
من ثقلها وقعودها فرد

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦ ♦

ما عابها طول ولا قصر
في خلقها فقوامها قصد

ان فن الوصف يتأثر بالبيئة والمحيط والتطور الفكري والعقلي أكثر
من أي غرض آخر من أغراض الشعر اذ يستعير الشاعر عادة صوره
وتشابهه من واقع بيئته ♦
فالبدائي تميل به بساطته الفكرية الى نزعة التقليد، فينقل ما يرى

حوله وما يشاهد من آثار الطبيعة المحيطة به دون ان يصور خلجات نفسه
المتأثرة بتلك المشاهد والمؤثرات • بل هو يحاول تجسيد الظاهرة كما
تبدو للحواس • فوصفه أبدا وصف مادي •

اما المتحضر فان نفسيته المعقدة تقوده الى ان لا يكتفى بنقل الظواهر
نقلا تصويريا فقط بل يمزجها بفكره وأحاسيسه وضميره بصورة انسانية
حية • فنظرته تتعدى الظواهر الى الحقائق والمعاني التي تكمن وراءها
وحولها • فوصفه وصف وجداني تغلب عليه النزعة النفسية ، تنفيض
ذات الشاعر على الظواهر المادية وتسبغ عليها ملامح انسانية •

ومن دلائل تأثير البيئة في الشعر الوصفي المواضيع التي تطرق اليها
الوصف في مختلف العهود • فوصف الشاعر الجاهلي لم يتعد وصف
الطلل والصحراء والناقة والفرس والعقاب وما شابه ذلك كما قال امرؤ
القيس يصف جواده :

وقد اغتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الاوابد هيكلا
مكر مفر مقبل مدير معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل
له ايطاليا ظبي وساقا نعامة
وارحاء سرحان وتقريب تتفّل

اما الشعر الوصفي في العهد العباسي فقد تغير موضوعه بتغير الحياة
التي اخذت تتسم في هذا العهد بالترف والرشاء والرفاهية ومظاهر الحياة
الحضارية • فلم تعد المساكن خياما وسط بيداء لا يرى فيها الا الرمال
التموجة ، بل أصبحت بيوتا انيقة وقصورا فخمة تحف بها الحدائق
العُنى المليئة بالاشجار المورقة الخضر والازهار والرياحين • ولم يعد

الشعر الوصفي مقتصرا على وصف الطلل البالي والناقة والفرس والذئب
والاسد بل تعداها الى الف موضوع وموضوع • فصار الشاعر يصف
الجنائن الزهر والبرك والقصور الشمّ ومجالس اللهو والشراب وما
تحتويه من مغنين ومغنيات وسقاة وساقيات •

ولقد اجاد البحري ايما اجادة في وصف بركة المتوكل بقوله :

تصبُّ فيها وفودُ الماء معجّلة

كالخيل خارجة من جبل مجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة

من السبائك تجرى في مجاريها

إذا علتها الصبا ابدت لها حبكا

مثل الجواشن مصقولا حواشيها

فحاجب الشمس احيانا يضحكها

وريق الغيث احيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها

ليلاً حسبت سماء رُكبت فيها

ولقد اتخذ فن الوصف من الخمر مرتعا خصيبا كما جاء بقول ابي

نؤاس في وصف مجلس للشراب :

اذكى سراجا وساقى الشرب يمزجها

فلاح في البيت كالمصباح مصباح

كدنا على علمنا بالشك نسأله

اراحنا نارنا ام نارنا الراح

اما الشعر الاندلسي فقد تأثر الى حد كبير بما منح الله تلك البلاد من

طبيعة فاتنة تستهوى الافئدة والقلوب • فكانت اغنى بقاع المسلمين منظرا
واوفرها جمالا • وقد افاض المقرئ في وصف طبيعتها الفاتنة وجنانها البهيجة
حتى انتهى الى قوله : « محاسن الاندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها
لا يشق عبارته » •

وقد كان من اثر ذلك الجمال الفتان ان شغفت به القلوب فتعلق
بالاندلس سكانها وصاروا يستمتعون بمفاتنها وينظمون عقوداً من الآلىء
في وصف رياضها ومباهج جنانها كما قال ابن خفاجة :

يا أهل اندلسِ لله دركم
ماءٌ وظلٌّ وانهارٌ واشجار

ما جنة الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذى كنت اختار

لا تختشوا بعدها ان تدخلوا سقراً
فليس تدخل بعد الجنة النار

ويكفى ان يهب نسيم عليل على الشاعر ابن خفاجة حتى يتذكر اندلسه
فيشدهو :

ان للجنة في الاندلس
مُجْتَلَى حَسَنٍ وريِّا نَفْسِ

فسنا صبحتها من شنبِ
ودجى ظلّتها من لَعَسِ

فاذا ما هبّت الريح صبا
صحتُ : واشوقى الى الاندلس

اذ أن كل ما هو جميل يذكر الانسان بارض الصبا والجمال •

والطبيعة عند شعراء الاندلس طروب تبعث روح الطرب والنشوة •
فوصفهم الطبيعة متصل بالغزل والخمر ، فهم لا يذكرون الطبيعة الا في
رحاب الحب ولا يذكرون الحب الا في رحاب الطبيعة الجميلة •

والمرأة عندهم صورة من محاسن الطبيعة ، فهي تمثل جمال الطبيعة
وفتنها • ولقد قال المقرئ عن شعراء الاندلس « انهم اذا تغزلوا صاغوا من
الورد خدودا ومن الترجس عيوناً ومن الآس اصداغاً ومن السفرجل نهوداً
ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة
العنب رضاباً » •

ولقد كان ابن خفاجة الاندلسي رائد الشعر الوصفي في الاندلس •
فقد وقف كل مواهبه لادراك الجمال وفهم ظواهره الرائعة المبتوثة في
انحاء الكون ، فاتجه بجميع قواه الفكرية والخيالية الى معالجة التعبير عن
هذا الجمال •

ولد ابو اسحق بن ابي الفتح بن خفاجة الاندلسي ببلدة شقر في
عام ٤٥٠ هجرية وعاش في عصر المرابطين في وقت بلغ نضج اللغة والادب
اقصاه ، وعاش الادباء في حياة لهو ومجون • ومتى استولى اللهو على
النفوس عشقت الجمال بكل انواعه وصبت الى التعبير عنه واظهار محاسنه
ومفاته ، كما قال ابن خفاجة :

وما الانسُ الا في مُجَاجِ زجاجة

ولا العيش الا في صرير صرير

واني ، وان جئت المشيب ، لمولع

بطرّة ظل فوق وجه غدير

وقد تفرد ابن خفاجة بوصف الطبيعة بكل مظاهرها الحسنة فكان

اوحد الناس فيه حتى لقد لقبه الشقندي بصنوبرى الاندلس •

ولقد اضمح شاعرنا للطبيعة في جميع مظاهرها الرائعة وجمالاتها
الفتاة اصدق الحب والاعجاب ، فمزج احساسه بوصفه لتلك المظاهر
مما جعل لشعره روعة اى روعة ، اذ يخيل للقارئ انه ينظر في لوحة
تصوير فنية • فكأن قلمه ريشة مصور ماهر •

ومما اضى على شعره المتانة والجزالة انه كان بطبيعته فناً يحسن
اختيار الالفاظ والجمل كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة • فان
اسلوبه جميل وكلامه سائق للنفس لا تجد فيه اثرا للركاكة او التعقيد •
ولقد دبح شعره بزخرف البديع ، ووشاه بكثير من المجاز والتشبيه •

قال ابن خفاجة يصف زهرة :

ومائة تزهى وقد خلع الحيا
عليها حلي حمرا واردية خضرا
يدوب لها ريق الغمام فضة
ويجمد في اعطافها ذهباً نضرا

وقال يصف نهيرا ينساب في احد المروج متلويًا كالحية الرقطاء :

للّه نهرسار في بطحاء
اشهى وروداً من لمى الحسناء^(١)
متعطفٌ مثل السوار ، كأنه
والزهر يكنفه ، مجرّ سماء^(٢)
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مفرغاً
من فضة في برودة خضراء^(٣)

(١) البطحاء : المسيل الواسع • اللمى : سمرة مستحبة في الشفاء •

(٢) يكنفه : يحيط به •

(٣) شبه النهر بقرص مفرغ من فضة وما يحيط به من النبات ببردة

• خضراء •

وعدت تحف به الغصون كأنها
هُدْبٌ يحفُّ بمقلّة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً
متلويّاً كالحيّة الرقطاء
والريح تبعثُ بالغصون وقد جرى
ذهبُ الاصيل على لجين الماء^(٤)

وقال يذكر زيارة طيف له واصفاً الليل والنجوم نم تكلم في الطيف
واصفاً اياه بارق ما يصف به حبيب حبيبه واحسن ما ينال عاشق من عشيقه
وقد دام ذلك حتى مطلع الفجر الذي اخذ يتجسس اخبارهما من وراء
ستائر الغمام :

ورداء ليل بات فيه معانقي ،
طيفٌ أَلَمَّ لظيئة الوعساء^(٥)
فجمعتُ بين رضابه وشرابه
وشربتُ من ريق ومن صهباء
ولثمت ، في ظلماء ليلة وفرة ،
شَفَقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مُشَمَطٌ الذوائب ، كبرةً
خرِفٌ يدبُّ على عصا الجوزاء^(٦)

(٤) يشير الى اشعة الشمس المحمرة عند المغيب ضاربة وجه الماء
الرقراق وهو كصفحة من لجين .

(٥) رداء الليل : شدة الظلمة . الوعساء : رابية رملية .

(٦) مشمط الذوائب : ذو جدائل اختلط بها السواد بالبياض .

ثم اثنى والسكر يسحب فرعه
ويجر ، من طرب ، فضول رداء
تدى فيه اقحوانة أجرع
قد غازلتها الشمس غيباً سماء
وتيس في اثوابه ريحانة
كرعت على ظمأ بجداول ماء
نفاحة الانفاس الا انها
حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً حسبها
فيه بقطر الدمع من انواء
والفجر ينظر من وراء غمامة
عن مقلّة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة
أغرّى لها بنفسح الظلماء (٧)
وقال في وصف غلام يسقى الخمرة في مجلس للشراب :
وأغيد في صدر الكلام لحسنه
حلى وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف اما ردفه فمنعم
خصيب واما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نور وجهه
وقامته نواره وقضيب

(٧) النورة : زهرة بيضاء .

جلاها وقد غنى الحمام عشيةً
عجوزاً عليها للحياب مشيب

وجاء بها حمراء ، أما زجاجها
فماء ، وأما ملؤه فلهيب

على لجة ترتج ، أما حبابها
فنور ، وأما موجهها فكثيب

تجافت بها عنا الحوادث برهة
وقد ساعدتنا قهوة وحييب

وغازلنا جفن " هناك كترجس
ومبتسم " للاقحوان شيب

فله ذيل للتصابي سحبه
وعيش باطراف الشباب رطيب

وقال يصف البرد الذي يتساقط من السماء فكأنه رجم للبيضة
الزانية :

يا ربّ قطرٍ جامد حلّى به
نحر الثرى برّد " تحدر صائب

حصب الاباطح منه ماءً جامد
غشى البلاد به عذاب ذائب (٨)

فالأرض تضحك عن قلائد انجم
نُثِرَتْ بها والجوُّ جهّم " قاطب (٩)

(٨) حصبه : رماه بالحصى .

(٩) جهم قاطب : عابس .

فكأنما زنت البسيطة تحته
فأكبَّ يَرجمها الغمام الحاصب
ولقد سال كلامه رقة وابدع التصوير في قوله واصفاً شاباً جميلاً
يسبح :

وصقيل إفرند الشباب بطرفه
سَقَمٌ وللعَضْب الحسام ذباب (١٠)

يمشى الهوينا نخوةً ولربما
اطرته طوراً نشوة وشباب (١١)

شتى المحاسن ، للوضاء ربطة
ابدا عليه ، وللحياء نقاب (١٢)

وبمعطفيه للشيبية منهل
قد شفَّ عنه من القميص سراب

عبر الخليج سباحة فكأنما
أهوى فشق به السماء شهاب

تطفو لغرته هناك جابية
ويموج من ردف ألف عباب (١٣)

ويصور الشاعر في المقطوعة التالية الحالة النفسية لمن يسير وحيداً
في ليل حالك الظلام الذي يثير في النفس الخوف والرهبة والخيالات
المرعبة :

(١٠) العَضْب : السيف • الذباب : الحد •

(١١) اطرته : عطفته وثنته •

(١٢) الربطة : الملاءة •

(١٣) الردف الألف : الضخم السمين •

ومفازة لانجم في ظلماتها
يسرى ولا فلك بها دوّار
تلهّب الشعرى بها وكأنها
في كف زنجيّ الدجى دينار
ترمى به الغيطان فيها والربى
دولاً كما يتموج التيار
قد لفتى فيها الظلام وطاف بي
ذئب يلتم مع الدجى زوّار
طراق سادات الديار مساور
ختال ابناء السرى غدار^(١٤)
يسرى وقد نضح الندى وجه الصبا
في فروة قد مسّها اقشعرار
فعموت في ظلماء لم تُقدح بها
الا لمقتله وبأسى نار
ورفلت في خلع عليّ من الدجى
عقدت لها من انجم أزرار^(١٥)
والليل يقصر خطوه ولربما
طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق
فيها ومن خط الهلال عذار

(١٤) مساور : موائب • ختال : خداع •

(١٥) رفلت : تبخترت •

وفيما يلي وصف بديع لحديقة زاهية بعير زهورها وتشابك غصون
اشجارها وشدو عنادها وحمامها :

وصقيلة الانوار تلوى عطفها
ريح " تلف " فروعها معطار
عاطى بها الصهباء احوى احور
سحاب اذبال السرى سحار
والنور عقد والغصون سوائف
والجذع زند والخليج سوار
بحديقة ظل اللمي ظلاً بها
وتطلعت سنباً بها الانوار (١٦)
رقص القضيبي بها وقد شرب الثرى
وشدا الحمام وصفق التيار
غناء الحف عطفها الورق الندى
والتف في جنباتها النوار
فتطلعت في كل موقع لحظة
من كل غصن صفحة وعذار
ويصف نورية المحيا :

لله نورية المحيا
تحمل نارية الحميا
والدوح رطب المهز لدن
قد رق ريباً وطاب ريباً
تجسم النور فيه نوراً
فكل غصن به ثرياً

(١٦) الشنب : بياض الاسنان وحسنها . ص ٥٢

ولم يفته في وصف محاسن حصانه الاغر الكريم ان يوسع محاسن
الطبيعة ومفاتها وصفاً بقوله :

تخيرته من رهط اعوج سابقاً
اغرّ كريم الوالدين نجيباً

خيفاً ولم يحلم بسوط كأنما
يفوت عدواً او يؤم حيباً

سرى واتمى برق بذي الاثل ليلة
فبات بها هذا لذاك نسيباً

وحن الى سفر فطار الى السرى
يخوض خليجاً او يجوب كيباً

يؤم بها ارضا عليّ كريمه
ومرتبعا فيها الي حيباً

ونهرا كما ابيض القبّل سلسلاً
وجزعاً كما اخضر العذار خيباً

ورب نسيم مرّ بي وهو عاطر
رقيق الحواشي لا يحس ديباً

وجدت به من ذلك الماء بلّة
ومن نور هاتيك الاباطح طيباً

فضافت ريان النسيم تشوّراً
اليها ولازمت القضيب رطيباً

وقد قلّد النوار جيداً لربوة
هناك ونحراً للفضاء رحيباً

وأفصحت الورقاء في كل تلعة
نشيدا وقد رق النسيم نسيبا^(١٧)
وكان على عهد الشباب تغنيا
يشوق اخا وجد فعاد نحيا
دعا لغروب الدمع والدار غربة
فلم ار الا داعياً ومجيباً
وقال في وصف ليل كجناح الغراب حلقة وسواداً :
ابى البرق الا أن يحنّ فؤاد
ويكحلّ اجفانَ المحب سهاد
فبت ولي من قانيء الدمع قهوة
تدارُ ومن احدى يديّ وساد
تنوح لي الورقاء وهي خلية
وينهلّ دمع المزن وهو جماد
وقد كان في خديّ للشهب ملعب
فقد صار فيه للوراد طراد
وليلٍ كما مد الغراب جناحه
وسال على وجه السجلّ مداد
به من وميض البرق، والليل فحمة
شرار ترامي والغمام زناد
سريت به احبّه لا حية السرى
تموت ، ولا ميت الصباح يعاد

(١٧) التلعة : ما علا وارتفع من الارض .

يقلّب مني العزمُ اسنانَ مقلّةٍ
 لها الأفقُ جفنَ والظلامُ سواد
 بخرق لقلب البرق خفقة روعة
 به ولجفن النجم فيه سهاد
 سحيقٍ ، ولا غيرَ الرياح ركائبُ
 هناك ولا غيرَ الغمام مزاد
 كأنني واحشاء البلاد تجنّني
 سريرةُ حبِّ والظلام فؤاد^(١٨)
 اجوب جيوب اليد والصبح صارم
 له الليل غمدٌ والمجرّ نجاد
 وفي مصطلى الأفاق جمر كواكب
 علاها من الفجر المطلق رماد
 ولما تفرّيت من دجى الليل طحلبُ
 وأعرض من ماء الصباح ثماد^(١٩)
 حننت وقد ناح الحمام صبابة
 وشقّ من الليل البهيم حداد
 على حين شطت بالحبائب نية
 وحالت فيافي بيتنا وبلاد
 عشية لا مثل الجواد ذخيرةُ
 ولا مثل رقراق الحديد عتاد^(٢٠)

(١٨) تجنّني : تسترني •

(١٩) الثماد : الماء القليل •

(٢٠) رقراق الحديد : فرند السيف •

إذا زار خطب خفرتي ثلاثة
سنانٌ وعضبٌ صارمٌ وجواد
فبتٌ ولا غيرَ الحسامِ مضاجع
ولا غيرَ ظهرِ الاعوجيِّ مهاد
معانقَ خيلٍ لا يُخلُّ وانما
مكان ذراعيه على نجاد (٢١)

وقال واصفاً يوم الطعان حينما ماس شجر القنا وجرى به ماء الحديد
فساحاً ، فأجاد في وصفه ايما اجادة وابدع بأسلوب قوي يشابه قوة ذلك
اليوم الذي تقارعت فيه الصوارم البتارة فسالت فيه الدماء انهارا :

ركضوا الجياد الى الجلاذ صباحا
واستشعروا النصرَ العزيزَ سلاحا

واستقبلوا أفقَ الشمالِ بجحفل
نشرَ القتامَ على الشمالِ جناحا

قد ماس في ارجائه شجر القنا
وجرى به ماء الحديد فساحاً (٢٢)

مطر الاعاجمَ منه عارضٌ سطوة
برقَ الحديدُ بجانيه فلاحا

حتى اذا قصم المهندُ نبوةً

واندق صدر السمهرى فطاحا

(٢١) الخل : الصديق ويعنى به هنا السيف • لا يخل : لا يقصر

(٢٢) ماس : تمايل • شجر القنا : الرماح • ماء الحديد : السيوف

زحمت مناكبه الاعادي زحمة
 بسطتهم فوق البطاح بطاحا
 قتلى بحيث ارفض دمع المزن لا
 رحمي ، فأسعدہ الحمام فباحا
 قد ترّبت منهم صحائف اوجه
 جعلت تمزقها السيوف جراحا
 فلو اطلعت لما اطلعت على سوى
 سهم تلمّ في قتل طاحا
 فحمت حريم المسلمين مصارع
 تركت حريم المشركين مباحا
 مسودّ ساحات المنازل وحشة
 مملوءة افنية الديار نيحا
 تأتي صقور منهم منقضة
 قدراً على مهج العدو متاحا
 ملأوا ضلوع الليل زرق أسنة
 سالت على اعطافه اوضاحا
 وتخايلت بهم الجياد كأنما
 شربت معاطف كل طيرف راحا
 من كل منصور اللواء اذا سرى
 مثلت له عقبى السرى فارتاحا
 فاضاع يضحك وجهه عن غرة
 سالت ويلعب في العنان مراحا (٢٣)

(٢٣) انصاع : ارتدّ .

يسرى بالبلج ما ادلهمت روعة
 الا تلاً وجهه مصباحاً (٢٤)
 واقام فوقهم العجاجة كلة
 وادار بينهم الردى اقداحاً (٢٥)
 ايسار حرب كلما اشتجر القنا
 لم يعملوا الا الرماح قداحاً
 طالوا العوالي بسطة فكانما
 ركزت يد الهيجا بهم ارماحاً
 من كل هضبة سؤدد هز الندى
 اعطافه طرباً فسال سماحاً
 ادمى اللقاء من القنا ظفراً له
 ذرباً ومد من اللواء جناحاً
 فانجاب ليل الخطب عن افق الهدى
 وتطلع الفتح المين صباحاً
 وقال في وصف رشاً أهيف يسقى القوم خمرا لونه لون خديه :
 واهيف قام يسقى والسكر يعطف قدّه
 وقد ترنح غصناً واحمرّت الكأس وردّه
 وألهب السكر خدّاً اورى به الوجد زنده
 فكاد يشرب نفسي وكدت اشرب خده

(٢٤) الابلج : الطلق الوجه •

(٢٥) العجاجة : غبار الحرب • الكلة : الستار •

وقال يصف غلاما اغر كاد ينساب ماء للطافته ورقته :

وأغرَّ كاد لطافةً وطلاقةً

ينساب ماءً بيننا مسكوبا (٢٦)

وسنانٌ يُدرك كل قلب طالباً

ويفوت كل مقيم مظلوبا (٢٧)

قد قام في صدر الندامى فاستوى

فحسبته ألفاً به مكتوبا

واكبَّ يشربها وتشرب ذهنه

فرايت منه شارباً مشروبا

مشمولةً ، بينا ترى في كفه

ماءً ، ترى في خده ألّهوبا (٢٨)

وقال يصف شابة ترقرق ماء الشباب بوجهها وفاض به الحسن ماءً

فوقها وطفا به الدرُّ النفيس حبابا :

فتَقَّ الشباب بوجتها وردةً

في فرع اسحلة تميد شبابا

وضحت سوائف جيدها سوسانة

وتوردت اطرافها عئابا

بيضاء فاض الحسن ماءً فوقها

وطفا به الدرُّ النفيس حبابا

(٢٦) الأغر : الابيض الجبين •

(٢٧) وسنان : ناعس •

(٢٨) الالهوب : اللهب •

بين النحور قلادةً ، تحت الظلام
غمامةً ، دون الصباح نقاباً
نادمتها ليلاً وقد طلعت به
شمساً وقد رقّ الشراب سرايا
وترنّمت حتى سمعت حمامة
حتى اذا حسرت زجرت غراباً (٢٩)

وقال في مجلس لهو :

سقيا ليوم قد أنختُ بسرحة
ريّاً تلاعبها الشمال فتلعب (٣٠)

سكرى يغنيها الحمام فتثني
طرباً ويسقيها الغمام فتشرب

يلهو وترفعُ للمشيية راية
فيه ويطلع للبهارة كوكب (٣١)

والروض وجه "ازهر" ، والظل فرع

اسود ، والماء ثغر اشنب

في حيث أطربنا الحمام عشية

فشدنا يغينا الحمام المطرب

واهتز عطف الغصن من طرب بنا

واقتر عن ثغر الهلال المغرب

(٢٩) أراد بالغراب شعرها الاسود .

(٣٠) انخت : نزلت .

(٣١) البهارة : الجمال .

فكأنه والحسن مقترن به
طوق" على بُرد الغمامة مُذهَّب
في فتيه تسرى فيصدع الدجى
عنها وتنزل بالجديب فيخضب
كرُموا فلا غيث السماحة مُخلف
يوماً ولأ برق اللطافة خلب
من كلِّ أزهرٍ للنعيم بوجهه
ماء يرققه الشباب فيسكب
وقال في بانه فينانه وكأنه يتصورها امردًا ذا فتنة وبهاء :
يا بانه تهتز فينانه
وروضة تفتح معطارا
لله اعطافك من خوطة
وحبًا نورك نوارا
علقت طرفاً فاترا
منك وغيراً منك غرّارا
ونابلاً مستوطناً بابلاً
نقات لحظ العين سحّارا
إذا رنا يجرحني طرفه
لحظته اجرحه ثارا
فيصبع الدر عقيقاً به
واصبع النوار ازهارا

وجهٌ به من بدع الحسن ما
يقيم للعشاق اعذارا
قد طبع الحسن به درهماً
تسبكُ منه العين ديناراً
من يلق من لاعج وجد به
ريحاً فقد لاقيت اعصاراً
تخفق أحشائي به دوحهً
وتشر الأعين نواراً
تدور بالعين من وجهه
كعبة حسن حثماً داراً
فلى به عينٌ مجوسية
تعبد من وجته ناراً

وله في وصف المطر وهو يتساقط رذاذاً كحبات اللؤلؤ، فتمتلىء
الاجواء منه عيرا كعير العنبر :

ندى النسيم فما أرقّ واعطرا
وهفا القضيب فما اغضّ وانضرا
فزففتها بكراً اذا قبلتها
ألقت على وجهي قناعاً احمرأ
ورفلتُ بين قميص غيم هلهل
ورداء شمس قد تمزق اصفرا
والريح تنخل من رذاذ لؤلؤاً
رطباً ، وتفتق من غمام عنبرا

وقال يصف منزلاً مائلاً للانهيان من اثر الغيث المنهمر ، فسقفه اخذ
بغنى وجدرانه كحالة السكران اخذت تمايل سطرًا على سطر :

اما ومسيلٍ مائلٍ الغيث كالسطر
كما اترع الساقى الزجاجَةَ بالخمر

لقد بت بين الرعد والقطر أشتكي
بسمعي من وقرٍ ، وظهري من وقر

وها انا مبلولُ الجناح من الحيا
يصوبُ ، ومذعور الفراخ من الوكر

واسقيتها من ديمةٍ إثرَ ديمةٍ
فمالت بها الجدران سطرًا على سطر

فمن عارضٍ يسقى ومن سقف مجلس
بغنى ومن بيتٍ يميلُ من السكر (٣٢)

اذا ما هوى ركنٌ فاهوى ، فأنني
لأشجى من الخنساء تبكى على صخر

وقال واصفا محاسن المرأة مقارنة اياها بمحاسن الطبيعة :

يا ربَّ ليلٍ بتُّه
وكأنه من وحفٍ شعركُ

تهل منزةٌ دمعتي
فيه ويندى نور ذكرك

اتبعتُ فيه وقد بكيت
عقيق خدك درَّ ثغرك

(٣٢) العارض : السحاب .

وشرفت فيك بعبرة

قد وردتها نار هجرك

فكأنما ينفض عن

حب لها رمان صدرك

ولرب ليل قد صدع

ت ظلامه بجبين بدرك

ولهوت فيه بدرة

مكنونة في حق خدرك

تدي شقائق وجنتي

ك به وتفتح ريح نشرك

وقد استدار بصفحتي

سوسان جيدك طل درك

حيث الجبابة دمعته

تجزى بوجنة كأس خمرك

وتهز منك فتشني

بقضيب قدك روح سكرك

وتعب من رجراج ردف

ك موجة في شط خصرك

الزهد

في شهر ابن الفارض

ان كل حركة دينية ترافقها حركة تدعو الى الزهد والورع والتسك والاعراض عن زخارف الدنيا والانتقطاع الى العبادة آناء الليل واطراف النهار •

والزهد كان شائعا عند العرب في جاهليتهم ولكنه نما بعد الاسلام • ولقد اشتدت حاجة المجتمع الاسلامي الى الزهاد كلما عم الرخاء وزادت الثروات وانغمس الناس في حياة اللهو والمجون حتى الذقون وركضوا وراء الملذات الدنيوية يعرفون منها ويكرعونها حتى الثمالة •

ولقد اشتهر بالورع والزهد والصلاح في القرنين الاولين للهجرة سعيد بن جبير وابراهيم بن ادهم وأبو سليمان داود بن نصر الطائي والفضيل بن عياض • ومن أهم من اشتهر بالورع والتقوى والصلاح في هذا الدور الحسن البصري المتوفى عام ١١٠هـ وكان من ابرز أهل عصره في حسن الخلق واصابة الرأي • ومن اعظم الزهاد في هذا الدور ام الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية المتوفاة في البصرة في عام ١٨٥هـ وكانت مشهورة بالصلاح والزهد • ولرابعة العدوية اهمية كبرى في حركة الفكر الصوفي ، فهي أول من دعا الى حب الله لذاته لا حبا بالجنة أو خشية من النار • وهي التي قالت ان حبا لله لم يدع في قلبها مكانا لكره ابليس ، فقد تملك الحب الالهي كل قلبها ولم يترك لها مجالا للانشغال بغيره •

اما الذين اشتهروا بالزهد والتقشف في القرنين الثالث والرابع للهجرة فأهمهم أبو سليمان عطية بن عبدالرحمن الداراني المتوفى عام ٢١٥هـ وكان

الداراني ، بالإضافة الى تشدده في التقشف ، يمثل الحب الالهي نميلا
صحيحا . ولما سئل عن كثرة بكائه أجاب : « ولم لا أبكي ؟ واذا جن الليل
ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه واقترش اهل المحبة اقدامهم (كناية
عن قيامهم الليل في الصلاة والدعاء) وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت
في محاريبهم اشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى : يا جبريل ! بعيني من
تلذذ بكلامي واستراح الى ذكرى . واني لمطلع عليهم في خلواتهم اسمع
انينهم وأرى بكاءهم انهم اذا وردوا عليّ يوم القيامة لا كشفن لهم
عن وجهي حتى ينظروا اليّ وانظر اليهم . »

ومن زهاد هذا العصر أبو عبدالله الحارث بن اسيد المحاسبي المتوفى
بغداد في عام ٢٤٣هـ . وكان يقول : « من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص
زين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » .

ومن الذين يشار اليهم بالبنان في هذا الدور ذو النون المصري وكان
شديد الحث على الفقر والتواضع وحياة التقشف فهاجم أهل عصره وخاصة
علماء جيله لافراطهم في الاقبال على الدنيا وطلب الجاه والمال ، وكان
يقول : « من علامة المحب لله عز وجل مبايعة حبيب الله في اخلاقه وافعاله
واوامره وسننه » .

وكان أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى عام ٢٦١هـ أول
من ادخل العناصر الاجنبية على الفكر الصوفي وكان أول من تكلم في
الفناء ، وهي النظرية المستمدة من (النرقانا Nirvana) الهندية . ومن
أقواله : « عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله . وللخلق احوال
ولا حال للعارف لانه محيت رسومه وفنيت هويته لهوية غيره ، وعيت
آثاره لآثار غيره » .

وكان من أهم الصوفية في هذا العهد أبو محمد سهل بن عبدالله

التستري المتوفى عام ٢٨٣هـ ، وأبو القاسم الجنيدي بن محمد المتوفى ببغداد عام ٢٩٧هـ الذي يعتبر سيد الصوفية وامامهم وطاوس العلماء .

وينتمي الى هذا العهد أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج المتوفى عام ٣٠٩هـ وأبو بكر محمد بن موسى الواسطي المتوفى عام ٣٣١هـ وأبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المتوفى في عام ٣٣٤هـ .

ومن أقطاب الصوفية عبدالقادر الجيلاني المتوفى ببغداد عام ٥٦١هـ وكان كثير التقوى والتعبد منصرفا عن الدنيا لم يزر وزيرا ولا سلطانا ولم يلم بباب العظماء والاعيان . وكان يقول : « متى ذكرته (أي الله) فأنت محب ، ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوب . والخلق حجابك عن نفسك ، ونفسك حجابك عن ربك . ما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك ، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك . الدنيا اشغال ، والآخرة أهوال ، والمرء بين الاشغال حتى يستقر قراره فاما الى جنة واما الى نار » .

اما شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي المتوفى عام ٦٣٢هـ فكان من تلاميذ عبدالقادر الجيلاني وكان فقيها فاضلا صوفيا ورعا سلك طريق الرياضة النفسية ولازم الخلوات وكان كثير العبادة والذكر والصوم والصلاة .

ومن ابرز شعراء الصوفيين العرب وابعدهم شهرة محي الدين بن عربي المتوفى عام ٦٣٨هـ وابن الفارض المتوفى عام ٦٣٢هـ .

فما هو التصوف ؟

بدأ التصوف أول ما بدأ كما ذكرنا آنفا دعوة الى حياة الزهد والتقشف وسلوك طريق الرياضة النفسية في ترك الملذات الدنيوية والقضاء على الشهوات النفسية وملازمة الخلوات ومواصلة العبادة والصلوات . ولقد عرف معروف الكرخي التصوف بانه « الاخذ بالحقائق واليأس مما في ايدي الخلائق » .

وفي أثناء القرن الثالث الهجري طغت على التصوف اتجاهات جديدة
في البحوث النظرية والكلام في وحدة الوجود ونظرية الشمول الالهي •
فقد دخلت مؤثرات عديدة من الفلسفة الافلاطونية الحديثة ومذهب
الغنوصية والديانتين الهندية والبوذية •

وكان البسطامي أول من ادخل نظرية الفناء على التصوف الاسلامي
فوجهه الوجهة الجديدة التي تتمصص مبدأ وحدة الوجود •

والقلب هو المحور الذي يدور حوله التصوف • اذ يقسم الصوفية
الاعمال الى قسمين : الاعمال الظاهرة أي العبادات والاعمال الباطنة مثل
الايمان والمعرفة والتوكل والمحبة والتقوى والشوق • ومركز هذه الاعمال
الباطنة القلب • فالمعرفة عند الصوفي تأتي عن طريق القلب لا عن طريق
الحواس أو العقل •

وغاية الصوفي من المعرفة ان يتوصل الى معرفة الله • وطريقته
للوصول الى تلك المعرفة العبادة المستمرة والرياضة النفسية وتوضيحية
الرغبات الدنيوية فتتكشف أمامه الستر وتنقشع الحجب ويحدث (التجلي)
وإذا به أمام الله وجهها لوجه فيمتلئ قلبه حبا بالله فلا يبقى مكان فيه لسواه •
كما قالت رابعة العدوية انها لا تخاف عذاب الله ولا ترجو ثوابه ، وان
حبها لله قد شغلها حتى عن حب رسوله ، لانها لم يعد في قلبها مكان
لسوى الله •

وعندئذ يدخل الصوفي في حالة (الوجد) وهي بدء النشوة في نفسه
للاقتراب من الله فتصرف حواسه عن كل ما حوله وتقتصر على التأمل في
الواحد الاحد الذي هو جوهر الوجود •

وتتلو تلك الحالة حالة (الفناء) حينما يبطل شعور الصوفي بكل
ما حوله وتتعطل حواسه فيفنى بالذات الالهية الفناء كله • وعند فئاته بالذات

الالهية تبرز حالة (البقاء) ، فقد فقد المخلوق ووجد الخالق ، ففى الانسان
وبقى الله ، بطلت مفردات الموجودات وتحققت ذات الوجود ، فلم يبق
في الوجود شيء الا الله • فأصبح الوجود وحدة كلية ليس فيها حلق
ومخلوق •

اما الادب الصوفي فهو أدب رمزي بطبيعته مغرق في اوجه البلاغة
وخصوصا الاستعارة • ويتخذ هذا الادب من الغزل والخمريات ستارا •
فاذا ما تغزل الصوفي بحبيب ، فما حبيبه الا الله • واذا ما وصف حال
المخمور فيقصد بذلك حالة الوجد والشوق الى الله وحالة الرضا والقناعة
النفسية عند التوصل الى معرفة الله •

وكانت رابعة العدوية من أوائل الصوفية الذين مدوا الادب العربي
الصوفي بتناج قرائحهم • وقد اشتهر عنها الايات التالية في الحب الالهى :

احبك حبين : حب الهوى

وحباً لانك اهل لذاك

فاما الذي هو حب الهوى

فشغلي بذكرك عن سواك

واما الذي انت اهل له

فكشفك لي الحجب حتى اراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي

ولكن لك الحمد في ذا وذاك

اما ابن الفارض فقد كان اشعر الشعراء الصوفيين العرب بلا منازع •
وكان منذ اوائل شبابه ينزع الى التدين • وكان يهرع الى كهف في جبل
المقطم يحتل فيه للعبادة والتأمل •

اسم شعره بالجزالة والرقعة وحسن الاسلوب وهو اكثر الشعراء

تعملاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق • ويعتبر ابن الفارض
موجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي حيث انه بغزله وذكره للخمر
يرمز الى الذات الالهية •

ومن روائع قصائده ما يلي مع شروحيها :

سائق الاطعان يطوى اليدَ طي

مُنعمًا عرَّجَ على كُتبان طي^(١)

وبذات الشيخ غني ان مرر

تَ بحىٍّ من عريب الجزع حي^(٢)

وتلطفَ واجرِ ذكري عندهم

علَّهم ان ينظروا عطفًا الي^(٣)

قل تركت الصبَّ فيكم شبحاً

ما له مما براه الشوق في^(٤)

خافياً عن عائد لاح كما

لاح في برديه بعد النشر طي^(٥)

صار وصف الضر ذاتيا له

عن عناء والكلام الحيّ لي^(٦)

(١) كُتبان طي كناية عن المقامات المحمدية يلتبس ابن الفارض
الوصول اليها •

(٢) المقصود عطر الشيخ أي ان المحبوب كالعطر لا يرى بالبصر •

(٣) لقد تكثفت في الاطعان المادة فهو يدعو الى تلطيف هذه المادة
ليتقرب بالتلطف الى محبوبه •

(٤) انه قد ذاب حبا حتى اضمحل ولم يعد لجسمه ظل ينطرح •

(٥) قد اشتد زواله وفناؤه حتى لم يبد لزائره منه غير ملح سراب •

(٦) صار وصفه عين ذاته وقد التبس الكلام حتى اختلط ما كان
واضحا من قوله •

- مثلَ مَسْلُوبِ حَيَاةٍ مَثَلًا
 صَارَ فِي حِكْمٍ مَسْلُوبٍ حَيٍّ (٧)
- مَسْبَلًا لِلنَّأَى طَرَفًا جَادٍ اِنْ
 ضَنَّ نَوَى الطَّرْفِ اِذْ يَسْقُطُ حَيٍّ (٨)
- بَيْنَ اَهْلِيهِ غَرِيبًا نَازِحًا
 وَعَلَى الْاَوْطَانِ لَمْ يَعْطِفْهُ لِي (٩)
- جَامِحًا اِنْ سِيمَ صَبْرًا عَنكُمْ
 وَعَلَيْكُمْ جَالِحًا لَمْ يَتَّأَي (١٠)
- نَشْرَ الْكَاشِحِ مَا كَانَ لَهُ
 طَاوَى الْكَشْحِ قَيْلَ النَّأَى طِي (١١)
- فِي هَوَاكُم رَمَضَانَ عَمْرَهُ
 يَنْقُضِي مَا بَيْنَ اَحْيَاءِ وَطِي (١٢)

-
- (٧) مَسْلُوبٌ : مَلْدُوعٌ (الْمَعْنَى) مِثْلُهُ مِثْلُ السَّالِكِ وَقَدْ لَدَغْتَهُ اَفْعَى شَهْوَاتِهِ ، فَمَاتَ مَوْتًا اِرَادِيًا لِيَقْهَرِ الْجِسْمَانِيَّةَ فِيهِ .
- (٨) اِنْ هَذَا الْمَحْبُوبُ فَاضَتْ بِمَاءِ الْحَيَاةِ عَيُونَ قَلْبِهِ عَلَى اَرْضِ النَّفُوسِ الْغَافِلَةِ حَتَّى بَخَلَتْ عَلَيْهِمْ كَوَاكِبُ اَرْوَاحِهِمْ بِالْفَيْضِ الْاِلَهِيِّ .
- (٩) اِنَّهُ غَرِيبٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ بَيْنَ اَهْلِهِ وَخَلَانِهِ لِانْ اَثَرَ الْبَشَرِيَّةَ عَالَقَ بِهِ فَيَحْوِلُ دُونَ اتِّصَالِ بِالْغَيْبِ اَيَّ بِعَالَمِ الْمَحْبُوبِ .
- (١٠) اِنْ مَشَقَاتِكُمْ تَضْنِيهِ وَهُوَ صَابِرٌ عَلَيْهَا ، فَفِي حَبِّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَالُ الْمَشَقَّةِ .
- (١١) الْكَاشِحُ : مِنْ اَضْمَرَ الْعِدَاوَةَ . وَهُوَ هُنَا الَّذِي يَحْمِلُ الْمَرْءَ عَلَى مَلذَاتِ الدُّنْيَا . وَكَانَ هَذَا يَضْمُرُ الْعِدَاءَ قَبْلَ الْبَعْدِ ، فَلَمَّا نَأَى الْحَبِيبَ نَشَرَ بَغْضَهُ .
- (١٢) صَامَ عَمْرَهُ كُلَّهُ عَنِ رُؤْيَا الْاَغْيَارِ مُنْتَظِرًا فَيْضَ الْاَسْرَارِ عَلَى قَلْبِهِ وَالتَّجَلِّيَاتِ . يَسْهَرُ فِي الطَّاعَةِ لَيْلَ غَفْلَتِهِ وَنَهَارَ يَقْظَتِهِ .

صاديا شوقاً لصدّاء طيفكم
جِدّاً ملتاحاً الى رؤيا وري (١٣)

حائراً فيما اليه امره
حائر والمرء في المحنة عي (١٤)

.....
.....

والذي ارويه عن ظاهر ما
باطني يزويه عن علمي زي (١٥)

.....
.....

ومتى اشك جراحاً بالحشا
زيد بالشكوى اليها الجرح كي (١٦)

.....
.....

سَقَمِي من سَقَمِ اجفانكم
وبمعسول الثنايا لي دوي (١٧)

-
- (١٣) ظمآن الى طيفكم وسبب الظمآن انه اغترف من بحر التوحيد بعد ان تجلى له الحبيب ، وكل من شرب من هذا البحر يظل ظامئاً اليه .
ولا دواء له لكي يروى ظمأه الا الاضمحلال بالكلية .
(١٤) ان هذا الصب حائر في امره وهي حيرة معجزة .
(١٥) لم اخترع ما اذكره لكم من المعاني الالهية . لقد تجمعت معاني الحق في باطني .
(١٦) في باطني جراح كلما شكوت منها ازداد قلبي اشتعالا .
(١٧) في سقم الاجفان تنزيه للحق تعالى ، ومعسول الثنايا كناية عن اسماء الله الاربعة : الحي ، العالم ، المرید ، القادر .

نِعْمَ ما زمزمَ شادِ محسنٍ
بحسانٍ تخذوا زمزمَ جي (١١)

وادراعي حلال النقع ولي
علماء عوض عن علمي (١٢)

واجتماع الشمل في جمع وما
مرَّ في مرَّ بأفياء الأشي (٢٠)

لنني عندي المنى بلغتها
واهيلوه وان ضنوا بفي (٢١)

لم يرق لي منزل بعد النقا
لا ولا مستحسن من بعد مي (٢٢)

(١٨) انه ينهل الشراب الالهي الذي يغنيه عن شراب الجسم وطعامه .

(١٩) الحقيقة المحمدية مادة العوالم الكونية . ويتحدث ابن الفارض هنا عن الانتشاء بجلال الله وجماله بعد ان ورد شرعته .

(٢٠) اجتماع الحقيقة الانسانية بالحقيقة المحمدية أو بروح الله الاعظم .

(٢١) لقد بخل على اهل مني ولم يبذلوا لي ما يجذبني اليهم ، ولكنهم هم عين مطلوبي .

(٢٢) لقد دخلت طريق الحق بعد مجاهدات جمة في طريق السلوك فبان لي ان المقامات كلها تجتمع في المقام المحمدي ، فلم يرق لي أي شيء آخر بعد استجلائي لهذا السر المحجوب .

.....
.....
نحلت جسمي نحولا خصرها
منه حال فهو ابهى حلتي (٢٣)

.....
.....
عدت مما كابدت من صدها
كبدي حلف صدى والجفن ري (٢٤)
واجدا منذ جفا برقعها
ناظري من قلبه في القلب كي (٢٥)

وكذلك القصيدة التالية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً
سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم (١)
لها البدر كأسٌ وهي شمس يديرها
هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم (٢)

(٢٣) الخصر : كناية عن نفس السالك • وهي وسط بين عالميه
الارض والالهي • والنحول : الضعف • وهو من محاسن الصورة الالهية •
(٢٤) صدت الحبيبة فارتوى جفني بالبكاء وظل كبدي حلف
• صدى

(٢٥) كنى بالبرقع ما حال بينه وبين مشاهدة محبوبه •

(١) الحبيب : ذات جوهر الوجود • المدامة : المعرفة الالهية • قبل
ان يخلق الكرم : قبل الوجود •
(٢) البدر : العارف الصوفي الكامل • الخمره : المعرفة الالهية •
ومتى شرب المرید من الخمره فنى في الكم والكيف • النجم : سبيل
الهدى •

ولولا شذاها ما اهدت لجانها

ولولا سناها ما تصورها الوهم^(٣)

.....

.....

ولو خضبت من كاسها كف لأمس

لما ضل في ليل وفي يده النجم^(٤)

.....

.....

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا

ونور ولا نار وروح ولا جسم^(٥)

تقدم كل الكائنات حديثها

قديما ولا شكل هناك ولا رسم^(٦)

وقامت بها الاشياء ثم لحكمة

بها احتجبت عن كل من لا له فهم^(٧)

-
- (٣) الحان : كناية عن الحضرة الالهية • فكانما عطر القوة الازلية
قد شاع في الاكوان فملأها ارجاء •
- (٤) كان الروح الالهية بكف الشارب نور يتألق ونجم يهتدى به •
واذا وضع المرید يده في يد الشيخ الكامل المرشد فقد بلغ الحق •
- (٥) انها روحانية منزهة عن العناصر الاربعة : الماء والهواء والنار
والتراب •
- (٦) ان القوة الازلية سبقت كل الكائنات قبل ان يكون أي شكل
أو رسم •
- (٧) ان جميع الاشياء قامت بارادة تلك القوة الازلية لحكمة احتجبت
عمن لم يفهموها من كلام العارفين •

وهامت بها روحي بحيث تمازجا ات
-حاداً ولا جِرمٌ تخلله جرم (٨)
فخمر ولا كرم وآدم لي أب
وكرم ولا خمر ولي أمها ام (٩)

.....

.....

وقد وقع التفريق والكلُّ واحدٌ
فارواحنا خمرٌ واشباحنا كرم (١٠)
ولا قبلها قبلٌ ، ولا بعدَ بعدها
وقبلية الابعاد فهي لها حتم (١١)

.....

.....

وعنديَ منها نشوة قبل نشأتي
معي ابدأ تبقى وان بلى العظم (١٢)

.....

.....

-
- (٨) تمازج روحانا واتحدت ولكن ليس كاتحاد الاجسام بالاجسام .
(٩) اني في الظاهر من جملة الممكنات المنعدمة ، وفي جوهر وجودي
متصل بذات الحق الازلي .
(١٠) هذا البيت تفسير لسابقه . (معناه) ان جميع الاشياء في
الكون ولو انها مجزأة في ظاهرها الا انها كلها شيء واحد يسير فيها اكسير
الروح الالهي في وحدة شاملة .
(١١) ان الحضرة الازلية منزهة عن قيود المكان والزمان . وهي
واحدة منذ الازل حتى الابد .
(١٢) ان هذه النشوة الالهية كانت معي قبل نشأتي وستبقى معي
الى ما لا نهاية وان بلى العظم .

على نفسه فليكن من ضاع عمره
وليس له فيها نصيب ولا سهم (١٣)
وهذه قصيدة أخرى :

قلبي يحدثني بانك متلفي
روحي فداك عرفت ام لم تعرف (١)

لم افض حق هواك ان كنت الذي
لم افض فيه اسي ومثلي من يفي (٢)

مالي سوى روحي وباذل نفسه
في حب من يهواه ليس بمسرف (٣)

فلئن رضيت بها فقد اسعقتني
يا خيبة المسعى اذا لم تسعف (٤)

يا مانعي طيب المنام ومانحي
ثوب السقام به ووجدي المتلف (٥)

.....
.....

فالوجد باق والوصال مماطلاي
والصبر فان واللقاء سوفي (٦)

(١٣) من لم يفن في مشاهدة الحق عمره فقد فقدته وليكن على نفسه .

- (١) هو حديث القلب من امر الله .
- (٢) بعد ان تجلى لي الحبيب ادبت حق هواه بالفناء الكلي فما بقي الا . ومن احب مثلي فنى وانعدم في وجود الحبيب .
- (٣) مالي سوى روحي ابذلها للفناء في من اهواه .
- (٤) اذا لم تسعف : اذا لم تساعد روحي على اللحاق بالروح الاعظم .
- (٥) ترى في البيت السهاد والسقام والوجد حتى التلف .
- (٦) الوجد : ما يجده المحب من شدائد حبه .

ان لم يكن وصل لديك فعد به
أملني وماطل ان وعدت ولا تقي (٧)

.....

.....

اخفيت حكيم فاخفاني اسي
حتى لعمرى كدت عنه اخفي (٨)

وكتمه عني فلو ابديته
لوجدته اخفى من اللطف الخفي (٩)

.....

.....

دع عنك تعيفي وذق طعم الهوى
فاذا عشقت فبعد ذلك عنف (١٠)

.....

.....

وان اكنفي غيري بطيف خياله
فانا الذي بوصاله لا اكنفي (١١)

-
- (٧) ان لم يتح لي الرجوع اليك بعد ان فنيت فيك فلا تقطع رجائي
بوصالك من جديد • ففي وعدك ، وان لم تف به ، سعادة لنفسى •
- (٨) اني كتمت هواي حتى شفني وبراني وكادت ذاتي لا ترى ذاتي •
- (٩) اني لم ابح بهذا الهوى ، ولو اني فعلت لرأيتني اخرج عن
الاعتبارات التي يمكن ادراكها •
- (١٠) يلمع هذا البيت الى التجربة الروحية في الحب لدى المتصوفة
اذ لا يدرك نعيم هذا الهوى من لم يتحسسه •
- (١١) يشير الى مبدأ الترقى في مدارج الاتحاد •

.....
.....
مني له ذل الخضوع ومنه لي
عز المنوع وقوة المستضعف (١٣)

يا ما اميلح كل ما يرضى به
ورضابه يا ما احيلاه بقي (١٣)

.....
.....
وعلى تفنن واصفيه بحسنه
يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف (١٤)

.....
.....
فالعين تهوى صورة الحسن التي
روحي بها تصبو الى معنى خفي (١٥)

(١٢) في هذا البيت خضوع العاشق وعذابه وذله وامتناع المعشوق
وقد عز وصاله .

(١٣) الرضاب : الريق . (الشرح) يلقي المحبوب في قلبي العلوم
الالهية والحقائق الربانية فيثلج صدري وتهنأ نفسي .
(١٤) الحقيقة المحمدية هي النور المادي الذي خلقه الله في البدء .
وتفنى الدنيا ويتولى الزمان ، ولا يبلغ الواصفون هذا الجمال الكلي الذي
لا حد له .

(١٥) صورة الجمال المحسوس نقطة انطلاق في الحب . غير ان
العاشق الصوفي لا يقف عندها وانما يبحث وراءها عن الحق والجمال
المنعوي واللطائف الخفية .

.....
.....
فسمعت ما لم تسمعي ونظرت ما
لم تتظري وعرفت ما لم تعرفي (١٦)

.....
.....
ما للنوى ذنب ومن اهوى معي
ان غاب عن انسان عيني فهو في (١٧)
واليكم نبذا من قصيدته الشهيرة المسماة (التائية الكبرى أو نظم
السلوك) وهي مختارات تتضمن المبادئ الرئيسية للتصوف التي مطلعها :

سقتني حياء الحب راحة مقلتي
وكأسي محيا من عن الحسن جلّت

الحب في طوره الاول :

هبي ، قبل يفنى الحب مني بقية
اراك بها ، لي نظرة المتفلت

فعندي لسكري فاقه لا فاقه
لها كبدي ، لولا الهوى ، لم تفتت

ولم احك في حبيك حالي تبرما
بها لاضطراب ، بل لتنفيس كرتي

(١٦) قال الشاعر يخاطب نفسه : « سمعت من روح الله ، ورأيت
من وجود الحق وتجلياته المبينة ما لم تتسن لك رؤيته » .

(١٧) ليس هناك ذنب للبعاد ، اذ ان من اهوى هو دوما معي .
فان غاب عن عيني فهو كامن في اذ ان روحينا ممتزجان في الوجود الكلي .

ويمنعني شكواي حسن تبصري
ولو أشك للاعداء ما بي لاشكت

وما حل بي من محنة فهو منحة
وقد سلمت من حل عقد عزيزي

وكل اذى في الحب منك اذا بدا
جعلت له شكري وكان شكيتي^(١)

ما الموت والفناء غير الحياة الحقيقية :

فلم تهوني ، ما لم تكن في فانياً
ولم تفن ، ما لا تجتلي فيك صورتي^(٢)

وجانب جناب الوصل ، هيهات لم يكن
وها انت حي^٣ ، ان تكن صادقاً مت^(٣)

هو الحب ، ان لم تقض ، لم تقض مأرباً
من الحب ، فاختر ذاك أو خل خلتي^(٤)

اجل اجلى ارضى انقضاء صباية
ولا وصل ان صحت لحبك نسبتي

(١) يخاطب المحبوبة يسألها ان تمن عليه رؤيتها قبل ان يعرفه
الفناء . ويلتمس العذر عن شكواه مما يعاني من ألم هواه . ولو انه افضى
بالسر الذي يبرحه للعدو لرق لحاله . وهو في ذلك كله متصبر راض بعد
الالم هبة ، وهذه هي لذة الالم .

(٢) لا يسمى الحب كذلك الا اذا تم الفناء في المحبوب وما لم تتضح
في نفس العاشق صورة معشوقه .

(٣) لا يكون وصل بالحياة فان كنت صادقاً في طلب الوصال
فاستعد للفناء .

(٤) فلن يمكنك ان تقضى مأرباً من الحب ان لم تتخلص من عالم
الظلال المحسوس .

فقد صرت ارجو ما يُخاف فأسعدى
به روح ميت للحياة استعدت (٥)

في حالة الفناء تستعيد النفس صفاء القديم :

فاننى الهوى ما لم يكن ثم باقيا
هنا من صفات بيننا فاضمحلث (٦)

فالفيت ما ألفت عني صادرا
الى ومنى واردا بمزيدتي (٧)

وشاهدت نفسي بالصفات التي بها
تحجبت عني في شهودي وحجبتني

وانى التي احببتها لا محالة
وكانت لها نفسي على محيلتي (٨)

الفناء والاتعاد :

حلت في تجليها الوجود لناظري
ففي كل مرأى اراها برؤية (٩)

واشهدت غيبي ، اذ بدت ، فوجدتني
هنالك اياها بجلوة خلوتي (١٠)

(٥) صرت اتمنى الموت الذي يخاف الناس منه واجد بذلك سعادة

اي سعادة لاني بذلك سأستقبل الحياة الحقيقية .

(٦) بالحجب زالت الصفات الجسمانية التي هي الحجب الفاصلة

ما بينه وبين محبوبته .

(٧) انه هو البداية والمصدر ، وهو المنتهى والمآل .

(٨) بعد ارتفاع الحجب تكشفت ذاته لذاته ، واتضح له ما كان

قد شبه له والتبس عليه .

(٩) هي التي اظهرت الوجود لناظريه فبات يراها في كل موجود .

(١٠) ولما تجلث الحبيبة عرفت ان ذاتي هي عين ذاتها .

وطاح وجودي في شهودي وبنت عن
وجود شهودي ما حيا غير مشيت (١١)

وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي
بمشهده للصحو من بعد شكرتي (١٢)

وحدة الوجود حال من الاحوال الشعورية :

اروح بفقدي بالشهود مؤلفي
واغدو بوجد بالوجود مشيتي (١٣)

يفرقني لبي التزاما بمحضري
ويجمعني سلبى اصطلاما بغيتي (١٤)

اخال حضيضي الصحو ، والسكر معرجي
اليها ، ومحوى منتهى قاب سدرتي (١٥)

وشفع وجودي في شهودي ظل في ات
حادي وتراً في تيقظ غفوتي (١٦)

(١١) لقد امحى وجودي في الحبيبة • والمحو وجود سلبي مختلف
عن الاثبات الذي هو الوجود المحسوس خاصة •

٣٦٢

(١٢) لقد حصل لي صحو رائع بعد السكر الذي انتشيت به • ومرد
هذا الصحو الى ان الحبيبة هي الوجود المطلق • والصحو يعقب السكر ،
والسكر اعلى درجات الغيبة •

(١٣) الوجد يشعره بوجود ذاته •

(١٤) العقل هو سبب التفرقة • وان الجمع والاتحاد لا يتمان الا
في حالة الغيوبة •

(١٥) حالة الصحو هي الحضيض وحالة السكر تؤدي لا محالة الى
الاتحاد بالمحبوب الالهي •

(١٦) ان وجودي وشهودي ظلا متميزين حتى كانت غفوتي اليقظة
فكان الاتحاد •

٣٦١

تعانقت الاطراف عندي وانطوى
بساط السوى عدلاً بحكم السوية (١٧)

القطبية مصدر الوجود والحياة والشرائع :

فبى دارت الافلاك فاعجب لقطبها ال
محيط ، فان القطب مركز نقطة

وكلهم عن سبق معنای دائر
بدائرتي ، او وارد من شريعتي

وروحي للارواح روح ، وكل ما
تري حسنا في الكون من فيض طينتي

ومن عهد عهدي قبل عصر عصري
الى دار بعث قبل انذار بعثة

الى رسولا كنت مني مرسلا
وذاتي بآياتي علي استدللت

ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن
شهود ، ولم تعهد عهد بدمية

فلا حي الا عن حياتي حياته
وطوع مرادي كل نفس مريدة (١٨)

(١٧) لقد تجمع ما كان شئيتا • ولم يعد ثمة تمييز بين الانانية
والغيرية ، بين المحبوبة والشاعر • اذ انهما قد تساويا في معادلة الوجود •
(١٨) ان هذه الابيات تنقصر مبدأ وحدة الوجود وشمول الروح
الالهية لكل فرد ولكل شيء في الكائنات • فالكون بأسره وبجميع اجزائه
يكون وحدة شاملة تندمج بالقوة الالهية • وكل جزء من هذا الكون يمثل
مظهرا من مظاهر تلك الازلية • ولكن من الخطأ أن يدعى اي جزء من هذا
الكون بانه هو الله كما قال الحلاج « انا الله » و « ما في الجبة الا الله » اذ
الجزء ليس الكل •

فألقط في نظر ابن الفارض مبدأ الحياة وأصل الوجود • وكل ما في العوالم المادية والعقلية والروحية من كائنات جزئية مستقى من اصل واحد ومنبثق من حقيقة جامعة شاملة •

كما قال ابن الفارض :

وروحيّ للارواح روحٌ وكلُّ ما ترى حسناً في الكون ، من فيضِ طينتي

وكلهم عن سبقِ معنای دائرٍ بدائرتي ، او واردٌ في شريعتي

٧١	بدائرتي ، او واردٌ في شريعتي
٥٦	المستور وحده
٥٦	في فلسفة الفلاسفة
٨٦	رسالة
٥٥	رسالة
٦٥	رسالة
٦٧	رسالة
٧٠١	رسالة
٦٣١	جغرافية العالمين
٧٧١	رسالة
٦٠٦	رسالة
١٧٧	رسالة
٦٧٧	رسالة
٥٨٧	رسالة
٦٠٦	رسالة
٧١٧	رسالة
٧٣٧	رسالة

الفهرست

الصفحة	
٣	تصدير
٧	توطئة
١٠	المقدمة :
١٠	العرب : منشؤهم وموطنهم ولغتهم
١٤	حياتهم الاجتماعية والفكرية
١٧	الشعر العربي : خصائصه واغراضه
٢٥	الشعر الجاهلي
٣٠	الشعر الاموي
٣٨	الشعر العباسي
٤٤	الشعر الاندلسي
٤٩	الحماسة في شعر عنترة العبسي
٧٦	الثناء في شعر الخنساء
١٠٧	الغزل في شعر عمر بن ابي ربيعة
١٤٦	العشق في شعر قيس بن الملوح
١٧٧	المجون والخمريات في شعر ابي نؤاس
٢٠٩	الزهد في شعر ابي العتاهية
٢٣١	الفلسفة في شعر المعري
٢٦٢	الفخر والكبرياء في شعر المتنبي
٢٨٥	المدح في شعر ابن هانئ الاندلسي
٣٠٦	الحكم والامثال في شعر الطغرائي
٣١٧	الوصف في شعر ابن خفاجة
٣٤٣	التصوف في شعر ابن الفارض

للمؤلف نفسه

الديمقراطية في التكوين

بحث تحليلي وسجل تاريخي

للفلسفة السياسية والحركات

الديمقراطية منذ عهد الاغريق

حتى يومنا هذا

نقد

الدستور وحقوق الانسان

الجزء الاول : في فلسفة التشريع والايديولوجية الديمقراطية

نقد

الجزء الثاني : في حقوق الانسان ومبادئ الدستور الامثل

نقد

جغرافية العالم للاحداث

كتاب من كتب الرحلات فيه وصف

شيق لمختلف أقطار العالم

مترجم عن الانكليزية

لمؤلفه : الرحالة ف. م. هيلير

الناشر : مؤسسة فرانكلن

تصحيح أخطاء مطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٢	٧	سقيا	سقيا
١٩٩	١	مجانية	مجانية
٢١٣	السطران ٧ و ٨ مكرران	• يحذف السطر السابع ويضاف السطر التالي بعد كلمة يعزفون : « ويعربدون ، وهناك في زاوية أخرى ترى العابدين سادرين بين المقابر »	
٢١٦	١٨	عب	حب
		وهناك بعض الأخطاء المطبعية البسيطة الأخرى لا تخفى على القارىء اللبيب	

الطبعة الاولى

١٩٦١

١/١٠٠٠

٥٣٥٥-٥٣
٥٣٥٥-١٣
٥-٥

٥٣٥٥

٣٦٧

1845-1846

[Redacted]

Bookkeeper[®]

Deacidification for Libraries and Archives

September 2009

NYU - BOBST



31142 02885 5362

PJ7551 .B3

Dirasat fi